مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية
GCC Centre for Translation, Arabisation and Promotion of Arabic

شِعْر الإخوانيات
في شبه الجزيرة العربيَّة

من بداية القرن العاشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري

البواعث والسِّمات (دراسة تحليلية)

تأليف
أ.د. محمد بن راضي الشريف

1447هـ/2026م
إصدار مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

أ.د. محمد بن راضي الشريف

شِعْر الإخوانيات
في شبه الجزيرة العربيَّة

من بداية القرن العاشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري

البواعث والسِّمات (دراسة تحليلية)

1447هـ/2026م

إصدار مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

اسم الكتاب: شِعْر الإخوانيات في شبه الجزيرة العربيَّة
تأليف: أ.د. محَمد بن راضي الشريف
الرقم الدولي: 978-99992-1-424-7
رقم الإيداع: 2026/10514
الطبعة الأولى: 1447هـ - 2026م
نُشِرَ في مسقط، سلطنة عُمان

الناشر:
مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية

ص. ب (539) - مسقط - سلطنة عُمان
هاتف: 24968870 (968+) فاكس: 24607550 (968+)
البريد الإلكتروني: ctapa@gccsg.org
الموقع الإلكتروني:
https://gcc-sg.org/ar/JointGulf/Cooperation/GCCTAB/Pages/default.aspx

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية التابع للأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، ويُمنَع استخدام أيٍّ من المواد التي يتضمنها الكتاب أو استنساخها أو نقلها كليًّا أو جزئيًّا في أي شكل وبأية وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل أو أي نظام من نظم تخزين المعلومات أو استرجاعها إلا بإذنٍ خطيٍّ من الناشر.

الإشراف العام:

أ.د. عبد الله بن سيف التوبي
مدير مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

تأليف الكتاب:

أ.د. محمد بن راضي الشريف
باحث ومؤلف- المملكة العربية السعودية

المتابعة والتنسيق الإداري:

أ . يحيى بن ناصر البوصافي
رئـيس قسـم الرصـد والنشر

التَّحرير والمتابعة الفنية:

أ. سمية بنت سليمان السليمانية
خبيرة اللغة العربية بالمركز

مقدمة الباحث

يتناول الكتاب غرضًا بارزًا تلبَّس بأغراض أخرى في فترة ما سمّي بعصر الدول والإمارات أو عصر الدول المتتابعة، وحال ذلك دون تبيّن حدوده ومعالمه، لذا يحاول الكتاب تأطير شعر الإخوانيات بصفته غرضًا قائمًا بذاته يختلف عن أغراض تتقاطع معه، وذلك من خلال نصوص شعرية إخوانية من بيئات وأزمنة مختلفة من شأنها أن تبرز الخصائص التي تؤكد هذا التفرّد، والحرص على البحث عمّا وراء كتابة هذا الشعر من بواعث، وتجلية سماته الخاصة المشتركة، ومحاولة الإجابة عن بعض الأسئلة، مثل: ما الذي يميّز شعر الإخوانيات لجعله غرضًا قائمًا بذاته؟ وما نقاط التقاطع بين شعر الإخوانيات وشعر المديح؟ وما سبب شيوع شعر الإخوانيات في هذا العصر؟ وهل لشعر الإخوانيات جذور في الشعر العربي القديم؟ وهل يختلف الدافع الباعث لكتابة شعر الإخوانيات عن الباعث عند من ينشئ قصيدة المديح؟

لا توجد - حسب علم الباحث- دراسات سابقة ناقشت هذا الموضوع وأطَّرته بشكل مستقل، سوى ما ورد من حديثٍ مبتسرٍ عن شعر الإخوانيات في بعض الدراسات الخاصة بهذا العصر،

وهنـاك كتـب حملـت عنـوان الإخوانيـات اقتصـرت علـى إيـراد القصائـد الإخوانيـة.

تتأتى أهميَّة الكتاب من أهميّة موضوعه الذي لم يوفَّ حقه من الدراسة والتأطير، فظلَّ عالقًا وملتبسًا بموضوعات أخرى، أما الفترة الزمنية فقد حددت من بداية القرن العاشر الهجري أي ما بعد عام 900هـ إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري أي عام 1300هـ، وبذلك تكون الفترة المحددة زمنيًا (من 900هـ إلى 1300هـ)، (1494 إلى 1882م)، ويعود السبب لتحديد الفترة لأمرين؛ أولهما: أن هذا الشعر وإن كانت جذوره تعود إلى العصر العباسي إلا أنه شاع وتطوَّر في ما يعرف بعصر الدول المتتابعة الذي حدده مؤرخو الأدب بعام 656هـ وجعلوا نهايته بداية اتصال مصر بالغرب بدءًا من بعثات محمد علي باشا في بداية القرن الثالث عشر الهجري، إلا أن التجديد والتغيّر في الشعر العربي لم يتحقق جزئيًا إلا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري وذلك في الحواضر ذات الاتصال المباشر بالغرب، كما أن هذا التجديد والتأثر بالغرب لم يصل إلى بعض المناطق العربية وشبه الجزيرة العربية بشكل خاص. وثانيهما: توفّر المصادر لهذا الشعر حيث وفرة دواوين الشعراء وكتب التراجم للأعلام عامة وللشعراء خاصة وكتب الرحلات إلى الحرمين الشريفين. فشِعر الإخوانيّات يحتاج إلى مجلّدات لإظهار ما ورد منه؛ لذلك سيقتصر الكتاب على شواهد منه تساعد على تأصيل مفهومه وتأطيره، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

والفترة من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر فترة ثريّة بالشعر والشعراء، فدواوين الشعر كثيرة منها ما أُخرج مطبوعا ومنها الذي ما يزال مخطوطًا، كذلك المصنفات والتراجم حافلة بالشعر والشعراء وقد نصَّ على ذلك بعض الباحثين حيث ذكر أنَّ «القرن العاشر الهجري وما تلاه تدرّ علينا جواهرَ، وسماواتها تمطر علينا كوثرًا، فمنحتنا أعدادًا وفيرة من الشعر والشعراء...». (الحازمي، 8102، صفحة 371)

وتحتِّم طبيعة الموضوع والمادة المدروسة منهجية معيَّنة للكتاب تتمثَّل في المنهج التاريخي الذي يتتبَّع الغرض المرمي إلى تأطيره، والمنهج الوصفي التحليلي لدراسة النصوص الشعرية.

الفصل الأول

مفهوم شِعْرِ الإخوانيات

أولًا- المعنى اللغوي للإخاء:

في لسان العرب (أخا) الأَخُ أَصله أَخَوٌ بالتحريك لأَنه جُمِع على آخاءٍ مثل آباء والذاهب منه واوٌ لأَنك تقول في التثنية أَخَوان ويجمع أَيضًا على إِخْوان وعلى إِخْوةٍ وأُخْوةٍ، وقد يُتَّسَع فيه فيُراد به الاثنان. وأَكثرُ ما يستعمل الإِخْوانُ في الأَصْدِقاء والإِخْوةُ في الوِلادة. ». (ابن منظور م.، 1994، صفحة أخا)

وفي تاج العروس، الأَخُ: الصَّدِيقُ والصَّاحِبُ؛ ومنه قَوْلُهم: ورُبَّ أَخ لم تَلِدْهُ أُمُّك. قالَ: بعضُ النّحويِّين: سمِّي الأَخُ أَخًا لأَنَّ قَصْده أَخِيهِ، وأَصْلُه مِن وَخَى أَي قَصَدَ فقُلِبَتِ الواوُ هَمْزةً. وقوْلُه تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، إشارَةً إلى اجْتِماعِهم على الحقِّ وتَشارُكِهم في الصفَّة المُقْتَضيةِ لذلِكَ. (الزبيدي، 1965، صفحة أخا)

وفي المفردات في غريب القرآن «الأخُ هو المشارك آخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدِّين، أو في صنعة أو في معاملة أو في مودة، وفي غير ذلك من المناسبات». (الراغب الأصفهاني، 1970، صفحة 13)

يتَّضح بذلك أن جذر (أخا) الثلاثي يتعلَّق بالربط والمشاركة بين شخصين وأكثر سواء في النسب القريب أو البعيد، أو في الدين

أو الصنعة أو المعاملة أو المودَّة وغير ذلك من العلاقات المتعدِّدة، لذلك فالأخوّة مناسبة لوصف الشعر مجال الدراسة الذي يقوم على علاقة وزمالة الأدب والعلم والاشتراك في صنعة واحدة، إلى جانب علاقة النسب والصداقة.

ثانيًا- المعنى الدلالي لقصائد الإخوانيات:

يطلقُ (شعرُ الإخوانيات) على ذلك النوعِ من الشعرِ الذي يمثِّل العلاقاتِ الاجتماعيةَ للشعراءِ مع غيرِهم، ممن يكونون في درجتهم الاجتماعيةِ أو قريبًا منها، فالقصيدةُ الإخوانيةُ مُوَجَّهَةٌ إلى شخصٍ آخرَ، غالبًا ما يكونُ صديقًا أديبًا شاعرًا. ولا صحة لما يرد في بعض الدراسات من إدارج الإخوانيات ضمن شعر غرض المديح؛ لأن قصيدة المديح توجَّه عادةً إلى شخصية ذاتِ مكانةٍ اجتماعيةٍ عاليةٍ، أو إلى صاحب مكانة سياسية مرموقة في الدولة، ولا يرتجي الشاعرُ من نظمِ قصيدته تلك أن يردَّ عليه الشخصُ الممدوح، بل جُلَّ مُرادِهِ أن يَتَقَرَّبَ منه فقط وينالَ رضاه ومكافأتَه. من هنا تكون طبيعة العلاقة الإنسانية بين الشاعر وصاحبه الذي اتخذه أخًا، أو يشعر تجاهه بمشاعر أخوية خاصة ودًّا ومحبةً، مصدرَ القيمة الفنية لهذا النوع من الشعر، وأساسًا للحكم عليه نقديًا. **وسيكون الفيصل للحكم على قصيدة ووصفها بأنها إخوانية متأتّيًا من إدراك الباحث على كتابتها.**

إذا فـ (الإخوانيات) غرض شعريّ يُعْنَى به ذلك النوعُ من الشعر الذي تتم مطارحته وتبادله وتراسله بين الأصدقاء والخلان،

يُجدّد عن طريقه الشاعر أواصر صداقته بمن يوجهها إليه، ويؤكد فيه الوفاء والالتزام بها، أو يرغب عن طريقه في تأسيس صداقة جديدة مع شاعر أديب تربط بينهما لحمة الأدب، مع انتظار الشاعر المنشئ الجواب على الطريقة ذاتها.

يلجُ شاعرُ الإخوانياتِ هذا الميدانَ بنَفَسٍ شِعريٍّ يختلفُ عن صَنيعهِ تِجاهَ الأغراضِ التقليدية، بل يختلف حتى عن تعاطيه مع غرضِ المدحِ الذي تتشابهُ أدواتُه ومراميه مع هذا الغرض، على ما اتَّضح آنفًا. ذلك أن موقفَ شاعرِ القصيدةِ الإخوانيةِ النفسيَّ يتدثرُ بمشاعرِ الإخاء، فهو ليس الموقفُ نفسُه الذي يتّخذه شاعرٌ مدَّاحٌ مثلُ أبي الطيب المتنبي من ممدوحه الأمير سيف الدولة في معركة الحدث، أو أبو تمام من المعتصم في عمورية، أو البحتري من المتوكل في عيد الفطر. انظر: (شيخ أمين، 1989، صفحة 288)

فالمواقف الرسمية ذات طبيعة تختلف عن المواقف الإخوانية؛ إذ يدور الشعر الإخواني في دائرة هموم شاعره الخاصة لا يتعدَّاها إلى هموم اجتماعية عامة إلا قليلاً، وتدور معانيه حول مقتضيات كالشوق، والتهنئة، والعتاب، والاعتذار، وتقريظ الكتب، واستعارتها، وبث الهموم، والشكوى، وطلب الحاجات، ونحو ذلك مما يدور في حياة الأصدقاء والخلان. انظر: (الردادي، 1984، صفحة 371)

وقد كانت قصائد الإخوانيات وسيلة للتعريف بالشعراء واشتهار شأنهم؛ فليس هناك وسيلة أجدى من هذه الوسيلة، فيكفي أن يرد شاعر كبير على قصيدة ترسل إليه حتى يكون هذا اعترافًا منه بموهبة صاحبها وجدارته للرد، وغالبًا ما تكون القصيدتان في مستوى طيب وتتضمنان الكثير من عبارات المجاملة

والتكريم، وسرعان ما تجدان طريقهما إلى ألسنة الرواة فيظفر الشاعر الناشئ على أساس ذلك بحظٍّ من الشهرة والتكريم، وهذه الطريقة تحلُّ محلَّ الرواة الذين كانوا قديمًا ينقلون قصائد الشعراء، مثال ذلك ما ذكره الشهاب الخفاجي في كتابه ريحانة الألبّا عند ترجمته للشاعر الدمشقي درويش الطالوي (ت1014هـ) صاحب كتاب (سانحات دمى القصر)، إذ يقول: « فمما كتبته إليه؛ لأستمطر سحائب طبعه الغرّ، وأستجدي كرمًا من رقيق خلقه الحرّ، وأستمري منها ماء الحياة على غلّة، قطرات لو وقعت في بحور الأشعار لم يكن بها علّة، قولي:

قبَّلْتُ مُصْطَبِحًا شِفَاهَ الأكؤسِ والصبحُ يَبْسُمُ لي بِثَغْرٍ أَلْعَسِ

وهي قصيدة سينية تقع في ثمانية وعشرين بيتًا استهلها بمقدمة غزلية، وقد أجاب الطالوي بقصيدة على منوال قصيدته جاءت في تسعة وعشرين بيتًا استهلها بمقدمة غزلية يكتشف القارئ عند البيت الثالث عشر أن الطالوي يتغزّل في قصيدة الخفاجي. (الخفاجي، 1967، صفحة 5 ج1)

ومن خصائص شعر الإخوانيات أنه خفيف الروح، يتميّز بعمقه لأن مصدره سويداء الفؤاد، وهو مما يسهل تلقّيه حيث لا يجد مستقبله جهدًا في التعامل معه وإدراك مراميه لإحساسه الصادق أنه هو المخاطب به. انظر: (أحمد، الإخوانيات في الشعر السوداني، 2002)

يُظهر التتبّع الدقيق للاسم والمسمّى في كتب الدارسين ومصنفاتهم قديمًا وحديثًا أنّ هناك من يطلق شِعْرَ الإخوانيات

على غير ما تُحِدّث عنه، فالطالوي يؤلف كتابًا في الإخوانيات يسميه بـ (سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر)، ويذكر محقق الكتاب الدكتور محمد مرسي الخولي أن «اختياره لكلمة المطارحات اختيار جيّد وموفّق، فهي تسمية محدّدة لما كان يفعله الأدباء الناشئون في عصره، من إرسال قصيدة منمّقة إلى أحد كبار الأدباء، يفيض عليه فيها من صنوف المديح والثناء، ويرجوه في نهايتها أن يتفضّل تكرّما بالرد، ومن هنا فهو قد طرح نفسه عليه». (الطالوي، 1983، صفحة 7)

وهناك من ذكر شعر الإخوانيات وجعله جزءًا من شعر المدح إلا أنه فرّق فجعله ضمن خمسة مباحث لشعر المديح وهي المدح التكسّبي ومدح المجاملة أو الإخوانيات والمدح الحماسي والسياسي والمدح الديني والمدح العمراني، ووصف مدح المجاملة الإخواني بالمديح الصادق. انظر: (يوسف، 2003، صفحة 339)

وهناك من يطلق على الشعرِ الذي تحدّثنا عنه وعن سماته وبواعثه اسمًا غير الإخوانيات، فالدكتور عبد الله الحامد تحدّث عن هذا الشعر في دراسته للشعر في الجزيرة العربية في قرنين تبدأ من 1250هـ فذكر «كثرة شعر المباسطات والإخوانيات والمسامرات في شعر العصر على شكل تبادل القصائد أو المعارضة أو التذييل أو المجاراة»، لكن الحامد يخلط بينها وبين التحميضات «التي تملأ كثيرًا من الفراغ الذي يحسّ به الشعراء في ذلك الوقت، فلا ممدوح يستثير القريحة ولا مهاوشة ولا مهاجاة». (الحامد، 1993، صفحة 85)، ويسمّي هذا الشعر في موضع آخر شعر المراسلة والمباسطة والمطارحات (الحامد، 1993، صفحة 285)، ويعود ويؤكد في موضع

آخر أن «شعر المراسلات والمساجلات أصبح أكثر أغراض شعرهم، على وفرة الرجال الممدوحين وتهافتهم على المديح، وكان أكثر ولاة الأحساء ممن يهتزون للأدب، ويطربون للشعر، بله آل ثاني وآل خليفة، على ساحل اللؤلؤ، وهذا شيء فريد، فعادة تكون لهذا الغرض الصدارة في عصور ليس فيها من يطرب للمدح، أو يجيز عليه، إذ ينصرف الشعراء إلى الاتصال فيما بينهم، لشكوى الزمان، وملء أوقات فراغهم، وإظهار مواهبهم، من خلال أشعارهم على مراسليهم». (الحامد، 1993، صفحة 289)، ويكرر الحديث عن هذا الفن وشيوعه في أثناء حديثه عن الشعر في إقليم الأحساء فيذكر أن «شعر المباسطات والإخوانيات والرسائل وجد في كل الأقاليم ...، لكن الأحساءَ أكثرُ في المباسطات والإخوانيات معًا ...» (الحامد، 1993، صفحة 366) ، فهو بذلك يفرّق بين المباسطات والإخوانيات لكنه لم يذكر ماهية هذه الفروق.

ويتساءل محقق كتاب (سانحات دمى القصر) للطالوي عن صواب عدّ المطارحات من باب الإخوانيات المعروف، ويردّ على ذلك بالقول «إنه يمكن أن يعدّ هذا النوع من الإخوانيات إلى حدٍّ ما، وذلك إذا اعتبرناه علاقة محدودة بين شخصين يحمل كلّ منهما قدرًا من المعرفة أو الودّ للآخر، ولكنّ المستقرئ له يدرك أنه غرض مستقلّ تمامًا، تختلف أهدافه التي شرحناها عن أهداف الإخوانيّات المعروفة من المودّة والشوق والدعوة إلى مجالس الأنس...». (الطالوي، 1983، صفحة 12 من المقدّمة)

وهناك من يدخل شعر الرثاء في الإخوانيات كما ذُكر في ديوان

سلوة المشتاق للعلامة الإمام محمد بن إسحاق[1] تحت عنوان الإخوانيات بأنّه ما كان من شعره موجها «ابتداء لأعلام عصره من غير بني إسحاق، أو ما كان جوابا منه على مراسلات، وحتى ما قد يكون رثاء فقد اعتبرناه كذلك من إخوانياته». (ابن إسحاق، 2006، صفحة 73)

ويسمّي عبد الرحمن بن سليمان الأهدل[2] القصائد الإخوانية المتبادلة بين الشعراء مُشَاعَرات. (الأهدل، 2010، صفحة 66)

ثالثًا: الإخوانيات في الأدب العربي:

شعر الإخوانيات ماثلٌ في مدوّنةِ الشعر العربي في شتّى عصورِه، تتطلّبهُ العلاقةُ الخالدةُ بين أصدقاءِ الشعرِ الذين جعلوه رسولَ حوائجِهم والناطقَ بما يعتلجُ في صدورهم، وإن كان النثر يقوم بهذه الوظيفة أكثر من الشعر، لكن الشعر في هذا العصر انتزع هذه الوظيفة فصارت الإخوانيات تُكتب شعرًا خالصًا، وإن مُزج في بعض الأحيان بين الشعر والنثر ويبقى للشعر القدح المعلّى في ذلك. انظر: (عيسى، وفوزي أمين، 2008).

(1) هو العلامة محمد بن إسحاق بن المهدي أحمد بن الحسن، ولد سنة 1090هـ، إمام زيدي يمني، ترشّح للخلافة ولم تحقق له، فسكن بصنعاء وانقطع إلى العلم، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة 1167هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 30 ج6)

(2) هو عبد الرحمن بن سليمان بن يحيى بن عمر بن عبد القادر الأهدل، من أسرة بني الأهدل الشهيرة بنوابغها وعلمائها، ولد سنة 1179هـ بمدينة زبيد، وتلقّى علومه على يد والده العلامة سليمان بن يحيى الأهدل، توفي في مدينة زبيد سنة 1250هـ. (الأهدل، 2010، صفحة 6)

ثمة إرهاصات للشعر الإخواني في الشعر العربي منذ الجاهلية، لكنه لم يتحوّل إلى نوع شعري خاص إلا في العصر العباسي عند شعراء مثل الشريفِ الرضي[1] (359-406هـ/969-1015م) وأبي فراس الحَمْداني[2] (302-357هـ/932-968م) وقصائدَ جلالِ الدين الرومي[3] (604-672هـ/1207-1273م) في معلمِه الروحي المتصوف الفارسي شمسِ الدين التبريزي[4] (582-645هـ/1185-1248م).

يتجلّى ذلك في القصائد التي تبادلها الشريفُ الرضي وأبو إسحاقَ الصابئ[5]، والتي تشهد بتميّزها وفرادتها على ما يتمثّله هذا الفن الشعري من خصوصية تشي بتصوير عمقِ العلاقةِ التي تقف وراء القصيدةِ الإخوانية وتمنحها شعريّةً خاصةً تميّزُها عن شعرِ المديح.

(1) هو محمد بن الحسين بن موسى العلوي الحسيني الموسوي، أشعر الطالبيين، ولد ببغداد سنة 359هـ وتوفي بها سنة 406هـ، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده. (الزركلي، 1992، صفحة 99 ج 6)

(2) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أمير شاعر فارس، ابن عم سيف الدولة، وولد سنة 320هـ، وتوفي سنة 357هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 155 ج2)

(3) هو جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي القونوي الرومي، ولد في بلخ سنة 604هـ، وتوفي بقونية سنة 672هـ، عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم تصوف. (الزركلي، 1992، صفحة 30 ج 7)

(4) هو شمس الدين محمد بن ملك داد التبريزي، ولد في تبريز سنة 582هـ-1185هـ، عارف وشاعر متصوف، كتب جل شعره بالفارسية وأقله بالتركية والع ربية، مسلم صوفي المشرب شافعي المذهب، يُنسب إلى مدينة تبريز يُعتبر المُعلم الروحي لجلال الدين الرومي، توفي في خوي سنة 645هـ - 1248م. (الرومي، 2009، صفحة 3 ج1)

(5) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني، نابغة كتّب جيله، ولد سنة 313هـ، تقلد دواوين الرسائل والمظالم أيّام المطيع لله العباسي، كان صلبًا في دين الصابئة، وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين في صيام رمضان، توفي سنة 384هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 78 ج 1)

كتب أبو إسحاق الصابئ إلى الشريف الرضي يعتذر عن زيارته بعلّة عرضت له:

أَقعَدَتْنا زَمَانَةٌ وَزَمانٌ ... جائِرٌ عَن قَضاءِ حَقِّ الشَريفِ
وَلَئِن ثَقَّلا عَنِ الخِدمَةِ الخَطـ ... ـوَ لَعَن خاطِرٍ إِلَيها خَفيفِ
فَاقْتَصَرْنا فيما نُؤَدّي مِنَ العَرْ ... ض عَلى الكُتْبِ وَالرَسولِ الحَصيفِ
وَالفَتى ذو الشَبابِ يَبسُطُ في التَقـ ... ـصيرِ عُذْرَ الشَيخِ العَليلِ الضَعيفِ

(الصابئ والرضي، رسائل الصابئ والشريف الرضي.، 1961، صفحة 7)

فأجابه الشريف الرضي بقصيدةٍ بلغت ثلاثةً وخمسين بيتًا، الشاهد في خاتمتها حيث يقول:

هَزَّ عِطفي إِلى الأَغَرِّ أَبي إِسـ ... ـحاقَ وُدٌّ يَلْوِي عَلَيهِ صَليفي
وَنِزاعٌ يَهفو إِلَيهِ بِلُبّي ... هَفَواتِ المُصَرْصِرِ الغِطريفِ
كَيفَ لا أَغلِبُ الزَمانَ وَهَذا الـ (م) ـنَّدبُ يَغدو عَلى الزَمانِ حَليفي
كَلِمٌ كَالنُصولِ هَذَّبَها القَيْـ ... ـنُ وَوَجْهٌ كَالهِرْقَليِّ المَشُوفِ
إِنَّ شَكواكَ لِلزَمانِ مُبينٌ ... لَيَ عَنْ قَدْرِ عَقلِهِ المَضعوفِ
مَن يَكُن فاضِلاً يَعِشْ بَينَ ذا النا ... سِ بِقَلبٍ جَوٍ وَبالٍ كَسيفِ
كُلَّما كانَ زائِدَ العَقلِ أَمسى ... ناقِصًا مِن تَليدِهِ وَالطَريفِ
لا عَجيبٌ أَنّي سَبَقتُ وَأَعرَقْـ ... ـتُ جِيادَ المَنثورِ وَالمَرصوفِ
أَنتَ يا فارِسَ الكَلامِ تَقَدَّمـ ... ـتَ وَأَخلَيتَ لي مَكانَ الرَديفِ

(الصابئ والرضي، رسائل الصابئ والشريف الرضي.، 1961، صفحة 8)

وإلى جانب إخوانيات الصابئ الشعرية نجد كفّة النثر ترجح كوعاء لهذه الرسائل، إذ له ديوان يتكون من جزأين كبيرين يضم بين دفتيه عددًا من الرسائل النثرية. انظر: (الكاتب، 2017)

ونجد البحتري[1] يمدح طاهرَ بن إسماعيل الهاشمي[2]، فيبعث إليه بالرد الشعري مرفقًا بدنانير، فيقول:

لو يكون الحِباء حسْب الذي أنـ ـت لدينا له محلّ وأهْل
لحُبيت اللّجين والدرّ واليا قوت حثوًا وكان ذاك يقلّ
والشريف الظريف يسمح بالعذْ رِ إن قصّر الصديق المقلّ

فيردّ البحتري الدنانير على الهاشمي مرفقة بشعر:

بأبي أنت أنت للبرّ أهلٌ والمساعي بعدٌ وسعيك قَبْلُ
والنوالُ القليلُ يكثر إن شا ء مُرجِّيك والكثيرُ يقلُّ
غير أنِّي رددت برّك إذ كا ن رِبًا منك والرِّبا لا يحلُّ
وإذا ما جزيت شعرا بشعرٍ يبلغ الحقّ والدنانير فَضْلُ

(الخفاجي، 1967، صفحة 420 /1)

(1) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري، ولد بمنبج سنة 206هـ، شاعر كبير، اتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي، ويعدّ مع أبي تمام والمتنبي أشعر أبناء عصرهم، توفي بمنبج سنة 284هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 121 ج 8)

(2) هو طاهر بن إسماعيل بن صالح الهاشمي الحلبي، وصفه البحتري في ديوانه أنه كان أديبا شاعرا لطيفا، وعلق محقق الديوان في الهامش بقوله (لعلّ طاهر الهاشمي هذا هو الذي ذكر ابن العديم في كتابه (زبدة الحلب في تاريخ حلب) أن المتوكل ولاه المظالم بجند قنسرين والعواصم، والنظر في أمور العمّال، وجاءته الولاية منه فألفاه الرسول في مرضه الذي مات فيه سنة 235هـ. (البحتري، بدون، صفحة 646)

فالباعث على نظم الشعر لدى البحتري هنا إخواني صرف، وليس تكسّبيًا، لكنّه صاغ تبرير ردّ الدنانير بطريقة تثبت سِمةً من سمات الشعر الإخواني حيث المودّة الأخوية الخالصة وطرافة الشعر.

ومثله ما كان بين دعبل[1] وأبي دلف[2]، وقد انقطع عنه:

هجرْتُك لم أهجرْكَ نكرانَ نعْمةٍ ... وهل يُرتجى نيلُ الزيادةِ بالكفر
ولكنّني لـمّا أتيتُك زائـرًا ... فأفرطتَ في برّي عجزتُ عن الشكر
فإن زدتني برًّا تزايدت جفوةً ... فلا نلتقي طولَ الحياةِ إلى الحشر

فوجّه أبو دلف له بألف دينار، مع رقعة فيها:

ألا ربّ ضيفٍ زائرٍ قد بسطتُه ... وآثرتُه قبلَ الضيافةِ بالبشْر
أتاني بترحيبٍ فما حالَ بينَه ... وبين القِرَى والبِشْرِ من نائلٍ نزْر
رأيتُ له فضلًا عليَّ بقصده ... إلى أن براني موضع الحمْدِ والشّكْرِ
فزوّدته مالا يقلّ بقاؤه ... وزوّدني حمدًا يدومُ على الدهْرِ

فوجّه دعبل الألف، وقال الشِّعر بالشِّعر، والبِّر رِبَا. (الخفاجي، 1967، صفحة 423 / 1)

(1) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، ولد سنة 148هـ، شاعر هجّاء أصله من الكوفة، أقام ببغداد، كان بذيء اللسان، هجا الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق، توفي ببلدة تدعى الطيب بين واسط وخوزستان سنة 246هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 339 ج 2)

(2) هو القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي، من بني عجل بن لجيم، أمير الكرخ، وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء، كان من قادة جيش المأمون، توفي ببغداد سنة 226هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 179 ج5)

ويعتذر الشاعرُ البحتريُّ من صديق فيقول:

مِن قَضاءِ الحُقوقِ في بَعضِ ما عا ... رَضَ دونَ الحُقوقِ أَلّا تُقَضّى
حَكَمَت هَذِهِ السَماءُ بِأَن نُحْـ ... ـبِسَ عَن واجِبِ الصَديقِ وَيَرضى
دِيَمٌ أَقبَلَت تُصَحِّحُ عُذرًا ... لِأَخي جَفوَةٍ وَتُسقِطُ فَرضا
أَبعَدَتني مِن أَن أَجيئَكَ سَعيًا ... وَبِكُرهي أَلّا أَجيئَكَ رَكضا

ويعاتب البحتري صديقا آخر فيقول:

إِذا جَمَعَ اِمرُؤٌ حَزماً وَعَقلًا ... فَحُقَّ لَهُ بِذَلِكَ أَن يُطاعا
إِذا ذو العَقلِ أَعطى النُصحَ مِنهُ ... عَديمَ العَقلِ ضَيَّعَهُ فَضاعا
وَكَيفَ بِصاحِبٍ إِن أَدنُ شِبرًا ... يَزِدني في مُباعَدَةٍ ذِراعا
أَبَت نَفسي لَهُ إِلّا وِصالًا ... وَتَأبى نَفسُهُ إِلّا اِنقِطاعا
كِلانا جاهِدٌ أَدنو وَيَنأى ... كَذَلِكَ ما اِستَطَعتُ وَما اِستَطاعا

(البحتري، 2012، صفحة 683 ج2)

ويحفل ديوان أبي فراس الحمداني بإخواناته، إذ نجده يرد على كتاب لأبي حصين قاضي الرقة[1]، يقول:

وَافَى كِتابُكَ مَطوِيًّا عَلى نُزَهٍ ... يَحارُ سامِعُهُ فيهِ وَناظِرُهُ
فَالعَينُ تَرتَعُ فيما خَطَّ كاتِبُهُ ... وَالسَمعُ يَنعَمُ فيما قالَ شاعِرُهُ
فَإِن وَقَفتُ أَمامَ الحَيِّ أُنشِدُهُ ... وَدَّ الخَرائِدُ لَو تُقنى جَواهِرُهُ
أَبا الحُصَينِ وَخَيرُ القَولِ أَصدَقُهُ ... أَنتَ الصَديقُ الَّذي طابَت مَخابِرُهُ

(الحمداني، 1983، صفحة 78)

(1) هو أبو الحصين علي بن عبد الملك الرقّي، قاضي حلب في زمن سيف الدولة، كان صديق لأبي فراس الحمداني بينهما مساجلات شعرية، وتوفي سنة 349هـ. (الثعالبي ع.، 1983، صفحة 126 ج1)

يلاحظ إطراء أبي فراس لرسالة صديقه الإخوانية، وهو ما سنراه في عصر ازدهار شعر الإخوانيّات لازمة من لوازم هذا الفنّ الشعري.

ويتميّز شعر الإخوانيات بخصوصية شديدة فهو فنّ من الفنون التي «تدور بين بعض الشعراء وبعضهم بتلقائية وحميمية وحريّة، وبشكل يكشف عن الوضع الشخصي للشاعرِ ومزاجِه وطبيعةِ علاقاتِه بالناس والبيئة وعن دواخلِه التي يُسِرُّ إلى أصدقائه والتي غالبًا ما تكون محجوبة عن القراء لأسباب شخصية من ناحية ولكونها تهامسًا بين الصديق وصديقه من ناحية أخرى، وهي تكتسب حريتها من هذه الخصوصية؛ لأنها حينما تكتب لا يقدر الشاعر أنها ستنتشر يومًا ما، ومن هنا تكون لهذه الممارسات الشعرية أهمية ثقافية وتاريخية إضافة إلى ما فيها من متعة بما تحمله من فكاهة ورأي صريح». (العلاق، 2000، صفحة 441)

وتنبع أهميةُ الشعرِ الإخوانيّ من دلالتِه المهمّةِ على روحِ الشعرِ لدى شعراء هذا العصر؛ فهذا المشربُ الشعريُّ تكادُ تختفي فيه نبرةُ التزلّفِ والمجاملةِ المفرطةِ، ويعتمدُ على أريحيّةِ الصداقةِ التي تجافي التكلُّفَ والحذرَ في التعامل، وتدفّقِ الشاعرِ في قصيدته من لدن سجيّته، دافعه الرغبةُ في تعبيرٍ صادقٍ عما يجوس في نفسه ويختمر في باطنها من معانٍ أخويّةٍ أصيلة، دون رغبةٍ أو رهبةٍ تكمن عادةً وراءَ أنماطٍ شعريةٍ أخرى، باستثناء رغبةٍ ساميةٍ تمليها حقوقُ الولاءِ والوفاءِ لشخصٍ متكافئٍ في أخوّتِه وإنسانيتِه وثقافتِه. ويتأنّقُ فيختارُ جزلَ اللفظ، ويحشد مهاراتِه الإبداعيةَ وإمكاناتِه اللغويةَ بخلاف ما يُنتظرُ أن يكون عليه خطابٌ من صديقٍ إلى

صديقه حيث تُرفعُ الكُلْفَةُ والتصنّعُ ويَسْلُسُ القولُ ليتماهى مع ما تمليه روابطُ الصداقةِ من شفافيةٍ وتبسيطٍ للأمورِ وكسرٍ للحواجز. وعند إمعان النظر في الموضوعِ وتقليبه على مختلفِ وجوهِه، والتدقيق فيه للبحث عن دواعي ذلك يتبدّى أن الشاعرَ حين يبعثُ بقصيدتِه إلى صديقِه الشاعرِ يبعثُها إلى ذاتٍ أخرى شاعرةٍ تَنْشُدُ الإبداع، فهو وإن كان ذلك صديقُه إلا أن الشعرَ هو القاسمُ المشتركُ الأكبرُ بينهما، فلا غرو أن تحظى مسألةُ الإبداعِ والاستعراضِ اللغوي والفني بنصيبٍ كبيرٍ لدى أولئك الشعراء.

يلفت نظر المتصفِّح لدواوين الشعراء في عصر الدول المتتابعة والعصر العثماني منه بخاصة، كثرةُ هذا النوع من الشعر في الدواوين. لعل هذا الاحتفاء بالشعر الإخواني من لدن هؤلاء الشعراء يعود إلى أن دائرة متذوقي الشعر العربي الفصيح قد ضاقت بسبب غلبة اللهجات العامية التي ابتعدت بعامة الناس الأميين عن فهم هذا النوع من الشعر وتذوقه، مما أدى إلى انحصارِ الشعرِ الفصيح وتذوّقِه في طائفةٍ بعينِها من الشعراء، ستُعرض نماذج من شعرهم على سبيل الاستشهاد لا الحصر. ويبرهن ذلك على ما قيل قديما عن قوة العلاقة بين الأدباء، فقد قال الثعالبي «كلمةُ الأدبِ جمعتنا، ولحمةُ العلِمِ نظمتنا، قد اشتركنا في العقيدة، واستهمنا بالسريرة، الأَدب نسَبٌ واشِجٌ والعلم نسَبٌ ممازج، الأدب أقربُ الأنساب، والعلم أوكدُ الأسبابِ، الشُّكول أقاربُ، وإن تباعدَتْ بهم المناسبُ، فرحة الأديب بالأديب كفَرحة المحِّب بالحبيب والعليل بالطبيب». (الثعالبي، 1997، صفحة 43)

وقد تنبّه الدارسون لبروز هذا الغرض في هذا العصر

فتحدثوا عن كثرة المطارحات الوجدانية والإخوانية وأنها «ذات بِزّة جديدة، فمنها ما كان بين الشاعر وذي رحمٍ له، ومنها ما كان بين الأصدقاء، فكانت القصائد توضّح علاقاتهم فيما بينهم من الشوق والمحبة إلى العتاب والاعتذار، ومن التهنئة والمواساة إلى الشكر والإجازات، وكثر التراسل بالشعر حتى أضحى ظاهرة شعريّة واضحة». (محمد، 2019، صفحة 145)

وهناك من برّر ظهور المطارحات الإخوانية حيث « كانت تمثّل ضرورة لهم في ذلك الوقت، فليس هناك من وسيلة للتعريف بهم أجدى من هذه الوسيلة، فيكفي أن يردّ أديب كبير على قصيدة ترسل إليه حتى يكون هذا اعترافا منه بموهبة صاحبها وجدارته للردّ، وغالبا ما تكون القصيدتان في مستوى طيّب وتتضمّنان الكثير من عبارات المجاملة والتكريم، وسرعان ما تجدان طريقهما إلى ألسنة الرواة فيظفر الأديب الناشئ على أساس ذلك بحظٍّ من الشهرة والتكريم، وهذه الطريقة تحلُّ محلَّ الرواة الذين كانوا قديما ينقلون قصائد الشعراء». (الطالوي، 1983، صفحة 11 المقدمة)

وتحدّث الدكتور شوقي ضيف في الجزء الخاص بالجزيرة العربية من ضمن سلسلته عن تاريخ الأدب العربي عن كثرة الشعر إلا أنه ركز على الشعر في القرنين الهجريين الخامس والسادس لأنه لم يعتمد سقوط بغداد سنة 656هـ بداية لعصر الدول والإمارات، وقد اعتمد على الباخرزي في كتابه (دمية القصر وعصرة أهل العصر) والذي كان جل شعرائه من القرن الخامس الهجري. وقد ذكر ضيف أن هناك كتبًا تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء

كسلافة العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحبي وكتاب البدر الطالع للشوكاني وكتاب نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة الصنعاني وكتاب المخلاف السليماني لمحمد بن أحمد العقيلي وغيرها، إلا أنه جل ما أورده كما ذكرنا ولم يذكر من شعراء فترتنا إلا القليل. (ضيف، 1980، صفحة 107)

وقد ذكر محقق كتاب (سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر) للطالوي أشهر الكتب التي جمعت مطارحات الأدباء مثل كتاب (لحن السواجع بين البادي والـمُراجع) من تأليف صلاح الدين بن أيبك الصفدي المتوفّى سنة 764هـ، وكتاب ابن نباتة المصري المتوفّى سنة 768هـ المسمّى (سجع المطوّق)، وكتاب (سوانح الأفكار والقرائح، في غرر الأشعار والمدائح) لشمس الدين الصالحي الهلالي الدمشقي المتوفّى سنة 1012هـ، وكتاب (ألحان الحادي بين المراجع والبادي) لمحمّد بن محيي الدين المعروف بالحادي الصيداوي المتوفّى سنة 1042هـ. (الطالوي، 1983، صفحة 9 من المقدمة)

وقد كادت أن تنضب المدوّنة الشعرية الحديثة وتقريبًا من بداية القرن الرابع عشر الهجري/ القرن العشرين الميلادي من معين هذا الفن الشعري، فالشعر الحديث لم يعدْ يحتفي بالشعر الإخواني، الذي يسطّرُ ويوثّقُ علاقةَ الشاعرِ بالآخر، فبالرغم أنّ هذا الشعرَ زادَ عمْقًا وقدرةً ليصوّر لواعجَ الإنسانِ وهمومَه، إلا أنه أغفلَ هذا الجانبَ الذي يصوّر التجربةَ الإنسانيةَ الراقيةَ، فهل خلت الحياةُ الإنسانيةُ المعاصرةُ من عمقِ الصداقةِ الذي يستحقُّ أن يدبّجَ فيه الشعرَ ويسطّرَ، أم أنّ خبوءَ شعرِ الإخوانيات يرجع إلى ما لحقَ بهذا النوعِ من الشعرِ من سمعةٍ فنيةٍ متدنيةٍ

جعلت منه نمطًا تقليديًا يفتقرُ إلى صدق التجربة وأصالتها، وقد يعود السبب إلى ضمورِ الفاعليةِ الفردية، وانزياحِ الإنسانِ عن مركزِ المبادرةِ التلقائيةِ الحرّة، بعد أن أخذت الأنظمةُ والمؤسساتُ والأيديولوجياتُ والتنظيماتُ تسعى إلى إدراجِ الفردِ، كذاتٍ مؤثرةٍ، في سياقٍ قطيعي، يتحركُ بغريزةِ الطاعةِ والامتثال، ويعمل بالأمرِ والإيعازِ والوصايةِ، ويرتبط بالآخرَ -غالبًا- برابطةِ الانتفاعِ أو الخوف. وهكذا تقلّصَ هامشُ الذات، في انفتاحها على الآخر والتفاعل معه. انظر: (العلاق، 2000، صفحة 215)

ومن ناحية أخرى وبما أنّ شعر الإخوانيّات يعتمد على الاستعراض اللغوي والبديعي فإنّ الشعر الحديث يكاد يخلو من هذا النوع من الشعر، وخاصة أصحاب المدرسة الرومانسية وما بعدها، مع أنّ ذلك لا يعني خلو حياة الشعراء من الصداقات والعلاقات، وطغى على معظم الصداقات والعلاقات عمومًا طابع المداهنة والنفعية، ومثل هذه الصداقات يأبى الشعرُ أن يصورَها لأنها لا تشكّلُ تجربةً عميقةً قمينةً بأن تتبلورَ لتخلّدَ شعرًا.

ومما ينبغي الإشارة إليه والتوقف عنده محاولة الشاعر المدني إبراهيم الأسكوبي (ت1331هـ) الذي حاول أن يتبادل الشعر الإخواني مع أمير الشعراء أحمد شوقي، فنظم قصيدة ترفل في قيود البديع الذي تمرّد عليها أحمد شوقي ورفاقه من روّاد مدرسة (الإحياء) الذين نحوا إلى بعث الشعر العربي وإعادته إلى مثل ما كان في عصوره الزاهية، وكان تخلصهم من البديع الذي شاع في القرون السابقة نجاحًا للشعر العربي وإيذانًا ببدء ما سمّي بالشعر العربي الحديث.

القصيدة مؤرّخة بسنة 1323هـ في ديوان الأسكوبي، يحاول بها الشاعر بناء علاقة أدبية مع أمير شعراء عصره الشاعر أحمد شوقي؛ إذ يقول الأسكوبي: «وقلت: مادحًا أحمد شوقي شاعر خديوي مصر عباس باشا الثاني، والمقصد المواصلة معه، وله ديوان شعر يعرفه من يعرف الأدب، فلم يجبني بشيء وسافرت من مصر وما رأيت وجهه، وكنت مريضا بالفتاق، فتداويت منه بمصر، فلما حصل الشفاء خرجت منها وأنا أشكر الله تعالى الذي شفاني سنة 1323هـ.»، والأسكوبي بذلك سائر على سَنَن عصر الدول والإمارات الذي أفلت شمسه مع بداية العصر الحديث التي استقرت مدرسته الأولى على يد شوقي وحافظ والبارودي في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، هذه المدرسة التي اطّرحت كل ما له علاقة بالصنعة والتكلّف، ولعل شعر الإخوانيات من إرث ذلك العصر،

يتحدث الأسكوبي عن موقف شوقي من رسالته، فيذكر أنه لم يجبه، ويعقب بأنه سافر من مصر ولم يرَ وجهه، وهي عبارة توحي بمدى تذمر الأسكوبي وحنقه من هذا الموقف.

تقع القصيدة في اثنين وخمسين بيتًا، نحتاج لإيرادها ليُرى مدى تقليديتها، ودورانها في فلك العصور السابقة حيث تطالعنا منذ المطلع التقليديّةُ والاعتمادُ على البديع، وتدلّ القصيدة على حرص شعراء الإخوانيات لإبقاء هذا الفنّ، ومن جانب آخر يبرز موقف أمير الشعراء من القصيدة استهجان شعراء العصر الحديث هذا النوع من الشعر، يقول الأسكوبي:

حيّي عنّي يا برق بالجزع حيًّا ... لم أبارحْ ذكراه ما دمت حيّا
ظلّ شوقي عليه أحمدَ والصبـ ... ـر قبيحًا من بعد بانَ لديّا
ليلةٌ بالعقيق جاد بها الدّهـ ... ـر وآلى أن لا يكون سخيّا
ليلةٌ أسأرتْ بأحشاي كلْمًا ... بات طريفٌ منه بكيًّا دميّا
من يلمّه في نظرة شهدت من ... هي أبهى من الصباح مُحيّا
ومن الشمس طلعةً وسناءً ... ومن البدر في المحاسن زيّا
أسفرت عن لثامها فأرتنا ... مبسمًا زاهرًا وخدًّا نقيّا
فرشفتُ المدام صِرفًا حلالًا ... ولثمتُ الورْد النديّ جنيّا
في حديث كأنّه من نسيمٍ ... جاز قبل الصباح روضًا نديّا
وعفافٍ يشدُّ عن كلّ ريْبٍ ... مئزرًا طاهرًا وعِرضًا نقيّا
وافترقنا وما احتقبنا من الإثـ ... ـم حرامًا ولا ارتكبنا رديّا
في خبايا الأيام ما ليس يجري ... تحت ظنٍّ حتى يكونَ جليّا
وَلَوَ انّي حسبت ما كان ما كا ... ن جرى ما جرى فجرَّ عليّا
إنّ ما لا يَعُدُّ صرْف الليالي ... نصْب عينيه عاش دومًا غبيّا
فمتى تبصرين عينيَ شخصًا ... يملأ العين عاقلًا عبقريّا
كأديب الزمان (أحمدَ شوقي) ... من عَلا قدرُه السِّماك رُقيّا
ليتها ما تفيض إلا على ما ... وطئته في الأرض أقدام (ريّا)
كي يسيلَ الشِّعْبُ الذي كان بالأمْـ ... ـس أنيسًا وترجع الدارُ ريّا
يا مريدًا إدراك أحمد شوقي ... من له المثْل عزّ أن يتهيّا
عِزَّ عقلًا رُزِقْتَه عنك خيرٌ ... لك من أن تروم شيئًا فريّا
إنه السابق المجلّي إذا ما ... طوت الخيل حلبةَ السّبْقَ طيّا
من يساجل أعزّ منه يساجل ... ماجدًا يملأ الذنوب سريّا
قلّ فيه أنّي جمعت به الما ... جد (معْنًا) و(حاتمًا) و(عديّا)

وطويت الطائيَّ فيه وحسّا نَ ومهيارَ والشريفَ الرضيّا
فاهنا واسلم ودم بأوفر نعمى دائم السعد والسرور رضيّا

ثمة أشياء تستوقفنا في المقدّمة النثريّة للقصيدة؛ فالأسكوبي ينعت أحمد شوقي بشاعر خديوي مصر،[1] وقد تذمّر أحمد شوقي من ذلك في مقدمته للشوقيات، وفي ذلك دلالة كبيرة على تقليدية نظرة الأسكوبي لوظيفة الشاعر التي تجعله تابعًا يقبع في بلاط أحد الملوك أو السلاطين أو يقصر نفسه على مدح شخص من الأعيان، ويظهر أن الأسكوبي كان يحاول أن يجعل نفسه ندًّا لأحمد شوقي في المكانة بهذه الماهية، فشوقي شاعر خديوي مصر والأسكوبي شاعر شريف مكة الذي أرسله ليُعالج في مصر على نفقته.

لقد صرّح الأسكوبي بهدفه من نظم هذه القصيدة في مدح أحمد شوقي، إذ المقصد المواصلة معه، وفي ذلك دلالة على أن الشاعر كان يبحث عن علاقة تقليدية كتلك التي تقوم بين الشعراء في القرون السابقة، والتي كان من نتائجها ذلك الشعر الإخواني الذي يسيطر على جلّ دواوين شعراء ذلك العصر، حيث يتبادلون قصائد فيها الكثير من الإطراء لشخص الأديب وشاعريته وبيانه وتفوّقه في التصرف في فنون القول، وهو شعر به قدر كبير من مجاملة الشعراء لبعضهم، حيث يرون -غالبا- أن المجتمع يغمطهم حقّهم من المكانة والنباهة ، وكأنهم بهذه القصائد الإخوانية يردّون

(1) لعلّ لدى الشاعر أحمد شوقي حساسية من هذا النعت؛ إذ يرتبط عنده بمرحلة يرى أنه تجاوزها، فنجده يتحدّث في مقدّمة ديوانه عن تأخر علمه بحقيقة الشعر، وأنّ القوم في مصر لا يروق لهم غير شاعر الخديوي. (بنيس،2001م)

بعض الاعتبار جراء ذلك الغمط والتجاهل.[1]

حشد الأسكوبي كمًّا من الصفات التقليدية لإطراء ومدح أحمد شوقي على مذهب وسَنَن الشعر في القرون السابقة للعصر الحديث، وذلك مما سيضيق به -حتما- صدر الشاعر المتطلّع إلى التحديث، فالقصيدة بذلك لا ترقى إلى اهتمام أحمد شوقي لا بناء ولا موضوعا.

يذكر الأسكوبي بعد هذه القصيدة ما نصه: «وقد أرسلت للمذكور القصيدة، فامتنع من المواجهة، ولم يزرني، فأرسلت له هذه القطعة، فلم يجب بشيء»، وهي:

يا سيّدًا أخلاقه ... جلّت على أنّي أراه
وافتك منّي بضّةٌ ... في وصفك السامي علاه
بدويةٌ، أترابُها ... ما بين هاتيك العضاه
مدنيةٌ يدري بها ... بطحانُ والوادي قَنَاه
غرّبتُها لك والغري ... ب بمصر ممجوجٌ لقاه
وأظنّها ماتت لدي ... ك غريقةً ظمأى الشفاه
ناشدتك اللّه الذي ... تعنو لعزّته الجباه
أن ترجعن لي جسمها ... حتى أواريه ثراه
وأقول لا قلنا ولا ... طلنا وأودعك الإله

(الأسكوبي، 1989، صفحة 85)

(1) عايشت ذلك مع شعراء هذه الفترة، حيث درست الشعر في المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري، ثم وقفت على دواوين عديدة لشعراء من هذه الفترة من أبرزهم جعفر البيتي ومحمد يحيى قابل ومحمد خليل السمرجي وعبد الرحمن المكي.

ويظهر سبب إعراض شوقي عن الردّ على الأسكوبي جليًّا في طبيعة هذا الشعر الذي عدّه الأسكوبي وبعض الدارسين والمؤرخين للشعر العربي تحديثًا للشعر، بينما هو في عين شوقي رائد بعث الشعر العربي وإحيائه لا يتجاوز شعر مرحلة حشد المحسّنات البديعية باعتبارها مزيّة الشعر الأولى ومدار تفوّق الشاعر.

الفصل الثاني

الإطار التاريخي والثقافي للعصر

أولًا- السياق التاريخي:

تعددت الأقاليم في الجزيرة العربية لاتساع مساحتها، وتعاقبت دول على كلّ إقليم، لذلك فالتوسّع في الحديث عن هذه الأقاليم ومن حكمها سيحتاج حيّزًا كبيرًا من الكتابة، لا يهدف هذا الكتاب لاستقصائه والتوسع فيه؛ لذا سيُقتصر على الحديث عن فترة الدراسة وبشيء من الاختصار، والاكتفاء بما يلقي الضوء على طبيعة الحياة العامة سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، لمعرفة السياق الذي راج فيه شعر الإخوانيات والتربة التي ازدهر بها وعلا شأنه.

في غرب الجزيرة العربيّة يقع إقليم الحجاز الممتد من الشمال إلى الجنوب بمدنه المعروفة، وفي الوسط تقع هضبة نجد حيث القصيم واليمامة وجبلي أجأ وسلمى، ويوجد اليمن في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، وتتوسط حضرموت بين اليمن وعُمَان التي تشرف على المحيط الهندي من جهة والخليج العربي من جهة أخرى، وهناك إمارات قائمة على الخليج العربي وهي أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان والفجيرة ورأس الخيمة، وتقع في الشمال من هذه الإمارات إمارات أخرى وهي قطر والبحرين والكويت والأحساء.

دخلت إمارة مكّة تحت حكم العثمانيين عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول سنة 922 هـ على مصر، بعد أن انتزعها من المماليك، حيث سافر ابن حاكمها الشريف أبو نميّ الثاني إلى مصر ليبايعه ليدخل بذلك الحجاز بمقدساته تحت سلطة الدولة العثمانيّة.

تخلل حكمَ الأشراف للحجاز توسّعُ الدولة السعودية الأولى واستيلاؤها على الحجاز في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي/ القرن الثالث عشر الهجري، الذي أدَّى إلى تدخّل جيش محمد علي باشا والي مصر، حيث دمّر الدرعيّة عاصمة الدولة السعودية، وعاد حكم الحجاز إلى الأشراف بعد بعض التعديلات في نظام الدولة العثمانية، إذ أصبح الحجاز يُحكم مباشرة من الدولة العثمانية ولا يتبع الدولة المصرية التي استقلّ بها محمد علي باشا عن الدولة العثمانية. [1]

وفي نجد قامت إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة في اليمامة والعارض والوشم والقصيم وحائل يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم، ومن أهمّ تلك الإمارات إمارة الدرعيّة التي تأسست في منتصف القرن التاسع الهجري، لتتوسع في القرن الثاني عشر في عهد الأمير سعود وتضم بعض المناطق المجاورة تحت لوائه، وخلفه ابنه محمد بن سعود سنة 1137هـ الذي تآزر مع الشيخ محمد بن عبد الوهّاب سنة 1158هـ على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع، فدانت له أكثر نجد، وخلفه ابنه عبد العزيز

(1) انظر: (الغازي المكي الحنفي، 2009) (السنجاري، 1998) (فريد بك، بدون) (مورتيل، 2015)

واستمر في التوسّع وولي بعده ابنه سعود الذي مدّ سلطانه من أطراف عمان ونجران واليمن إلى بادية الشام في أقصى الجزيرة العربية، ومن الخليج العربي ونهر الفرات إلى البحر الأحمر حيث استولى على الحجاز، مما دعا الدولة العثمانيّة إلى أن تستعين بمحمد علي واليها على مصر كي يستخلص الحجاز ويحاصر الدرعيّة ليستسلم أميرها عبد الله بن سعود الذي توفي أبوه في أثناء الحرب، وبعد انسحاب الجيش المصري من الجزيرة يعود آل سعود على يد تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود لحكم نجد ليتم فتح الحسا والقطيف، لتدخل البلاد بعد اغتياله في موجه من الاضطرابات والفتن تسببت في سيطرة محمد بن رشيد أمير حائل على أكثر البلاد الخاضعة لآل سعود. إلى أن هبَّ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن سنة 1319هـ ليسترد الرياض ثم ليوحّد كثيرًا من أجزاء الجزيرة العربية ليعلنها دولة موحّدة سنة 1351هـ تحت اسم المملكة العربية السعودية.[1]

أمّا اليمن فقد تأسست بها دولة بني طاهر سنة 858هـ التي استمرت حتى استولى البرتغاليون سنة 921هـ على جزيرة كمران في البحر الأحمر ليرسل قانصوه الغوري صاحب مصر حملة طردت البرتغاليين ونزلت إلى اليمن واستولت على زبيد وتعز وقضت على دولة بني طاهر، ثم دخلت اليمن في حوزة العثمانيين لتنشب بين الأمراء والأئمة وبين العثمانيين مناوشات كثيرة اضطرت الدولة العثمانية لترك اليمن سنة 1045هـ، لتستقر بعد فتن وانقسامات تحت حكم الإمام المتوكل على الله إسماعيل

(1) انظر: (ابن غنّام، 1949) (ابن بشر، 1982)

بن القاسم سنة 1054هـ، وتظل في عقبه إلى أن قُضي على دولتهم بالثورة اليمنية في أواخر القرن الرابع عشر الهجري. تخلل ذلك استعمار بعض أجزاء اليمن من قبل الإنجليز وعودة العثمانيون إلى احتلال اليمن، وعادت المناوشات بينهم وبين دولة الأئمة. [1]

وتناوب على حكم عُمَان التي كانت تمتدّ على الشاطئ الجنوبي الشرقي مشرفة على المحيط الهندي وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية، في القرنين العاشر والحادي عشر حكّام أشهرهم النباهنة واليعاربة تخلل ذلك محاولة سيطرة من جانب البرتغاليين. وقد استطاع اليعاربة طردهم وتوسعوا بسبب قوة أسطولهم حتى سيطروا على بعض شواطئ أفريقيا وجزيرتي زنجبار وسوقطرة، وقد خلف أسرةَ اليعاربة في حكم عمان آل بوسعيد، حيث جمع زمام الحكم في عمان جميعها مؤسس دولتهم أحمد بن سعيد سنة 1154هـ، وما زالت أسرة البوسعيد تحكم عمان إلى اليوم. [2]

أما الساحل الشرقي والذي يطلق عليه البحرين فقد قامت في أجزاء منه عدّة ممالك تعاقب عليها عدّة حكام يتصارعون فيما بينهم حتى دخلها البرتغاليون سنة 922هـ الذين طردهم منها العثمانيون واستولوا على الأحساء سنة 963هـ، وانفصلت قطر عن البحرين كمنطقة قبل نهاية القرن العاشر الهجري بزعامة آل ثاني، أما الإقليم الشرقي الأحساء والقطيف وجزيرة البحرين/

(1) (الجرافي اليمني، 1987) (ابن المجاور، 1996)

(2) انظر: (الحارثي، ط2 2011) (القاسمي، 2023) (القاسمي، تاريخ اليعاربة في عمان، 2022) (القاسمي ، تاريخ أئمة البوسعيد في عمان، 2023) (العبيداني النخلي، 1998)

أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة 1081هـ، واستولى عباس الصفوي على جزيرة أوال سنة 1092هـ ثم نادر شاه ملك فارس حتى استخلصها منهم أحمد بن محمد بن خليفة سنة 1197هـ وما زالت أسرته تحكمها إلى اليوم.

أما الأحساء والقطيف فيستمر حكم بني خالد فيها إلى أن استولى عليها آل سعود سنة 1204هـ، ليعود بنو خالد لحكمها بعد تدمير محمد علي باشا للدرعية، ثم يستولي عليها الأمير تركي بن عبد الله آل سعود سنة 1245هـ لتعودا إلى الدولة العثمانية سنة 1288هـ، إلى أن يحكمها مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.[1]

ونشأت دولة الكويت على يد صباح الأول سنة 1613م، حيث استقرّت مجموعات من الأسر العربية يطلق عليها العتوب، وهم آل صباح وآل خليفة والجلاهمة، وقد مارسوا العمل البحري، واستغلّوا الميناء الجيّد، واشتغلوا بالتجارة البحرية، وحوّلوا البلاد إلى مخزن كبير للسلع المختلفة، فكان الناس يأتون من بلدان أخرى مجاورة لكي يتزودوا منها بالشراء، واستمرّت أسرة آل صباح حاكمة للكويت إلى اليوم.[2]

وقد استقرّت مناطق شبه الجزيرة العربية في العصر الحديث كدول مستقلّة وهي المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية وسلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة ودولة قطر ومملكة البحرين ودولة الكويت، حيث أصبحت لكل منها حدود

(1) انظر: (الأنصاري الأحسائي، 1960) (المسلم، 1962)

(2) انظر: (الغنيم، 2016) (النبهاني الطائي، 1986) (الشيخ خزعل، 1962)

معيّنة معترف بها دوليًا، وإلى جانب المشترك الجغرافي لدول شبه الجزيرة العربية هناك اشتراك في العادات والتقاليد والامتداد الأسري.

ثانيًا- السياق الثقافي:

ثمّة أمر من الأهميّة بمكان يجب التوقّف عنده مليًا عند دراسة أدب هذه العصور والشعر منه بخاصة، ألا وهو الازدواج اللغوي الذي يمرّ عليه الدارسون مرور الكرام ويقتصرون على ذكر أن هناك لغة عربية فصحى وهناك لغة ملحونة فاسدة أطلقوا على ما كتب من الشعر بها الشعر الحميني أو الشعبي أو العامّي أو النبطي، وفي هذا مجافاة لحقيقة الواقع، فمن المعلوم أن اللغة العربية في الحواضر الكبرى في العراق والشام ومصر والمغرب قد اختلطت بلغات زاحمتها وتبادلت التأثّر والتأثير معها، إلا أن هذا لا ينطبق على بلاد المنبع العربي، حيث عاشت القبائل في حراك مستمر في بوادي الجزيرة العربية وهي القبائل التي كان يحتجّ بلغتها ولم يكن لها اختلاط أو احتكاك بالأعاجم وجلّهم لم يسمع بلغة غير اللغة العربية إلا في القرن العشرين عندما أصبحت بالجزيرة العربية دول مؤسسات لها نظام تعليمي ووفد إليها العاملون من أصقاع الأرض. انظر: (الصويّان، 2010، صفحة 23)

وقد تناول ابن خلدون في مقدمته في الفصل الذي يتحدّث عن أشعار العرب وأهل الأمصار فيذكر شعر البدو ويتحدّث عن خصائصه اللغوية وسماته الفنية والأدبية، ليؤكد أنه إذا ما أخذنا

في الاعتبار ما يحتمه مرور الزمن في حدوث تغيرات تدريجية على لغة البادية فإن شعر البدو في عصره- على خلاف الزجل والموشحات وغيرها من أشعار أهل الأمصار- يمثّل الامتداد الطبيعي لشعر الجاهلية وصدر الإسلام من حيث اللغة والشكل والوظيفة والأغراض. وأن لهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون، والكثير من المنتحلين لهذا العهد، وخصوصًا علم اللسان، يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها، وهذا إما أتى من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليمًا من الآفات في فطرته ونظره. انظر: (ابن خلدون، 1994، صفحة 289 ج 2)

فاللغة المحكية الدارجة تغيّرت عن المستوى الفصيح الكلاسيكي كما هو حال لغات البشر جمعاء، وقد تناول هذا التغيّر النحو والصرف، فاستُغنيَ عن حركات الإعراب واختلف التصريف عمّا عهدوه سابقًا. وكُتب الشعر بهذه اللهجة المحكيّة الدارجة وكان له رواج وسيرورة شفهية وهو أقرب في مبانيه وفنونه وبواعثه إلى الشعر العربي القديم في عصوره المبكّرة؛ لأن الذي كتبه هو خليفة ذاك العربي الذي كتب الشعر بلغته الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم. انظر: (وادي، 1995، صفحة 29)

أما اللغة العربية الفصحى فاقتصرت معرفتها وإتقانها على من يتعلمونها تعلّمًا واكتسابًا وليست سليقة، فاللغة التي يتحدث بها الناس في حياتهم اليومية عامة بما فيهم العلماء هي لغة

محكية دارجة، يؤكد ذلك وجود الشعر الذي كتب بها في دواوين مشاهير الشعراء العلماء كابن معصوم[1].

والحركة العلمية في الجزيرة العربية لهذا لعصر لم تكن بمعزل عن الحواضر العلمية العربية كبغداد ودمشق والقاهرة، وكان الحرمان في مكة والمدينة بمثابة جامعتين كبيرتين، حيث يجاور بهما كثير من العلماء النابهين الذين يأتون من شتّى الأقطار العربية، ويقيمون فيها مددًا طويلة. وقد عني العثمانيون ببناء المدارس.

ونشطت الحركة العلمية في اليمن بسبب الحواضر المتنافسة علميًّا وأدبيًّا، وكان كثيرًا من الأمراء علماء، وكذلك الحال في حضرموت وعُمَان، فقد عني حكام عُمَان بالحركة العلمية والأدبية، فكثر في عمان الأدباء والشعراء.

وقد وجد العلماء والوعّاظ في مدن وقرى نجد، لكن ليس لهم نشاط أو قوّة في العلم، وقد تبدّل ذلك بعد استقرار الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدرعية، إذ قويت الحركة العلمية لا سيما في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد.

أما في شرق الجزيرة العربية حيث الأحساء والقطيف وقطر وجزيرة أوال (مملكة البحرين حاليًّا) فقد كانت الحركة العلميّة نشطة على نحو ما يصوّر ذلك كتاب سلافة العصر لابن معصوم وكتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع

(1) هو علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسيني المدني، الشهير بابن معصوم، عالم بالأدب والشعر والتراجم، ولد بمكة سنة 1052هـ، وأقام مدة بالهند، توفي بشيراز سنة 1119هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 258 ج 4)

عشر الهجري، وديوان أبي البحر الخطي. انظر: (ضيف، 1980، صفحة 52) (البسّام، 2005)

ثالثًا: الإخوانيات والشعر الصوفي:

مما يلاحظ على شعراء الإخوانيات في العصر العثماني تأثّرهم بالشعر الصوفي وطرائقه، بل هم ممن يدخلون في ربقة شعراء الصوفية، فدواوينهم تصطبغُ بالطابع الصوفي وتتمثّله في أغراضه المختلفة، حيث شعر الإلهيات والمدائح النبوية والتوسل بالصالحين والعلماء وزيارة قبورهم، كذلك يحوي معجمهم الشعري كثيرًا من ألفاظ ومصطلحات ولوازم الصوفية.

ومن ناحية أخرى يرى الصوفي أنه بما أن اللّه هو الجمال السرمدي، «فالحب سرمدي أيضًا، وفي طبيعة الجمال تكمن الرغبة في الحب ...، والصوفية بهذا المعنى تلغي التعدد والأثنية إذ تقول بالوَحْدة، يقول جلال الدين الرومي:(خلعت الأثنية، ورأيت العالمين واحدًا، عن واحد أبحث، وواحدًا أعرف، وواحدًا أرى، وواحدًا أنادي، لقد انتشيت بجام الحب، فالعالمين قد فنيا من إدراكي، ولست مشغولًا بغير تساقي الشراب ومناقلته ...». (الكبيسي، 1971، صفحة 17)

وقد حمّلَ شعراء الصوفية رمز المرأة دلالاتٍ لم يعرفها الشعرُ الغزلي بشتى أنواعه، فـ«العالم -حسب النظرة الصوفية- في وضع تعشّق وتوالج تبادلي ...؛ لذلك أغلب الشعر الصوفي شعر غزلي، تمّ للصّوفيّة فيه التأليف بين الحب الإلهي والحب الإنساني». (زايد، 2011، ص178)

واتخاذ التغزّل بالمرأة وسيلةً للتعبير عن الحب الإلهي لدى الصوفية، جعل هذا النوع من الغزل من «أكثر مواضيع الصوفية شاعرية كإحساس وتعبير، فهي لا تعبّر عن حالة وجْد فحسب بل هي طريقة وصول تلغي الوسائل الأخرى. (زايد، 2011، صفحة 178)

يقول الشاعر الصوفي أحمد بن نوح[1]:

أنا أُفْتِي أنّ تركَ الحبِّ ذنبٌ ... آثمٌ في مذهبي من لا يُحبُّ
ذُقْ على أمري مراراتِ الهوى ... فهو عذبٌ وعذابُ الحُبِّ عَذْبُ
كلُّ قَلْبٍ ليس فيه ساكنٌ ... صَبْوةٌ عُذْريّةٌ ما ذاك قلبُ

(سلام، 1970، صفحة 227 ج1)

وقد غلبت طبيعة الوجد والأشواق التي كرّسها سلطان العاشقين ابن الفارض على طبيعة الشعر الصوفي. الذي يتسامى بحبه «كما يتسامى بالصفات الحسية للجمال فيجرّدُها للمعاني الصوفية، فالبدرُ ليس شَبَهًا ولا صورةَ جمالِ المحبوبِ على عادة الغزليين، ولكنه شيءٌ آخر عنده، يتمثّل فيه الإشراقُ بنورِ الفيضِ الإلهيّ في النفس، يقول الشاعر محمد بن عبد المنعم الخيمي[2]:

كَلُفْتُ ببدرٍ في مبادي الدجى بَدَا ... فعاد لنا ضوءُ الصباحِ كما بَدَا
وحجّب عنّا حسنَه نورُ حسنِه ... فمِنْ ذلك الحسنِ الضلالةُ والهدى

(1) هو عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد الأنصاري القوصي، المعروف بابن نوح، ابن نوح. (ت 708 هـ – 1309م)، فاضل متصوف، أصله من الأقصر (بصعيد مصر) اشتهر بقوص، وتوفي بالقاهرة. (الزركلي، 1992، صفحة 31 ج 4)

(2) أبو عبد الله، شهاب الدين ابن الخيمي. (602 – 685 هـ = 1205 – 1286 م). شاعر أديب يماني الأصل. (الزركلي، 1992، صفحة 250 ج 6)

فيا عاذلي دعني ونارَ صبابتي ... عليه فإنّي قد وجدت بها هدى
وهاك يدي إنّي على تركِ حُبّه ... مدى الدهرِ لا أعطيك يا عاذلي يدا
فما العيشُ إلا أن أبيتَ مواصلًا ... لبدريَ أو في حُبِّ بدري مسهّدا
فيا نارَ قلبي حَبَّذا أنتِ مُصْطَلَى ... و يا دمعَ عيني حبّذا أنتَ موردا
ويا سَقَمِي في الحبِّ أهلًا ومرحبًا ... و يا صحّةَ السلوانِ شأنَك والعِدا

(سلام، 1970، صفحة 236 ج1)

الشواهد الكثيرة على استبطان جلّ شعراء العصر للمعاني الصوفية ماثلة في دواوين الشعراء بصورة يتعذر استقصاؤها، وسيُقتصر على ما يؤيد ما نحن بصدده من ارتباط شعراء الفترة بالتصوّف وتمثّله، يقول محمد خليل السمرجي[1] :

الكونُ نحن وأنتم والوجودُ هَبَا ... وما سوانا سواكم أو نعاينُه
جميعُنا ناظرٌ من جَفْنِ صاحبِه ... فكلّ جَفْنٍ سوى عينيه قاطنُه
أقام معنى ذواتِ الكلِّ بعضَ هوى ... لو لم نَكُنْهُ لما كانت كوائنه
أهذه مُهَجٌ طارت بها لُجَجٌ ... من الهوى إذْ جَرَتْ فيه سفائنُه
نعم قلوبُ عطاشٍ ظَلْنَ حائمةً ... لكن حَمَى المنهلَ العلويَّ ساكنُه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 26/ أ)

ويقول السمرجي أيضًا :

يا شَكْلَ روحي وروحَ شكْلي ... وذاتَ عيني وعينَ ذاتي
أمتّني بالجفا فصِلْني ... ترجعْ ليَ الروحَ يا حياتي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 26/ أ)

(1) محمد خليل السمرجي، شاعر ينسب إلى جدّة، أصله من صنعاء اليمن، له ديوان شعر مخطوط أعمل على تحقيقه. توفي في جدّة بعد سنة 1181 هـ، وقيل 1171هـ. انظر (كحالة، 1957، صفحة 259 ج 9) و (المقحفي، 2008، صفحة 425 ج2)

اعتمد الشعر الصوفي غرضي الغزل والخمريات كأداة فاعلة تؤثّرُ في المتلقّي أيّما تأثير، واستغلال الرابط الخفي بين عاطفة الشاعرِ الصوفي التي تسمو لتحلّقَ في آفاقٍ مجنحةٍ من المتعة والخيال لاكتساب مشروعيةٍ تجعل ثمّةَ علاقةٍ بين شعريةِ التصوّفِ وشعريةِ الغزلِ والخمريات. فعند قراءة هذين البيتين للسمرجي يتبدّى واضحًا جليًّا مرامُه الذي توسّل إليه بليلى مصطحبًا قاموسَ الشعر الغزلي:

وكيف ترى ليلى بعينٍ ترى بها ... سواها وما طَهَّرْتَهَا بالمدامعِ
أُجِلُّك يا ليلى عن العين إنّما ... أراك بقلبٍ خاضعٍ لك خاشعِ

(السمرجي، مخطوط، صفحة 26/ أ)

وقد اعتمد الشعر الصوفي الغزل فجعله مشربًا من مشاربه، فالعشق الإلهي عند شعراء الصوفية طريقة من طرائق الغزل والنسيب، يوافق الغزل االتقليدي في المعاني والألفاظ، وتفصح قراءته من منظور تداولي عن خصوصيته وتميّزه.

وبما أنّ شعر الإخوانيات يرتكز على الأخوّة والإخاء والمحبة وهي مرتكزاتٌ ذاتُ ارتباطٍ وثيقٍ بالتصوفِ ومنازعِه، فالحبُّ والعشقُ لازمةٌ لا تنفكُّ عن عالم التصوّف، وتظهرُ جليةً ماثلةً في شعر الإخوانيات؛ لذلك شاعرُ الإخوانيات الصوفي يعدّ المرأةَ والخمرَ من أهمِّ أدواتِه وأجلِّها.

يقول السمرجي في ديوانه: ومما قلته مادحًا قطبَ دائرةِ الولايةِ الكبرى وشمسِ القادةِ العظمى سيدي وأستاذي وعمدتي وملاذي الشيخ محمد الحفني نفعني الله تعالى به:

فيا ذات الجمال ويا هَيُولي ... جلالِ اللّه والكرمِ المعدِّ
و يا قطْبَ الزمانِ وليس هذا ... مقالي دونَ خلقِ اللّه وحدي
أجرني غيرَ مأمورٍ وقُمْ بي ... لآمنَ شَرَّ غائلةِ التردّي
وجلِّ غُيُوَّ قلبي من عيونٍ ... تكدَّرَ ماؤُها لِوُحُولِ وِرْدِي
لعلّ يذوقُ كأسَ الذوقِ دأبًا ... أهيمُ وبابُ سرِّ الكشفِ حدِّي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27/أ)

ونرى بذلك أنّ الشاعر الصوفي اعتمد المشرب الخمري التقليدي في شعره إلى جانب المشرب الغزلي، وأحيانًا يمزج بين الخمر والوجد والصبابة، والخمر عندهم هو السكْر الناتج عن ذوبان الصوفي وانغماسه في الحب الإلهي الذي يذهل لبّه عمَّا سواه.

رابعًا: صور المديح في شعر الإخوانيات:

تكتسب معاني المديح في الشعر الإخواني خصوصية تميّزها عن معاني قصيدة المديح التقليدية، وتأتي المبالغة في مقدِّمة هذه المميزات، وهي وإن كانت سمة جليَّة في جلِّ شعر العصر، إلا أنها تمثُل في شعر الإخوانيات بصورة أكبر، إذ يحرص الشاعر على حشد كمٍّ هائل من الفضائل والصفات التي يوفّرها معجم المديح العربي. يقول إبراهيم البرّي[1] مخاطبًا إبراهيم الخياري[2]:

(1) إبراهيم بن أحمد البري (ت 1150هـ - 1737م) عالماً فاضلاً وشاعرًا تولى نيابة القضاء في سنة 1102هـ وتولى إفتاء الحنفية أصالة في سنة 1104. (الداغستاني، 2009، ص134).

(2) هو إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري، ولد في المدينة المنورة سنة 1092هـ، باشر الخطابة والإمامة، وتوفي سنة 1152هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 205)

أعين الفضائل زين الخصائل (م) ربّ عيون العلوم المعينه
تألّقَ في أفق المجد منك ضياءٌ رأينا سنا البدر دونه
وفوّقْتَ سهْمَ ذكاك إلى أبيّ المعالي فنال جبينه
وحاصرَ فهمك حصنَ العصيّ من المشكلات فهدّ حصينه
كأنّك إن ما دعيت لحلّ (م) العويصات ليث يجافي عرينه
وإن ريم نيلك تُلقى إذن كأنك غيثٌ يوالي هتونه
لعمر أبيك لأنت المنوّه باسمك بين أهالي المدينه

(الداغستاني، 2009، صفحة 134)

فأجابه الخياري على شاكلة ذلك:

أصدر المكارم خدن العلا ومن هو بالحقّ شيخ المدينه
ومن فاق في نظمه والنثار فلم تلْفِ بحرًا يجاري معينه
لقد بذّ فضلُك من شاءه وأعجزه أن يباري شؤونه
نظمت الجواهر لا منكر إذا البحر أبدى اللآلئ الثمينه
وشنّف سمعيَ بيت صفاتٍ بها ذات مولاي أضحت قمينه
فمن بيتكم قد تسامى الفخا ر والشبل للّيث يأوي عرينه
وللأصل إذ فاق تُنمى الفروع وتلقى محاسنه المستبينه
وقد حقّقت فيك منّا الظنون وكانت بمثلك حقًّا ضنينه
ولكن أتيت فأربى سناك على من يساميك وصفًا وطينه

(الداغستاني، 2009، صفحة 136)

ويلائم الجو الإخواني لهؤلاء الأدباء العلماء التركيز على العلمية والشاعرية والكرم وشرف النسب وعلوّ المرتبة. وهذه اللازمة من أبرز ما يثبت الاختلاف بين الشعر الإخواني وشعر

المديح التقليدي. فيكثر في شعر الإخوانيات التركيز على شرف نسب من توجّه إليه القصيدة، كانتسابه لآل البيت أو الصحابة أو بيوتات العلم المعروفة، إذ يجعل الشاعر ذلك مُفتَتَحًا للإطراء يعقبه حشد للصفات الأخرى كالعلمية والكرم والعفة والنزاهة.

يقول ابن معصوم في مراجعة طويلة للسيد حسين بن علي بن شدقم الحسيني[1] سنة 1081هـ - 1670م:

هَذا الوفيُّ الهاشميُّ المجتبى ... غَوثُ الجَليس له وبدرُ المجلِسِ
طابَت أرومةُ مجده فزكت به ... وَالغرسُ يُعربُ عَن زَكاء المغرسِ
إِيهٍ أَخا المَجدِ المؤثَّل وَالعُلى ... لِلّه درُّك من أَديبٍ أَكيسِ

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 241)

وكذلك يمتدح محمد أمين المحبي[2] زين العابدين البكري الصديقي[3] بقصيدة طويلة يستهلها بمقدمة غزلية طويلة ثم

(1) هو حسين بن علي بن حسن بن شدقم الحسيني المدني، دخل الديار الهندية واتصل بنظام الدين بن معصوم وله مدائح به. (ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 253) (المحبّي، 1969، صفحة 336)

(2) هو محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبّي، الحموي الأصل الدمشقي، ولد في دمشق سنة 1061هـ، وتوفي فيها سنة 1111هـ.مؤرخ وباحث وأديب، عني كثيرًا بتراجم أهل عصره فصنف كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، وكتاب (نفحة الريحانة ورشحة طلاء الخانة) نحا فيه منحى الخفاجي في كتابه (ريحانة الألباء)، ولي القضاء في القاهرة. (الزركلي، 1992، صفحة 41 ج 6)

(3) هو زين العابدين بن محمد زين العابدين بن محمد بن علي البكري الصديقي القاهري الشافعي، وهو صاحب المحبي مؤلف كتاب نفحة الريحانة وقد أعانه على إخراج الكتاب، له تآليف وشعر، توفي سنة 1107هـ. (المحبّي، 1969، صفحة 492 ج 4)

يمتدح البكري في عشرين بيتًا يركز فيها على نسبته لأبي بكر الصديق رضي الله عنه:

ذاك الهمامُ أجلُّ من تسعى لسدّته الركائب
شهمٌ أحاط بكلّ منْـ ـقبةٍ بها تسمو المناقب
متناسق الأخلاق با دي البِشْر فيّاض المواهب

إلى أن يقول:

مولاي أنت وأنْـ ـت نتاج مفخرة الحقائب
يا نجل صدّيق النبي (م) وفرع زهراء المناسب
لك من أصولك رتبةٌ فخُرتْ على كلّ المراتب
وَهُمُ الذين تبوّءوا في المجد هاماتِ الثواقب
نطق الكتاب بمدحهم واستفتحت بهم الكتائب
فمدائح الأقوام غيْـ ـرهمُ تعدّ من المثالب

(المحبّي، 1969، صفحة 502 ج4)

كذلك يمتدح محمد الدمياطي[1] الأستاذ زين العابدين البكري بقصيدة طويلة على الديباجة المعتادة نفسها حيث المقدمة الغزلية الطويلة فالمديح، يقول:

رَفَعَتْ بأطْرافٍ رِطاب عن وجهها طرفَ النقاب
فعجبت كيف البدْرُ يجْـ ـلو الشمس عن صدأ السحاب

(1) محمد بن حسين بن مصطفى الدمياطي (213هـ – 1268م) المعروف بالخضري، فقيه شافعي ميقاتي، مفسر أصولي بياني ناظمي، عالم بالعربية. (الأسعد، (1992)، صفحة 245)

ثم يستهل المديح بالإشادة بنسب الممدوح، فيقول:

والـعـزّ يـخـدم سـاحـتـي ... والـسـعـد مـرتـبـط بـبـابـي
بمـديـح زيـن الـعـابـديـ ... ـن الحبْر محفوظ الجناب
ابـن الـفـواتح والخـوا ... تم والـعـواصـم والمـتـاب
وابـن الخـلافـة والإنـا ... فـة والإمـامـة والمـآب
فَـرْدُ الـوجـود ومظهر التكميـ ... ـل فـيّـاح الـرحـاب

إلـى أن يبلـغ اثنـين وعشـرين بيتًـا في هـذا المديـح، لينتهـي بأنـه يدّخـر حبّـه لبنـي الصديـق ليـوم القيامـة:

حبّـي بنـي الصديـق دخْـ ... ـري للقيامـة واحتسـابي
وبـه أروم الفـوز في الدنيـا (م) وفي يـوم الحسـاب
(المحبّي، 1969، صفحة 650 ج4)

ويحشـد محمـد خليـل السـمرجي في قصيـده إخوانيـة يوجههـا للشـاعر المدنـي جعفـر البيتـي نعوتًـا عـدّة، فيقـول:

فـات الشـموسَ مكانـةً فَلَـوَ اَنَّـه ... رام الهبـوط لـكان مهبطـه اِرتقـا
قـومٌ هـم الدنيـا فـإن ولّـوا فـلا ... إشكال في فضل الفناء على البقا
لبسـوا جلابيب الجلالة واغتذوا ... درّ الرسـالة مـا ألـذّ وأعبقـا
أَوَلَيْسَ منهم جعفـر ابن محمدٍ ... الطاهـر الجيـب الأغـرّ المنتقـى
مـن لا يُبـارى في المقـال تبحّـرًا ... مـن لا يجـارى في النـوال تدفّقـا
أمّـا العلوم فليس أعلم منـه في ... علمـاء أقطـار البسـيطة مطلقـا
هـذا الـذي قـد صـحّ عنـه بأنّـه ... سـبق الفحـول محقّقًـا ومدقّقـا
(السمرجي، مخطوط، صفحة 42/ أ)

وللشهاب الخفاجي يمتدح عبد الرحمن بن عماد الدين الشامي الحنفي عندما قدم مصر:

يا واحد الدنيا وبيت قصيدها الزّ (م) اهي لدى الإنشاء والإنشاد
يا ابن العماد لأنت عمدة سادةٍ تُمتاح في الإصدار والإيراد
إرَمًا غدت أرضَ الشآم لأنها ذات العماد بكم وأيّ عماد
بل جنّة فيها الثناء مخلّدٌ أترى لها بعد البعاد بعاد
وحديث فضلكمُ المعنعن مجده أضحى بأصلك عالي الإسناد
يثني عليه رائحٌ أو غادي أبدا برغم عشيرةٍ أوغاد

رد عليه الحنفي بقوله:

هذي درارٍ نورها لي هادي وشهابها رُجُمٌ على الأضداد
أم روضةٌ بسمت ثغورُ زهورها أم حلّةٌ وشيت من الأبراد
أم تلك أبياتٌ أبيّاتُ البنا رفعت على عُمُدٍ رفعن عمادي
بُنيت بأيدي فكر قسّ خفاجةٍ تبّت أيادي فكر قسّ إياد
مولاي يا فرد الوجود فضائلًا وشمائلًا يا أوحد الآحاد
قد كنت أسمع عن فضائلك التي شنّفنني من حاضر أو باد
ولطالما قد كنت أرجو الملتقى وتبعّد الآمال طول بعادي
حتّى شهدت جمالكم فلمحنتي جذبت محبّتكم شغاف فؤادي

(الخفاجي، 7691، صفحة 322 ج1)

وكذلك يمتدح أحمد بن شاهين الشامي[1] الشهاب الخفاجي عندما قدم الشام ويدلل ذلك على أن الشعر من أهم وسائل الترحيب والاحتفاء:

(1) أحمد بن شاهين القبرصي الأصل الدمشقي المولد، الأديب اللغوي الشاعر، ولد سنة 995هـ، وتوفي 1053هـ- 1643م. (المحبي، 1969، صفحة 210 ج1)

وسخاءٌ من الزمان بأهنا ... نعمةٍ قد أتت لأحوج راج
بقدوم المولى الإمام المفدّى ... أحمد السيّد الشهاب الخفاجي
الشهاب الذي أضاء فضاءت ... شامنا من سراجه الوهّاج
زارنا في دمشق غيثٌ رويٌّ ... غيث علمٍ من طبعه الثّجّاج

إلى أن يقول:

عالمٌ يُخرج الخفيّ المعمّى ... من علوم الألى بلا استخراج
عنده كالصباح في كلّ علمٍ ... مدلهمّ كالليل أسود داج

(الخفاجي، 1967، صفحة 229 ج1)

ولمحمد بن قاسم الحلبي[1] يمتدح صديقًا:

بحر فضلٍ لو قيس بالبحر كان الـ ... ـبحر في جنبه كلمّع السحاب
مزج الفضل بالسخاء كما ما ... زج ماء الغمام صفو الشراب
وإذا قيل خلقه الروض أضحى الرو ... ض طلقًا بذلك الانتساب
ما عسى أن أعدّ من مكرماتٍ ... ضبّطها قد أعيى على الحسّاب
وإذا ما الأفكار أُمعن فيها ... غرقت من بحارها في عباب
أنت من نَاظِر الزمان سواد الـ ... ـعين والناس منه كالأهداب

وقد كان هذا الثناء والإطراء الذي تزخر به القصائد الإخوانية مبررًا لإدخال هذا الفنّ في ربقة شعر المديح الذي يختلف منزعه عن الشعر الإخواني كما مرَّ سابقًا، وما سيُتَناول في الفصل القادم.

(1) هو محمد بن أحمد بن قاسم الشهير بالقاسمي الحلبي. شاعر. من آثاره: ديوان شعر، توفي سنة 1054هـ 1644-م. (كحالة، 1957، صفحة 309 ج 8)

الفصل الثالث

بواعث شعر الإخوانيات

الباعث الشعري هو الفيصل الذي يعتمد فيه تحديد شعر الإخوانيات عمّ يتلبّس به من أشعار أخرى، فاللغة التي يستخدمها الشاعر الإخواني والمشاعر التي يضمّنها تلك اللغة تشي بماهيّة هذا الشعر وتبرزه فنًّا قائمًا بذاته. وتتعدّد بواعث كتابة الشعر الإخواني، لذلك تأتي القصيدة متدثّرة بذلك الباعث.

أ- الإطراء والثناء:

من أبرز بواعث شعر الإخوانيّات التراسل من أجل مدّ جسور الصداقة أو المحافظة على عرى الودّ، وربّما كتب شاعر ناشئ شعرًا لعالم من العلماء المبرّزين المعروفين لينال جوابه الشعري فيكون ذلك مدعاة لسيرورة شعره والاعتراف به في ربقة الشعراء.

من الإطراء والثناء ما كتبه جعفر الخطّي القطيفي[1] إلى السيد جعفر بن عبد الجبّار العلوي الموسوي[2] سنة 1024هـ، تبلغ

(1) هو جعفر بن محمد بن حسن الخطّي البحراني العبدي العدناني، أبو البحر، شاعر الخطّ في عصره، من أهل البحرين، توفي سنة 1028هـ- 1619م. (الزركلي، 1992، صفحة 129 ج2)

(2) ذكر محقق ديوان الخطي عدنان محمد العوامي بأنه لم يقف له على ترجمة، إلا ما ذكر أنه هو من أمر الحسن بن محمد الغنوي الهذلي بجمع ديوان جعفر الخطي. (الخطّي، 2005، صفحة 253 ج1)

القصيدة خمسة وستين بيتًا، يستهلها بمقدمة غزلية تستغرق ما يقارب ثلثي القصيدة، منها:

بعثتْ طيفَها فزار طروقًا ... فشجى وامقًا وهاج مشُوقا
زورةٌ ما شفت مريضًا شكى الهجْـ ... ـر زمانًا واستوخم التفريقا
حين شقّ الصباح حزنًا على الليْـ ... ـل وقد مات جيبه والزّيقا
بزّ نومي وطار والقلب يقفو ... ه امتساكًا بذيله وعلوقا
أو لم يأن للذي أسكرته ... حدق البيض ساعةً أن يفيقا
أوقعتني الأيام في قبضة الحبّ (م) وما كنت للبلاء مطيقا
ضقت ذرعًا بحبّ من لا أسمّيـ ... ـه وإن مزّق الحشا تمزيقا

ثم ينصرف بعد الشكوى من المشيب متخلّصًا لمديح الموسوي عند البيت الخامس والأربعين، ليقول:

إنّ أولى الورى بخالص ودّي ... جعفرٌ قد غدا بذاك خليقا
سار ما سار أوّلوه فأعلى السَّمْـ ... ـك ممّا بنوا وسدّ الفتوقا
وحمى ما حموا وزاد وأعطى ... فوق ما قد أعطوا وأدّى الحقوقا

ليقرر في الأبيات السبعة الأخيرة تحيّرَه في القول بالرغم من تقدّمه في هذا الفنّ، وأنه يأنف أن يأتي بتكرار ما قد قيل، لكنه مع ذلك يؤكد في البيت الأخير أن المتنبي لو سمع القصيدة لغصّ ريقه، يقول:

لست أدري ماذا أقول وإن كنْـ ... ـت أُعدّ المفوّه المنطيقا
وَرَدَ الناس قبلنا مورد النّظْـ ... ـم فأضحى مكدّرًا مطروقا
إنّ نَظْمَنا بيتًا غريبًا وخلنا ... ه جديدًا كان الجديد عتيقا
أو سبقنا في ما نظنّ لمعنى ... مُعجِبٍ كان سبْقنا مسبوقا
سبقونا والمرء يأنف أن يسْـ ... ـبق يومًا وإن أطاق لحوقا

أيّ معنى أبقوه لم يَسِمُوهُ سمةً تترك الصريح لصيقا
فاستمعْها لو أنشدوها أبا الطيّب (م) ما كاد أن يسيغ الريقا
(الخطّي، 2005، صفحة 253 ج1)

يذكر الخفاجي[1] في ريحانته أنه كتب متشوّقًا للقاء عبد الرحمن بن علي الخياري[2] نزيل المدينة المنورة وملتمسًا صالح دعائه:

يا نسيمًا من نحو طيبة ساري مهديًا عطر ندّها والعرار
مزريًا نشره بعنبر شِحْرٍ في حشا جونة الفتى العطّار
خذ فؤادي فذاك مجمر شوقٍ وغرامٌ بمضمر الوجد واري
موقدًا فيه عنبرًا من مديحي لحبيب المهيمن المختار
لمقامٍ بمقتضاه بليغ لا يوفّى بلاغة الأسرار
وفصيحٍ فصاحة اللفظ فيه زاد حسْنًا بكثرة التكرار
ولمن في ذراه من كلّ جارٍ حاز حفظًا لعيشه في الجوار
فهُمُ خزرجي وأوْسي وإن لم يسعف الدهر بالمنى أنصاري
سيّما صنوي الشقيق لروحي وهْوَ عبد الرحمن حامي الذمار
قد تملّى بروضةٍ حاز فيها مثمرَ السّعْد مزهرَ الأنوار
باع دنيا دنت بأخرى تسامت فغدا في مبيعه بالخيار

(1) أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري، قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، ولد سنة 977هـ - 1569 م وتوفي سنة 1069هـ - 1659م، اتصل بالسلطان مراد العثماني فولاه قضاء سلانيك ثم قضاء مصر، من أشهر كتبه (ريحانة الألبا). (الزركلي، 1992، صفحة 238ج1)

(2) عبد الرحمن بن علي بن موسى الخياري الشافعي، نسبة إلى بلدة الخيارية بمصر، علم جليل، هاجر إلى المدينة المنورة سنة 1029هـ وتوفي بها سنة 1056هـ. (الخفاجي، 1967، صفحة 445ج1)، (الأنصاري، 1970، صفحة 204)

فعساه يمنّ لي بدعاءٍ ... مستجابٍ في ليله والنهار
ليحوز الشهاب أعظم سؤلٍ ... وأمانٍ من مطلع الأنوار
ما ارتدى الليل من برود الدياجي ... حُلَّةً طُرِّزت من الأسحار

فأجابه الخياري:

بعد إهدا أسنى السلام الساري ... من ربا طيبةٍ أجلّ الديار
فائقا طِيبُهُ شذا كلّ مسكٍ ... فاتقًا نوره دجى الأسحار
لحبيبٍ في الله خِلٍّ وفيٍّ ... طيّب الأصل ذي الثناء الساري
أحمد الفعل والشهاب المرجّى ... كاشف المشكلات كنز الفَخار
دام في نعمةٍ وعزٍّ ولطفٍ ... من إله الورى الكريم الباري
محييًا سنّة الألى سبقوه ... باتّباع الألى وحسن الوقار
وصلاةٌ مع السلام دوامًا ... للنبيّ المُمجّد المختار
ولآلٍ وصحبه ما اضمحلّت ... ظُلَمُ الظّلَمِ باجتلا الأنوار

(الخفاجي، 1967، صفحة 446 / 1)

تظهر قصيدة الخفاجي وردّ الخياري عليه الاحتفاء بهذا النوع من الشعر، فالخفاجي يستهل أبياته بمقدمة مديح نبوي لينتقل بعده إلى ذكر مجاوري النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ثم يضيّق الدائرة ليتوجّه الإطراء والمديح للخياري، يُلاحظ الحرص على الصنعة في بيت (باع دنيا..) فهو يوجّه هنا بنوعٍ من البيوع المعروفة يناسب لقب صاحبه، ويأتي جواب الخياري مهديًا سلامه الذي يفوق كلّ مسك مشاكلًا بذلك عنبر الشحر الذي ذكره الخفاجي، ثم يحقق الخياري طلب الخفاجي بالدعاء له في بيتين.

يعدّ تبادل الشعر بين العلماء من مظاهر الاحتفاء والتقدير،

مثاله ما أورده الشيخ عبد الغني النابلسي[1] في كتابه (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) من قصائد وجّهها له عدد من شعراء المدينة العلماء مع جوابه لكل واحد منهم، إذ يقول ما نصّه: «جاء إلينا الشاب الفاضل جامع الفضائل الشيخ أحمد[2] الخطيب ابن المرحوم صديقنا العالم الكامل الشيخ إبراهيم الخياري، وجلس عندنا حصّة من الزمان، ثم أخرج لنا قصيدة من نظمه امتدحنا بها، فقرأها علينا، وهي قوله:

من مجيري من مرهفات الجفون الغنيّات عن صقال القيون

بدأ بمقدمة غزلية ثمّ تخلص إلى مدح النابلسي في البيت الثامن عشر، بقوله:

كدت أخشى الضَّلال في الحبّ لولا أن هدتني أنوار ربّ اليقين
روح جسم العلا وإنسان عين الـ ـمجد حقًّا وعمدة في الدين
بحر فضلٍ مفتاح كنزِ علومٍ وسراج الهداية المستبين

ويستمر الإطراء الإخواني في سبعة عشر بيتًا ليختم القصيدة بنعتها بالعروس ويعتذر عن تقصيرها، فيقول:

سيدي هاكها عروسة فكرٍ في قيود الغرام كالمسجون
ذي اشتغالٍ من الهوى واشتغالٍ بصروفٍ من الدنى وشؤون

(1) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي، شاعر، عالم بالدين والأدب، مكثر من التصنيف، متصوّف ولد بدمشق سنة 1050هـ - 1641م، وتوفي بها سنة 1143هـ- 1731م، رحل إلى الحجاز سنة 1105هـ 1694م. الأعلام 4/ 32

(2) أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري، ولد سنة 1070هـ بالمدينة المنورة، وباشر الخطابة والإمامة، توفي سنة 1123هـ. تحفة المحبين والأصحاب ص205

قصرت عن ذرى معاليك لكن ضمنتْ لي القبول حسّن ظنوني
لم يزنْها سوى مديحك فيها وكفاها في الحسن عن تحسين
وابق في عزّةٍ رفيع جنابٍ من حمى الله في أجلّ الحصون
ما تغنّت على الأراكة وُرْقٌ فأثارت لواعجي وشجوني

يلاحظ عبارة النابلسي (فقرأها علينا) فهي عبارة دارجة في الوسط العلمي حيث القراءة والسماع والإجازة.

ويذكر النابلسي أنه رد على قصيدة الخياري في ثاني يوم على الوزن والقافية، وجاء جواب النابلسي مشاكلًا لقصيدة الخياري فالمقدمة غزلية تقع في ثمانية عشر بيتًا إلا أن المتغزّل به قصيدة الخياري، إذ قال:

نسماتٌ زهت بزهو الغصون وأتتنا من عَرْفها بفنون
وتمشّت على الرياحين وهْنًا فأثارت شوقي وهاجت شجوني

يتساءل النابلسي عن كنه هذه الهديّة من الخياري فيستعرض كثيرًا من الأشياء الجميلة مثل المسك وعقود الجمان والشمس والقمر والخود مكررًا لفظة (أم) في مطلع كل بيت ليقرر أن ذلك ما صاغه الخياري، يقول في البيت التاسع عشر:

أم نظام الكلام أبيات شعرٍ قد أتتنا كاللؤلؤ المكنون
صاغها أحمد الخياري عقدًا من نضارٍ لجِيد دهرٍ حرون
جمعت شمل نشأتي وسروري وأزالت شكاية المحزون

ثم يتذكر ما بينه وبين أبي الخياري من صداقة ويمتدح نسبه ويذكر إمامته في المسجد النبوي، ثم يختم القصيدة

بالاعتـذار، فيقـول:

غيـر أنّـي قابلـت بابـن مخـاضٍ ... مـن نيـاق الفهـوم بِنْـتَ لبـون
فاعـذر العبـد فهـو بالعـذر أولى ... هـو للوقـت في اقتضـاء ديـون

(النابلسي، 1998، صفحة 250 ج 3)

ويسترسـل النابلسـي مثبتًـا في رحلتـه تحايـا شـعراء المدينـة المنـورة لـه بالقصائـد الإخوانيـة وجوابـه لـكل قصيـدة منهـا، حيـث يقـرن زيـارة الشـاعر لـه بإتيانـه بقصيـدة، مـن ذلـك زيـارة الخطيـب أحمـد بـن أبـي الغيـث[1] الشـهير بمغلبـاي الـذي أتـى بهـذه القصيـدة:

يـا أيهـا المولـى الهمـامُ الأوْرَعُ ... الفاضـلُ القـرْمُ البهـيُّ الأروع
الجهبذ اليقظ النبيه أخو الذكا ... قيـد الأوابـد في الـورى والمرجـع
العالـم العلّامـة الحَبْـر الـذي ... هـو مسـتقرّ الفضـل والمسـتودع
يهنيك أن وافيت دار الهجرة الـ ... ـقعسا ونعـم الـدار هـذي الأربع

استهل مغلبـاي قصيدتـه بالمديـح والإطـراء حيـث العلميّة والنسـب الكريـم والبيـان العالـي شـعرًا ونثـرًا، ثـم ينهـي القصيـدة بالاعتـذار عـن التقصيـر كجـلّ قصائـد الإخوانيـات، يقول:

قد قصّرت عن شأو مدحك فاغتدت ... لحيائهـا في طرسـها تتلفّـع
هـذا وداعـي الـودّ أبرزهـا كمـا ... جـاءت فعـلّ يطيـب منهـا الموقـع
فاسبل عليها ذيل سترك واقبلن ... عـذري فوجهـي بالحيـاء مبرقـع

(1) هـو الخطيـب أحمـد بـن أبـي الغيـث مغلبـاي الحنفـي، المـدرس والإمـام بالمسـجد النبـوي ولـد بالمدينـة سـنة 1070هـ، وتـوفي بهـا سـنة 1134هـ. (مجهـول، 1984، صفحـة 79)

وقد أعقب مغلباي قصيدته بقطعة نثرية كرّر فيها معاني قصيدته وارتهن في كتابتها إلى المحسنات البديعية فجاءت مكتظّة بالجناس والسجع، وقد أجاب النابلسي بقصيدة على نمط قصيدته التي أجاب بها على قصيدة الخياري، حيث استعرض جلّ مدارات الجمال كالمسك والناي والروضة والدرر والزهور، فكرر (أم) قبل جلّ الأبيات ليمعن في حشد القيم الجمالية التي تناسب القصيدة ليقرّر أخيرًا أنها برزت كفتاة جميلة سرّ بها أيّما سرور، يقول في البيت التاسع عشر وما بعده:

برزت كخوْدٍ في غلائل بهجةٍ ... فالتذّ لي بصرٌ هناك ومسمع
وطفقت أنظر في محاسن وجهها ... لـمّا أميط حجابها والبرقع
أَمْهَرْتُها منّي الكرى فنواظري ... فرحًا بها طول الدجى لا تهجع
وأجبتها عمّا تريد فأمرها ... عندي المطاع إليه إنّي المسرع
أنَّى وقد جاءت لنا من ماجدٍ ... هو فاضلٌ حبرٌ إمامٌ مصقع
وهو الخطيب ابن الخطيب بمسجدٍ ... للمصطفى المختار شهْم أروع

فالنابلسي أنزل قصيدة مغلباي منزلة الفتاة الباذخة حسنًا وعاملها بناء على ذلك، وبعد أن أطرى شاعرها بما يستحق انتقل النابلسي واصفًا قصيدته التي أجاب بها مغلباي بأنها من الغيد الحسان جاءته تمشي على استحياء لَكَأَنَّه كفو لها:

جاءتك كالغيد الحسان بحلّةٍ ... حيكت على منوال مجدٍ يبدع
تمشي على استحيائها بمعاطفٍ ... ريّانةٍ عنها الستائر ترفع
فاسلم لها يا ابن الأماجد قابلًا ... واعلم بأنك كفؤها المتوقّع

(النابلسي، 1998، صفحة 254 ج 3)

ويمتدح الشيخ عبد الكريم الخليفتي العباسي[1] الخطيب والإمام الحنفي المدرّس بالمسجد النبوي الشيخ عبد الغني النابلسي بقصيدة يستهلّها ببيان عِظم وفضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يتخلّص لمدح وإطراء النابلسي، يقول:

كلّ من أمّ ذا الشفيع وزاره ... كفّر الله باللقا أوزاره
وحباه من الشفاعة نصًّا ... قد روينا بين الملا أخباره
وكساه ثوب القبول وأغلا ... قدره في الورى وأعلى مناره
فلعمري يحقّ بذل نفوسٍ ... قصد نيلٍ لطيب تلك الزيارة
ورحيلٍ على الجفون وكحلٍ ... بترابٍ يولي العيون نضاره
فهنيئًا لزائريه أقاموا ... بحماه وشاهدوا أسراره
لاحظتهم عين السعادة حقًّا ... بعطايا أكفّه الزخّارة
كيف لا يسحبون ذيل فخارٍ ... ولهم في الأنام أسنى بشارة
كيف لا يصبح المضاف إليه ... باكتسابٍ له العلا والصدارة
سيّما العالم التقيّ أخو الفضـ ... ـل ومن أصبح الوقار شعاره
هو عبد الغنيّ الغنيّ عن المدّ ... ح بذاتٍ أضحت إليها البشارة

ويسترسل في المديح والإطراء بالديباجة المعهودة ليعتذر في نهاية القصيدة بأنه ليس كفؤًا للتهنئة كما يعتذر عن عوار المديح، فيقول:

لست كفؤًا لأن أهنّيك لكن ... حالة الحبّ علّمتني الجسارة
فاغضض الطرف عن عوار مديحي ... من محبٍّ وقلّهُ فضلًا عثاره

(1) الخطيب عبد الكريم بن عبد الله الخليفتي العبّاسي، ولد بالمدينة سنة 1070هـ وتوفي بها سنة1133هـ تولّى منصب إفتاء الحنفيّة. (مجهول، 1984، صفحة 72)

وتلـقّ امتداحـه بقبـولٍ منـك مـولاي واقبلـن أعـذاره

(النابلسي، 1998، صفحة 262 ج3)

وقـد أورد النابلسـي قطعـة نثريّـة تكمـل مـا قالـه الخليفتـي في قصيدتـه.

ويـرد النابلسـي علـى الخليفتـي بقصيـدة يأتـي اسـتهلالها علـى نمـط اسـتهلال قصائـده السـابقة:

ذو جمـالٍ يبـدي لنـا أطـواره أم محـبٌّ قضـى لنـا أوطـاره

أم غـزال غـزا العقـول بطـرفٍ ناعـسٍ سـلّ جفنـه بتّـاره

حسـنه ينجلـي بـأزرق ثـوبٍ سندسـيٍّ لـه مـن الشـعر دَارَه

أم هـي الغـادة الـرداح تبـدّت بجمـالٍ وبهجـةٍ ونظـاره

ويسـتمر النابلسـي علـى هـذا المنـوال وهـو النمـط الـذي اعتمـده في القصائـد السـابقة، حيـث يحشـد نعـوت الأشـياء الجميلـة متحيّـرًا في وصـف القصيـدة المرسـلة إليـه، ثـم ينتقـل ليجعـل هـذا النظـم يتفوّق علـى شـعر امـرئ القيـس وجريـر وأبـي الطيـب، لينتقـل بعـد ذلـك لمدح الخليفتـي بنسـبه العبّاسـي وإمامتـه في مسـجد الرسـول صلـى اللّه عليـه وسـلم، لينتقـل بعـد ذلـك إلـى وصـف قصيدتـه وإطرائهـا بقولـه:

خذ إليك القصيدة البكر يا من قـد جـلا عنـد مسـمعي أبـكاره

فهي تمشـي إليك مشْـيَ عروسٍ تتوخّـى مـن القبـول نثـاره

ثوبهـا المـدح تنجلـي لـك فيـه حيـث جـاءت مطيعـةً مختـارة

وبعليـاء مجـدك المحـض باهـت مـا سـواها فـرام منهـا إعـارة

ومما يـدلّ علـى الاحتفـاء بشـعر الإخوانيات أن النابلسـي يذكر في رحلتـه قصيـدة للخليفتـي يمتـدح بهـا زيـن العابديـن البكـري الصديقـي

في مصر حيث يقدّم للقصيدة بستة أبيات إمعانًا في الاحتفاء بهذا الغرض الشعري، يقول:

كتابٌ مشعرٌ بعظيم ودٍّ تمكّن في الفؤاد وفي الجنان
إلى مصر البهيّة طاب منها ثرى كالمسك أو كالزعفران
يؤمّ لسوح مولانا الذي لا يزال يؤمّ من قاصٍ ودان
ينوب عن المحبّ بلثم كفٍّ من الشهم الرئيس أخي المعاني
هو البكريّ زين العابدين الذي (م) أضحى يجلّ عن البيان
أدام الله بهجته وأبقى له ذكرًا على مرّ الزمان

أما القصيدة فيصفها النابلسي أنها في بابها فريدة، وهي:

ألا هل لليل الصبّ يا صاح من فجْر فقد طال بي سهْدي وقد عزّ بي صبْري
وأنحلني فرْط الغرام وملّني أساتي ولم يدْر الخليّون عن أمري
يهيّجني مرّ النسيم إذا سرى ويطربني ذكْرُ الأحبّة في مصر
وأصبو إلى حرفٍ يقال من اسمها لأنّ بها أصْل الحياة بلا نكْر
حنيني إليها قد تمكّن في الحشا ولي مقلةٌ تهمي بمدمعها القطر

ثم يمدح البكري مكرّرًا ولعل هذا ما جعل النابلسي يصفها بالفريدة، فالصنعة البديعية محط إعجاب وتقييم للشعر آنذاك، يقول:

هو المفرد الفذّ الرفيع مقامه مدار نطاق المجد والعزّ والفخر
هو الجوهر الشفّاف والأنور الذي به يُنصر المظلوم من ظلمة الغدر
هو البَرّ زين العابدين فلا تقس بزيدٍ له مجدًا حواه ولا عمرو
هو البحر للعافين والمورد الذي به سِكِرَ العشّاق من عالم الذرّ
هو السيّد البكريّ فاعظم بنسبةٍ إلى السيّد الصدّيق حقًّا أبي بكر

فيا لك من فخرٍ تعاظم قدرُهُ وقد حزت معْ هذا فخارًا على فخْر
ألست الوسيع الصدر والرحب الفنا ألست الرفيع الجار والجاه والقدر
ألست الذي قد صار زهرة مصره ومن قبله الآباء في سالف العصر
ألست الذي تلقى عفاتك بالعطا وباللطف والترحيب والأنس والبشر
ألست الذي ما أمّ بابك قاصدٌ مع الكسْر إلا عاد بالجبْر واليسر
ألست الذي يثني عليه زمانه بسيرته الغرّا ومنطقه الدرّي
ألست الذي رقّت معاني صفاته وأصبح منه اللطف يهزأ بالسحْر
ألست الذي لم يأتِ دهري بمثله ألست دقيق الرأي والفهم والفكر
صفاتك لا تحصى بضبطٍ وإنما قصدت بذكر البعض حفظًا من الضرّ

(النابلسي، 1998، صفحة 266 ج3)

عزّ وجلّ من لا تحصى صفاته، وإنما هي المبالغة التي تعدّ لازمة من لوازم الإطراء في شعر الإخوانيات.

وقد حظي الشاعر جاعد الخروصي العماني[1] بإطراء معاصريه من العلماء الشعراء فقد ذكر صاحب كتاب شقائق النعمان في شعراء عمان ثمانية شعراء امتدحوه، وقد اقتصر على إيراد قصيدتين الأولى للدرمكي[2] منها:

رجا منه وصلًا فأنثنى غير واصلٍ وعاد رجاه فيه بنيان واصل

(1) هو أبو نبهان جاعد بن خميس بن مبارك بن يحيى الخروصي اليحمدي الأزدي القحطاني الساكن قرية العليا من وادي بني خروص، كان المقدم على أهل زمانه بالعلم والفضل والشرف، توفي يوم ثالث من شهر ذي الحجة عام سبعة وثلاثين ومائتين وألف. (الخصيبي، 1994، صفحة 139 ج1) (الحضراوي، 1996، صفحة 246 ج 1) (البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، 1963، صفحة 452)

(2) هو القاضي أبو الأحول سالم بن محمد بن سالم الدرمكي الأزكوي، أديب شاعر، توفي سنة ألف ومائتين وبضعة عشر للهجرة. (الخصيبي، 1994، صفحة 116 ج1)

وطوّل بحر الشوق وافرنا به فصار بسيطًا مدّ من غير ساحل
فما زلت سمعًا في هواه بمهجتي ولا زال لي منه سجيّة باخل
رشا لم يُقد للعاشق الصبّ بالرشا ولا بالرشا يقتاد آمال آمل
ولي كامليٌّ كامل الحسن لم يزل هلاليَ منه ناقصٌ غير كامل
له صار سلطان الجمال مسلّطًا عليّ فقلبي عنده طوع عامل

ويستمر في شكواه من لبانات الهوى محتذيًا شعر المتنبي فيقول:

بَليت فلو أدخلت في عين ناظرٍ وخبّر عنّي خالني غير داخل
ولو كرسفٌ[1] أُلقيت في حشو بطنه لدى الغزل ما غيّرت من هدب غازل
ولو رام قلبٌ أن أمرّ بوهمه لما اصطادني منه بكفّة حابل

ثم يتخلص لمدح أبي نبهان الخروصي فيقول:

وإنّ أبا نبهان للنّابه الذي تنبّه عنه منه بيض الفعائل
فيُفضحُ مهما جاد هملان وابلٍ ويُفصِح مهما قال سحبان وائل
وينصب أعلامًا من العلم عاملًا وأنّى رأيتم عالمًا غير عامل
فيُفضحُ مهما جاد هملان وابلٍ ويُفصِح مهما قال سحبان وائل
وينصب أعلامًا من العلم عاملًا وأنّى رأيتم عالمًا غير عامل

وبعد الإسهاب في الإطراء والثناء يختم أبياته ليصف قصيدته بأنها حلت بذكر صفات الممدوح، يقول:

ودونكها لاميّةً من أخي هوى بكم عنكمُ طول البقا غير مايل

(1) الكُرْسُف : القُطن. (ابن منظور م.، 1990م، صفحة كرسف)

قضينا على الأعدا بآياتها التي تخلّت سهامًا فوّقت في مقاتل
حلت مذ تحلّت من صفات مديحكم ولولاه أضحت وهي في قبح عاطل

أمّا قصيدة العبسي[1] في مدح جاعد الخروصي فقد جعل أوائل أبياتها مركبة على حروف الهجاء، ومنها:

أسنا الأحبّة أنت يا أسماء وأشمّ أنفٍ أنفُكِ الشمّاء
بُرّي بصبٍّ في البلابل مبتلى بهوى الكواعب والكعاب بلاء
تعبي بتذكار التي آتيتها من مهجتي ما تشتهي وتشاء
ثبتت تعيث تثبّتًا بأثيثها ويحثّ عن مثواي ثم ثراء
جالت جياد جمالها في مهجتي ومجالهنّ الجزع والجرعاء
حلّت محبّتها حشاي فحاولت حتفي بحربٍ زحفه استحلاء
خرجت بخارجة الخدود فخدّرت صخر الخليل بخالها الخنساء
دقّت ديار العهد جرّد صدورها عَدْوًا ودفّقت الدماء دماء
ذرني عذولي أستلذّ عذابها واعذل فعذلك لذّةٌ وذكاء
رقّت رضابًا فاسترقّني الرّشا وشرتني الريحانة الخضراء
سلبت بساعدها سوابغ سلوتي وسبتني العسّالة السمراء

(الخصيبي، 1994، صفحة 148 ج1)

يُلاحظ تكلّف الشاعر تكرار الحرف المستهلّ به البيت في جل كلمات البيت، وفي ذلك دلالة وتأكيد على تمكّن البديع وعدّه مرتكزًا للإبداع في ذلك العصر.

(1) هو راشد بن سعيد بن بُلَحْسن العبسي السيماوي الضرير نسبة إلى قرية سيما من أعمال قرية أزكي، وهو جيد الشعر حاذق ماهر، توفي سنة ألف ومائتين ونيف وعشرين للهجرة (البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، 1963، صفحة 625 ج2). (الخصيبي، 1994، صفحة 113 ج1)

وقد مثّل الشعر الإخواني وسيلة تواصل بين الشعراء والأدباء يتراسلون بالشعر على البعد، فهذا الشيخ أحمد بن محمد الأنصاري اليمني الشرواني[1] يمتدح السيد إنشاء الله خان[2] بالديار الهندية، بقصيدة بائية تقع في أربعة وعشرين بيتًا يستهلها بمقدمة غزلية - وصفها مؤلف الكتاب بالغرّاء - يخاطب فيها هندا الحبيبة فيكرر لفظ (حيث) خمس مرّات، ويتخلص في البيت السابع عشر ليمدح صديقه، فيقول:

فاتّبع يا صاح إن رمت الهدى ... مرشد الغاوي أخا الفضل الرحيب
من له وجّهت كلّي مادحًا ... لمعاليه على النظم الذهيب
عين إخوان الصفا قطْر الندى ... من علومٍ حازها مغني اللبيب

وبعد أن امتدحه بالحبر الذي لا ندّ له في العصر وبنسبه الهاشمي ينهي القصيدة مفتخرًا بنفسه وقصيدته:

تحفة وافتك يا شمس العلا ... من شهاب اليَمن الشهم الأديب
سجعها يسكر أرباب النهى ... ومعاني لفظها سحْرٌ مصيب

وقد أجابه إنشاء الله ببديع المنثور من مهمل الحروف، وفي هذا دلالة على أنّ الباعث لكتابة شعر الإخوانيّات إلى جانب التواصل ومدّ جسور الألفة استعراض القدرة على الكتابة الأدبية،

(1) هو أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري الشرواني، أديب يمني توفي سنة 1253هـ- 1837م. (الزركلي، 1992، صفحة 246 ج1)

(2) هو إنشاء الله بن ما شاء الله الحسيني، من الشعراء المفلقين باللغة الأردية، كما تلقى الثقافة العربية وبلغ فيها أعلى المراتب، توفي سنة 1235هـ. (الحضراوي، 1996، صفحة 105 ج 1)

وفي هذا الرد النثري دلالة على أن المدار على قدرة إتقان الصنعة البلاغية، يقول: «الحمد لمالك العالم وما سواه، واحد أحد لا إله إلا الله، والسلام على رسوله محمد، ووَلَد عَمِّه أسد الملك العلام، مع العساكر والأعلام، والصمصام، وآله الكرام، ودادهم أهم المرام، لأهل وداده مع الإكرام ...» (الحضراوي، 1996، صفحة 105 ج1)

وقد تكون القصائد الإخوانية متبادلة بين علية القوم، فهذا إمام اليمن محمد بن القاسم الحسني[1] يكتب للقاضي محمد بن إبراهيم السحولي[2] فيقول:

عجبًا ما للأخلّه ... أعرضوا من غير علّه
وتجافوا عن كئيبٍ ... هائم القلب مولّه
مستهامٍ عذّبته ... من غزال الرمل مقله
ذو قوامٍ مثل غصن الْـ ... ـبان قد حدّ برمله
ومحيّاً أورث الأنْـ ... ـجم والأقمار خجله
عبلة الساق رداحٌ ... دونها في الحسْن عبْله
غادةٌ عادتها للصبّ ... أن تكثر مطْله
جعلت هجر المعنّى ... في الهوى دينًا وملّه
حرّمت من وصله ما ... خالق الخلق أحلّه
وأحلّت قتله والله ... قد حرّم قتله

(1) هو الإمام محمد المؤيد بالله ابن الإمام القاسم بن محمد بن علي الحسني اليمني، كان إمامًا جليلًا، مفننًا في كثير من العلوم، قائمًا بأعباء الإمامة، اجتمعت اليمن كلها إليه، وأخرج الأتراك بأسرهم، مكث في الإمامة نحو سبع وعشرين سنة، توفي سنة 1054هـ. (المحبي، 1969، صفحة 122 ج4)

(2) هو القاضي محمد بن إبراهيم بن يحيى السحولي الصنعاني، أحد العلماء المبرزين والأدباء المجاهدين، كان خطيبًا بجامع صنعاء، توفي سنة 1109هـ. (الشوكاني م.، بدون، صفحة 96 ج2)

يـا تـرى في أيّ يـومٍ ... يصل المحبوب حبّله
وبـه في طيب عيشٍ ... يجمع الرحمن شمّله
وتـرى الـعـاذل فيه ... تاركًا في الحبّ عذله
ويعود الصبّ للمغـ ... ـهود من دون تعلّه
فَهُمُ قومٌ سراةٌ ... أريحيّون أجلّه
ولهم في القلب ودٌّ ... لا يروم الغير نقله
غير أنّ الدهر أبقى ... منهمُ يَبْلَهُ عقله
صيّر التشهير في وصْـ ... ـلهمُ المطلوب غفله
سدّ دون الضاحك السّعْـ ... ـد طريقًا منه سهّله
فتناسوا عهْد صبٍّ ... ذاهل اللبّ مدلّه
وجفوه فرسوم الْـ ... ـودّ منهم مضمحلّه
فمتى في الدهر نلقى ... شيخه بدر الأهلّه
علّه يشكو إليه ... سطوة الدهر وفعله
نجل إبراهيم عزّ الدّ ... ين محمود الجبلّه
أعظم الأخيار قيلًا ... أكرم الأحرار خلّه
أحسن الناس خصالًا ... قارب الأكياس مثله
وهو للطالب علمًا ... عَلَمٌ زاهٍ وقِبْله
يا جمال الدين من حا ... ز خصال الفضل جُمّله
هاك نظمًا من محبٍّ ... لا يرى غيرك أهله
أوجدته فكرةٌ قد ... كرّرتها أيُّ شُغْلَهْ
يرتجي منك قبولًا ... لنظامٍ جاء قَبْلَهْ
مُسبلاً من دونه سِتْـ ... ـرًا عن العيب وكِلَّهْ
دُمْتَ في أرغد عيشٍ ... راقيًا أعلى مَحَلَّهْ

يظهر في القصيدة المنحى الإخواني فبالرغم من أنّ قائلها إمام اليمن إلا أن روح الصداقة والزمالة العلمية ظاهرة في الأبيات. فأجابه السحولي بقوله:

سامحوا المملوك لِلّٰهْ ... واصفحوا عن كلّ زلّه
عفوكم عنّا دواءٌ ... نافعٌ من كلّ علّه
والرضا منكم زُلالٌ ... ناقِعٌ من كلّ غُلَّه
ووَلاكم لي أمانٌ ... ببراهين الأدلّه
حبّكم شرعي وديني ... وهو عندي خير ملّه
وهو لي خُلْقٌ قديمٌ ... وطباعٌ وجِبِلَّهْ
ولقد مازجَ رُوحي ... وسوادَ القلب حَلَّهْ
لا ولا وَلَّهنِي الحبُّ (م) بمن مثلِيَ وَلَّهْ
قمر الحسن وللحسْـ ... ـن بدورٌ وأهِلَّه
لو رآه البدر أعلا ... ه مَحَلًّا وأَجَلَّه
ضرب الحسن عليه ... قُبَّةً تزهو وكِلَّه
ورآه الحسن قد حا ... ز بديع الحسن كلّه
فوَحَى في الخدّ خوف الـ ... ـحسن حصّنتك بالله
يا لقومي في كثير الـ ... ـحسن حظّي ما أقلّه
يا رسولي قل له بالله (م) إن أحسنت قُلْ لَهْ
كي يُقضّي الصبّ عمرًا ... فعساهُ ولعلّه
إن يكن لا يرتجِي الوبْـ ... ـل من الوصل فطلّه
وعلى الحسن زكاةٌ ... وردت فيها أدلّه
وهو مسكينٌ فمنع الصرْ ... ف فيه من أَحَلَّه
لست أشكو الجور إلا ... للأجلّ ابن الأجلّه

مـن لـه كـثـرة أوصـا ... ف العـلا مـن غير عِلّه
من رقى في المجد والفخْـ ... ـر إلـى أعـلـى محـلّه
ونـضـا مـنـصـل عـزم ... مـرهـف الحـدّ وسـلّـه
وسـعـى في طلب العلْـ ... ـياء مـن غـيـر تَـعِـلَّـه
وسـمـا في نيله الفضْـ ... ـلَ إلـى أرفـع قُـلَّـه
مـا أحـلّ اللّه شخصًا ... في العـلا حيث أَحَـلَّـه
يـا سليل العـزّ يـا من ... ردّ عـاديـه المـدلّـه
وصـل المـلـوك وصْـلٌ ... مـنـكـم أعـلـى مـحـلّه
وكـسـاه بُـرْد فـخـرٍ ... زانـه بـين الأخـلّـه
عـقـد نـظـمٍ خلته ورْ ... دًا كساه الصبح طَلَّه
أو هـو الـدرّ تـهـادا ... ه الـغـوانـي لـلأكـلّـه
وتـودّ الـغـيـد لـو أنّ ... لـهـا مـنـه أشـلّـه
بل هو الفضل أدام اللّـ ... ـهُ لـلـعـالـم ظـلّـه
فـيـه إعـزازٌ لـقـدري ... ولـنـظـمـي فـيـه ذِلّـه
فـاقـبـلـوا منّـي جـوابًـا ... جـاء في ضـعـفٍ وقـلّـه
طـال تـقـصـيـرًا ولـكـن ... سـامـحـوا المـلـوك للّه

(المحبّي، 1969، صفحة 248 ج3)

يظهـر مـن قصيدتـي الإمـام والقاضـي أن الجـو العلمـي كان يسـود ويسـيطر علـى السـاحة الشـعرية إذ يبـرز الإطـراء بالعلميـة في القصيدتـين.

يجيب العلامة الشاعر أحمد بن مقبول بن عمر الأسدي[1] على رسالة كتبها إليه شيخين بن أبي الفتح الحكمي[2]، فيقول:

أتاني كتابٌ منك يا زاكي الأصل ... كمنظوم درٍّ راح يلعب بالعقل
وراحٌ غدا كرّم البلاغة أصلها ... فبورك من فرع تعالى على الأصل
وفي دنّ ثغر الطرس كان عصيرها ... وفي وسط كأس الأذن رشّف بالفعل
فما كان تأخير الجواب لِعلّةٍ ... ولكنّني أستتبع العلّ بالنهل
إلى الآن لم أصْحُ ولكنّ فكرتي ... تناست لنصّي ذا المزيّف من نقلي
وقلت لها إنّ الجواب فريضةٌ ... فقالت إذًا فانْظمّه فورًا بلا مهل
فقلت وهذا العقد في جيد جود من ... غدا جيده حقًّا بعقد البقا المحلي
وذاك وجيه الدين شيخي وسيّدي ... سليل أبي الفتح المسربل بالفضل
وأمّا الذي أهدى أقلّ عبيده ... إليه فشيءٌ ليس يحسب بالبذل
على خلقه المرضيّ ألفُ تحيّةٍ ... دوامًا جديد الدهر ليس له مبلي
فمن كان مملوكًا وأهدى لمالكٍ ... فما هو للشكر المؤمّل بالأهل
فما جاءكم إلا الذي أنت مالكٌ ... ولكنّه جزءٌ لفضلكم الكلّي
فلا زلت لي ركنًا ولا زلت ملحقًا ... لكم في حياتي ثم في موقف الفصل

(الحازمي، 2018، صفحة 191)

(1) هو أحمد بن مقبول بن عمر بن أبي بكر بن محمد الأسدي، كان ذا فصاحة وبلاغة، وقد تولى قضاء جازان وكان حسن السيرة في قضائه، وكانت وفاته بأبي عريش عام 962هـ/1554 . (الزركلي، 1992، صفحة 259 ج1)

(2) شيخين ابن أبي الفتح الحكمي، أحد علماء المخلاف السليماني في القرن العاشر الهجري، عالم فاضل، توفي سنة 967هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 191)

ويمتدح أحمد الأسدي الشيخ صديق بن علي الحكمي[1] فيقول:

يا بارقًا شوّقني برقه ... يلمع ما في لمعه تَبْطِيَهْ
بأرض جازان سرى معتمًا ... قد غشيت أنواره الأنديَه
أظهر منّي ما انطوى نشره ... من وجدي الكامن في قلبيَه
وكلّما رفرف في عارضي ... أجريت دمع العين في خدّيَه
وبتّ أحسو ماء وجدي ولم ... يرو غليلي من ظما مائيَه
لفقد أحبابٍ لنا قد مضوا ... عنّا ولم يرعوا ذمامًا ليَه
وغادروني هائمًا والهًا ... أرعى نجوم الليل في باليَه
وحسرةٍ تمتدّ طول المدى ... وحالةٍ واهيةٍ باليَه
وخلّفوني بعدما قد قضوا ... ختام وصلٍ لهم باديَه
واستعذبوا التعذيب في بعدهم ... وفارقوا حمّاهم المصْبيَه
فليتهم لما حووا مهجتي ... فكّوا بفضل منهمُ أسريَه
وليس يسلي القلب منهم سوى ... تجريد عزمي ماضي الأمضيَه
في مدح من تغدو طيور الهوى ... إليه خمصًا ما لها أغذيَه
وتنثني منه وقد نالها ... من بركاتٍ تملأ الأوعيَه

(الحازمي، 2018، صفحة 192)

وقد استأثرت المقدمة الغزلية بجل أبيات القصيدة ونال مدح الحكمي ثلاثة أبيات منها.

(1) ذكر حجاب الحازمي تردده في أن القصيدة قالها أحمد بن مقبول الأسدي المتوفى سنة 962هـ في صديق بن علي بن الدهل الحكمي المولود في 953هـ، وأحال إلى الدكتور عبد الله أبو داهش الذي يجزم بنسبتها لابن مقبول الحفيد. (الحازمي، 2018، صفحة 193)

ويجيب العلامة الشاعر أبو القاسم بن مهدي[1] (ت1061هـ) على كتاب للقاضي الناصر بن عبد الحفيظ[2]، بقصيدة تقع في أكثر من ثلاثين بيتًا منها قوله:

يُرى فيه خطٌّ لابن مقلة باهرٌ ... وجوهر لفظٍ يطرب العين والأذنا
إذا ما سمعنا أو نظرناه لحظةً ... طربنا ومن فرط السرور به ملنا
ففاح عبيرٌ حين فاح وعنبرٌ ... كأنّكم أمسستموه لكم ردنا
فقلت له أهلًا وسهلًا ومرحبًا ... بخير كتابٍ جاء من خيرة الأصنا
كريمٍ وسيمٍ محسنٍ متفضّلٍ ... إذا سُئل المعروف مَنَّ وما مَنَّ
وأقربهم ودًّا لنا ومحبّةً ... وألطفهم لينًا وأحسنهم يمنا

(الحازمي، 2018، صفحة 281)

ويمدح أحمد بن محمد الأنصاري الشرواني شاعرًا هنديًّا آخر اسمه قتيل الهندي[3] بقصيدة تقع عشرين بيتًا ذات مقدمة غزلية وأبيات حكمية يتخلص بها لإطراء الشاعر الذي يبدو أنه متفوّق في النثر والنظم، فالشرواني لم يذكر صفات غيرها، يقول:

(1) هو أبو القاسم بن مهدي الحكمي، من أعلام وشعراء المخلاف السليماني في القرن الحادي عشر الهجري، توفي سنة 1061هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 279)

(2) هو القاضي العلامة الناصر بن عبد الحفيظ بن عبد الله المهلا الشريف اليمني وزير يماني، من كبار فقهاء عصره، له مصنفات، وله نظم، توفي سنة 1081هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 280) (الزركلي، 1992، صفحة 348 ج7)

(3) هو الميرزا قتيل الشاعر الهندي، ولد ببندر لكنو، كان من أمراء الهند المشهورين، ثم لازم طريق التصوّف والمجاورة بمكة المكرّمة، توفي في أواخر سنة 1291هـ. (الحضراوي، 1996، صفحة 328 ج2)

ما ذاك إلا الشهم ربّ الحجى ومن له في العلم باعٌ طويل
كلامه المنثور سلساله أحلى من الماذيِّ والسلسبيل
ونظمه الباهر أبدى لنا فرائدًا[1] ليس لها من عديل
نعم هو الفرد الذي قد سما على ابن عمّار وفاق الخليل

(الحضراوي، 1996، صفحة 109 ج1)

ويجيب الشيخ حسن بن أحمد البهكلي اليمني[2] على قصيدة كتبها إليه، فيقول:

زلالًا سُقينا من معانيك أم ندى شممناه أم زهرًا من الروض أم ندّا
بلى ذاك نظمٌ جاء من خير ناظمٍ حُبينا به فاشكر لناظمه حمدا
همامٌ هو النظّام في سرد لفظه وأحمد منه في السباق إذا عدّا
حميد المساعي من سعى فرع جوده وصار له في كلّ مكرمةٍ أسدى
حكمت معانٍ أيّها الحَبْر لم ينل سواك ذراها حيث كنت لها فردا
وقلدتنا من نظمك الدرّ أسمطًا زهونا بها فخرًا وحزنا بها مجدا

(الحضراوي، 1996، صفحة 286 ج 1)

ويمتدح السيد محمد عبد الله أسعد المدني[3] عمر الداغستاني[4] بقوله:

(1) صُرفت للضرورة الشعريّة.

(2) هو حسن بن أحمد البهكلي اليمني، عالم وشاعر فاضل. مدح الشرواني سنة 1223هـ. (الحضراوي، 1996، صفحة 286 ج 1)

(3) هو محمد بن عبد الله أسعد، عالم فاضل، ولد في المدينة سنة 1088هـ، تولى إفتاء المدينة المنورة، توفي في المدينة سنة 1134هـ. (الداغستاني، 2009، صفحة 71)

(4) هو عمر بن عبد السلام الداغستاني المدني، أديب له نظم وموشحات، له كتاب تحفة الدهر في أعيان المدينة من أهل العصر، وكتاب اللآلئ الثمينة في أعيان شعراء المدينة، توفي بعد سنة 1201هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 50 ج5)

أشـــذى نـسـيـمٍ في سحـر حـاكـت روائـحـه الـزّهـر
مـن ظـبْـي حـسّـنٍ آنـسٍ أنـسـت مـحـاسـنـه تَـتَـرْ
رشـــأ رقـيـق خـصـره كـكـلامـه مـهـمـا نـثـر
ذو رقّـــةٍ مـن دونـهـا غَـنَـجُ الحـبـوش إذا خطر
كـم رمـت ألـثـم ثـغـره مـن فـوق أسـنـانٍ درر

وتستمر المقدمة الغزلية في خمسة عشر بيتًا ليتخلص بعدها لمدح الداغستاني في أربعة أبيات:

كـم أشـتـكـي لمـسـامـري ذاك الـسـراج الـمُـفـتـخـر
ربّ الـفـضـائـل مـن لـهُ في الـشـعـر نـظـمٌ معتبر
مـولـى الـنـجـابـة والـفـصـا حـة والـبـلاغـة إن شَـعَـر
دامـــت لـنـا أوقـــاتـــهُ في نـشْـأةٍ تجلو الكدر
مـا غـــرّدت وُرْق الـيـرا ع بمـدحـه بـين الـغـرر

(الداغستاني، 2009، صفحة 71)

ولا غرو أن يسهب الشاعر غزلًا في مقدمة قصيدته الإخوانية، فالغزل لازمة من لوازم شعر الإخوانيات، وهو ما سنتحدث عنه في موضعه، فهذا يحيى الأزهري[1] المدني يرسل إلى محمد سعيد حمّاد[2] متذكّرًا ليلة أنس سعيدة يقول:

فـلـلـه مـن لـيـلـةٍ أشـرقـت ببدر محيّا الذكي مصطفى

(1) هو يحيى بن أحمد بن يحيى الأزهري المدني، ولد بالمدينة سنة 1142هـ، باشر الخطابة والإمامة، توفي بالمدينة سنة 1172هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 68)

(2) هو محمد سعيد بن عبد الحفيظ حماد المدني الشهير بالسندي، الشيخ الفاضل الأديب الشاعر، ولد بالمدينة المنورة سنة 1118هـ، وتوفي بها سنة 1178هـ. (المرادي، 1988، صفحة 64 ج4)

وتغريد أطيار أوتاره ... على غصن عودٍ له لاهفا
وصوت الرباب بجمع الصحاب ... كصوت الهزار متى أسعفا
صفا وقتنا معْ كرامٍ هنا ... ك وأنسي بهم يستمدّ الوفا
وكأس التنادم ما بيننا ... يدار فيدني لقلبي الشفا
وما ثَمَّ إثمٌ ولكنّما ... سلاف الحديث لكي نرشفا
فأرجو من اللّه مولى العبا ... د يعيد ليالي الهنا والصفا

وأردف الأبيات بقطعة نثرية فيها اعتذار بأنه ليس من أهل ميدان الشعر، فأجابه محمد سعيد حمّاد بقوله:

بدا فأرى قدّه المترفا ... يحاكي غصين الربا الأهيفا
سقاه الحيا رونقًا فازدهى ... فأطلع بدْرًا جلا ما اختفى
حوى مرشفًا حلّ فيه الشفا ... لكنّه قطّ لن يرشفا
فحاولته أجتني ورده ... لأُشفيَ منّيَ قلبًا عفا
فقال ألا لا ولأجعلن ... لنبلي فؤادك مستهدفا
فقلت له يا حياة النفوس ... ويا فائقًا حاز كلّ الوفا
أمتْ وجديَ اليوم عفوًا ولا ... تفرح حسودي وكن منصفا
وإلا شكوتك مستصرخا ... بيحيى خطيب فنا المصطفى
إمام العلا من علا قدره ... إلى غايةٍ جلَّ أن توصفا
ومن قد تأثّل من دوْحةٍ ... سَمَتْ في سما المجد والاصطفا
يزيل العنا وينيل المنى ... بصحبته اليوم نوفي الصفا

(الداغستاني، 2009، صفحة 74)

ويرسل عمر الداغستاني للسيد زين العابدين[1] قصيدة سينية تقع في ثلاثين بيتًا تستغرق المقدّمة الغزلية منها سبعة عشر بيتًا، يقول:

سلب العقول بتِمّ حسْنٍ أنْفَس ... رشأٌ بسيف الحسن مردي الأنفس
رشقت لواحظه السهام بمهجتي ... أوَ ما ترى تلك الحواجب كالقسي
ماست معاطفه فخلّت قوامها ... غصنًا يفوق على القنا والمدعس
وغدا بلا شكٍّ بخنجر أنفه ... يفري الحشا يا صاح والقلب القسي

ثم يتخلص لمدح زين العابدين فيقول:

فظللت أحسو خندريس وصاله ... حتى أضاء الصبح حين تنفّس
كضياء مولانا أخي الفضل الذي ... بفضائل المجد المؤثّل مكتسي
زين الأفاضل بل فريدة عقدهم ... بل درّ تيجان العلا والقونس

ليتمّها معتذرًا كعادة شعراء الإخوانيات:

فاقبلْ نميقة مشغلٍ ما نمّقت ... لكن بكم تزهو بأفخر ملبس
لا زلت ترفل في برود معزّةٍ ... سامي الرّحاب مدى سجيس الأوجس

فأجابه الداغستاني بقصيدة تقع في سبعة وعشرين بيتًا، استغرقت مقدمتها الغزلية خمسة عشر بيتًا:

لاحت كبدر بان تحت الحندس ... وسرت بقدٍّ بالغدائر مكتسي

(1) هو زين العابدين بن محمد بن جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي، مؤرخ من أعيان المدينة المنورة له كتاب (كشف الحجب والستور عما وقع لأهل المدينة من أمير مكة سرور)، ولد بالمدينة سنة 1176هـ وتوفي بها سنة 1214هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 65 ج3) ، (الأنصاري، 1970، صفحة 89)

وتبسّمت عن عقد جوهر ثغرها وتنسّمت عن طيب عرفٍ أنفس
وجلت لنا من أوج أفق جبينها صبحًا تنفّس عن دجى متعسعس

إلى أن يتخلص للمدح بقوله:

وأبوح من سكري بسرٍّ قد سرى في سرّ سرّي للسريّ الأكيس
شمس المعارف بدر كلّ فضيلةٍ ربّ النهى الفهّامة المتفرّس
نجم العوارف روض كلّ لطافةٍ حاوي التحائف بل وخير مدرّس

ثم يختم القصيدة بالدعاء للداغستاني دون الاعتذار عن مستوى القصيدة كما فعل صاحبه.

(الداغستاني، 2009، صفحة 101)

وقد تجاوز شعراء العصر الحد في المبالغة خاصة في غرض المدح، وهي وإن كانت حلية بلاغية فالإكثار منها أخرجها عن حد القصد كشأن المحسنات البديعية والبيانية الأخرى التي جاوز الشعراء في حشدها الحدّ حتى أصبحت محط ازدراء واستهجان من قبل دارسي الأدب ونقاده.

وللشاعر علي بن الحسن بن محمد النعمي[1] مجيبًا على أبيات وجهها له بعض أصدقائه:

شهدنا جوابًا مستطابًا منمّقًا من البدر أو قرن الغزالة أشرقا
يفوق عقود الدرّ في جِيد غادةٍ ويفضح زهر الروض نورًا ورونقا

(1) هو العلامة الشاعر علي بن الحسن بن محمد النعمي الحسني، ولد سنة 984هـ، ولي قضاء صبيا، وله مؤلفات عديدة، توفي سنة 1067هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 350)

أتى يتهادى في غلائل حسنه ... كبدر تمامٍ في الدجى قد تألّقا
تلوح أسارير البلاغة والذكا ... به فله عنق المكارم أعنقا
سفحّن أهاضيب الوداد بطيّه ... فأصبح أملود المسرّات مورقا
ولا عيب فيه غير مدح امرئ غدا ... عن الباقيات الصالحات معوّقا
إذا استعرضته فكرةٌ أجوديّةٌ ... رأته من الزاد المبلّغ أملقا
توزّع بين الناس والحرص والهوى ... فأرعد في صنع المعاصي وأبرقا
أتى من أخي ودٍّ صحيحٍ مبرهنٍ ... شمائله أضحت من الندّ أعبقا
فيا من لسبّل المجد أصبح عامرًا ... ومن في صميم السبعة الغرّ معرقا

(الحازمي، 2018، صفحة 356)

ذكر العلامة مصطفى بن فتح اللّه الحموي[1] (ت1123هـ) ثم المكي في كتابه (فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر) أنه اجتمع في مدينة جدة بعلي بن الهادي المنسكي[2] من المخلاف السليماني وحصل بينهما مودة أكيدة ومراسلات عديدة، ومما كتبه إليه يستدعي منه إعارة القاموس قوله:

أيا عليّ الرضا ذا المجد والحسب ... وزاكي الخلق والأخلاق والنسب
وبعد لم يبق عندي الدهر من كتبٍ ... وما رأيت سوى مولاي من يجب
فابعث لعبدك قاموسًا يراجعه ... يا أيها السيد المولى على كثب

(1) هو مصطفى بن فتح اللّه الشافعي الحموي ثم المكّي، مؤرخ من أدباء عصره، أصله من حماه، له كتاب (فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر)، توفي في ذمار سنة 1123هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 238 ج 7)

(2) هو علي بن هادي المنسكي، أديب من أعلام المخلاف السليماني في القرن الحادي عشر الهجري، ذكر المحبي صاحب كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) أنه اجتمع به في مدينة جدّة عندما حجّ سنة 1081هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 366)

واسلم ودم راقيًا أوج السعادة يا فريد صَبْيَا وفخر السادة العرب

فأجابه المنسكي بقوله:

وافت صفاتك يا من ساد بالنسب يا مالكًا لزمام العلم والأدب
بك أصبحت طرق العلياء واضحةً من بعد أن درست في سائر الحقب
يا مصطفى الإسم والأخلاق من شهدت له الفضائل بالعليا من الرتب
سألت رقّ الولا ما أنت مالكه بل هو وما ملكت يمناه من أدب
في خدمة السيد العالي الجناب ومن حوى الفضائل من عجمٍ ومن عرب
فهاك بحر علومٍ قاذفٌ دررًا فغصّه واستخرج الشفّاف عن كثب
واعذر أخيّ رقيق اللفظ من خصرٍ ما قطّ عانى قريضًا منذ كان صبي

(الحازمي، 2018، صفحة 369)

ويذكر صاحب كتاب (النّفَس اليماني) أنّ حسين بن عبد الشكور المدني[1] وفد إلى مدينة زبيد، وقد اشتغل بالوعظ لأهلها، وأنه قد استجاز علماء البلد واستجازوا منه، ووقعت بينهم مذاكرات مفيدة ومشاعرات عديدة منها ما كتبه المدني إلى والد المصنف سليمان بن يحيى الأهدل[2]، وهي قصيدة تقع في أربعة وثلاثين بيتًا، منها:

مَن مسعفي في الحبّ من مسعدي من متحفي بالسؤل والمقصد

(1) هو الشيخ حسين بن عبد الشكور المدني، وفد إلى مدينة زبيد داعيًا ومعلّمًا، له إجازات علميّة مؤرخة ب 1194ه. (الأهدل، 2010، صفحة 128)

(2) هو العلامة سليمان بن يحيى بن عمر الأهدل الحسيني، محدّث اليمنيّة في عصره، ولد في زبيد سنة 1137هـ وتوفي بها سنة 1197هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 138 ج 3)

مـن مطـرفي في غربتـي بالمنـى ... مـن منعشـي منّي ومـن منجدي
من لي مجيرًا من صروف العنا ... مـن نـاصـري من صولـة المعتدي
مـن لـي مجيـزًا إن أفـهْ ناظمًـا ... إجـازة الـمُتْهِمِ للمنجـد
سـوى إمـام الوقـت مـن شـأنه ... جـلّ عـن التعريـف للمنشـد
أبـو العـلا نجـل الهـدى والتقـى ... خـدن النـدا للخـال والمجتـدي
العالـم العلامـة المرتقـي ... جمعًـا يفوقـان علـى الفرقـد
إكليـل تـاج المجـد بالجـد بـل ... واسـطةٌ في العقـد بالأحمـد
راوي حديـث العلـم عـن والـدٍ ... أعظـمْ بـه مـن والـدٍ مسـند
عـن جـدّه عـن سـيّدٍ عـن أبٍ ... عـن سـيدٍ يرويـه عـن سـيد
حتـى يـوافي غايـة المرتقـى الّـ ... ـمبعوث للأحمـر والأسـود
حتـى يـوافي الهـادي إلـى آلـه ... بالـود مـن هـادٍ إلـى مرشـد

فيجيبه الأهدل بقصيدة تقع في واحد وثلاثين بيتًا، منها:

يا حادي الأظعان كن مسعدي ... إلـى بلـوغ السـؤل والمقصـد
واقطـع بنا مَهْمه قفر الجفا ... واطـوِ لنا البيد من الفدفد
حتـى تـوافي حضـرةً قدّسـت ... في مشـهدٍ يـا لـك من مشهد
فنفحة الرحمن قد أسعفت ... ببغيـة الـمُـتْـهـم والمنـجـد
مـن سـاقـه اللّه لـنـا تحـفـةً ... سـيـاق بـرء الـعـين لـلأرمـد
سـقـيًـا ورعـيًـا لـزمـانٍ به ... إسـعـافـنـا بـالـعـارف الأوحـد
أعني حسين الحبر من كاد أن ... يـذيـب بـالـوعـظ قـوى الجلمد

(الأهدل، 2010، صفحة 128)

وكتب حسين بن عبد الشكور المدني إلى العلامة عبد الله بن عمر الخليل[1] قصيدة تقع في خمسة وعشرين بيتًا، منها:

يا عفيفًا كن بالإله عفيفًا ... عن سواه وسرّ إليه خفيفا
وارتقب واقترب بحسن سجودٍ ... تحْوِ سرًّا من القريب لطيفا
فهو يدعوك للقاء ليحبو ... ك حبورًا في العالمين منيفا
حزت منه إضافةً منه فاشكر ... فضل مولى ما زلت منه شريفا
قم بشكرٍ فيه انطوى كلّ سكرٍ ... فاسْمهُ جامعٌ بقيت عفيفا
كلّ ما فيه طالبٌ منك شكرًا ... كلّ حينٍ فهب لكلٍّ صنوفا
وابق واسلم في منهج الشكر ترقى ... لمقامٍ تعلو به تشريفا
وأفدني لا زلت خير مفيدٍ ... عالمًا عاملًا حكيمًا منيفا
وأجزني معمّمًا وأجزني ... بدعاءٍ مؤمّنًا لي المخيفا
هاتها لي إجازةً منك تروي ... خبرًا فاق في العلا تعريفا
هاتها لي حقيقةً في مجازٍ ... حاز فيه من في الهدى لن يحيفا
مجملاتٍ تفصيلها ساق نحوي ... كلماتٍ شاقت وراقت حروفا
من علومٍ منطوقةٍ وفهومٍ ... أحسنت من كمالك التأليفا

(الأهدل، 2010، صفحة 131)

فأجابه الخليل بقصيدة تقع في اثنين وخمسين بيتًا، منها:

يا إمامًا قد حاز قدْرًا منيفا ... وحوى المجد تالدًا وطريفا
جاءني من سنا علاك قريضٌ ... زادني حسن لفظه تشريفا
من معانٍ بديعةٍ وبيانٍ ... نحوه زاد منطقي تصريفا

(1) هو عبد الله بن عمر الخليل، كان متبحّرًا في العلوم النقليّة سيما الأدبية والعقلية كالحساب والجبر والمقابلة والهندسة، له إجازة بتاريخ 1190ه. (الأهدل، 2010، صفحة 38)

فلعمري لقد نصحت بصدْقٍ فلك الشكر ما بقيت رؤوفا
تمنح الخلق بالمعارف قصدًا لثواب الإله معنى لطيفا
قسمًا بالذي أمات لقد صرْ ت حياة القلوب برًّا عفيفا
فابق واسلم ودم تفيد المعاني من معاليك مشتيًا ومصيفا
إنْ ترد منّي الإجازة حسبي إنني أحقر الورى تعريفا
لكن السرّ ربّما قاد شخصًا لحقيرٍ كيما يكون منيفا

(الأهدل، 2010، صفحة 131)

ويبالغ الشاعر محمد خليل السمرجي الجداوي[1] أيما مبالغة في إطرائه أصدقائه، ويحاول أن يحشد في قصيدته الإخوانية كمًّا هائلًا من الفضائل والصفات التي يوفّرها معجم المديح العربي. يقول:

عينُ الكمال كمالُه إنسانُه إنسانُ عينِ المجدِ عينُ سمائه
نَدْبٌ لَوَ انَّ الفخر جاراه إلى أمدٍ لقصّر عن مدى علوائه
فهمٌ يسابق للمعاني طرفَه فيكاد يسبقه إلى إملائه
تفد القوافي إن رمت أقلامه شأوًا قوافي سيرها وحدائه
طبْعٌ لو اَنّ الكرْم عاصر خلْقَه لم ينزل التحريم في صهبائه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27 / ب)

(1) هو الشاعر محمد بن خليل السمرجي الجداوي نسبة إلى جدة (ت: 1181هـ/ 1767م)، وصفه جامع ديوانه بقوله: «إنه نظم في كل الفنون، ذكره البيطار في كتابه حلية البشر في معرض ترجمته للقاضي محمد بن أحمد مشحم، حيث أورد قصيدة للقاضي مجيبًا بها السمرجي، يصفه فيها بالفاضل الأديب وينسبه إلى جدة. له ديوان شعر مخطوط في مكتبة عارف حكمت. (البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، 1963، صفحة 1208 ج3)

وكذلك نجد مديحه وإطراءه لأحمد رضوان[1]:

وزيـرًا كسـا ثـوبَ الـوزارة رونقًـا ... وطرّزَ ثوبَ الملك بالفخر والمجد
فأصبـح عطفُ الرمـح يرقص فرحةً ... لدولته والسيفُ يضحك في الغمد
تبسّـمت الدنيـا لنـا بوجـوده ... فما جعفر؟ ما البرمكيّ؟ وما المهدي؟
فيـا أحمد العليـا وأغنى كرامها ... وأعلمهم في الأمر بالحَلِّ والعقد
لأنت عروسُ الخيل يوم طرادها ... تفرِّج عمّن قال يا أزمة اشتدي
وأنـت يمـينُ الملـك إن مـدّ زنـده ... لبطشٍ وهل بطشُ اليمين بلا زند
ويا من غدا بالجود والسيف منجدًا ... لمن جاء يستدعي نداه ويستعدي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 36 /ب)

وكذلك مديحه للشيخ صالح الحبّاب[2]:

عمادُ المعالي بل عمودُ صباحها ... ومـن بالمعانـي والعلـوم امتيـازه
وبحبوحةُ الفضل الذي بَهَرَ العلى ... بخطِّـةِ فخـرٍ لا يـرام اجتيـازه
أراش جناح الحق من بعدما عفا ... وأكبـر دهـرًا في النفوس ابتزازه
إذا ما قفا أشقى المريد انتهاره ... وأشقى مريد الحقّ منّا انتهازه
وسبّاق غاياتٍ بـه عـرف البهـا ... وألقـى إليـه كنـزه وركازه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 39 / ب)

والسـمرجي يركـز في امتداحـه لصديقـه- كمـا هـو حـال شـعر الإخوانيـات- علـى الامتـداح بالعلميـة والشـاعرية والكـرم وشـرف النسـب وعلـوّ المرتبـة، فنجـده في قصيـدة إخوانيـة يوجههـا للشـاعر

(1) لم أجد ترجمة له.
(2) لم أعثر له على ترجمة.

المدنـي جعفـر البيتـي[1] يقـول:

فـات الشـموس مكانـه فلـوَ انّـه ... رام الهبـوط لـكان مهبطـه ارتقـا
قـومٌ هـم الدنيـا فـإن ولّـوا فـلا ... إشكال في فضل الفناء على البقا
لبسـوا جلابيـب الجلالة واغتدوا ... درّ الرسـالة مـا ألـذّ وأعبقـا
أَوَ ليس منهم جعفـرُ بـن محمّدٍ ... الطاهـر الجيـب الأغـرّ المنتقـى
مـن لا يبـارى في المقـال تبحّـرًا ... مـن لا يجـارى في النـوال تدفّقـا
أمـا العلـوم فليس أعلم منـه في ... علمـاء أقطـار البسـيطة مطلقـا
هـذا الـذي قـد صحّ عنـه بأنـه ... سـبق الفحـول محقّقًـا ومدققـا

(السمرجي، مخطوط، صفحة 42 / أ)

وأسـلوب الإطـراء والتبجيـل الـذي انتهجـه الشـاعر يحـاول مـن خلالـه التأثيـر في المتلقي/الصديـق الموجهـة إليـه القصيـدة في المقـام الأول، والتأثيـر في المتلقـي عمومًـا لإثبـات تمكّنه من الأدوات الشـعرية.

يمتـدح الشـاعر المدنـي يوسـف بـن محمـد القدامـي[2] المعـروف بابـن المبيّـض الشـيخ عبـد الغنـي النابلسـي يهنئـه بعيـد الفطـر، وذلـك عندمـا قـدم النابلسـي إلـى المدينـة المنورة عـام 1105هـ-1692م، بقصيدة تقـع في اثنـين وثلاثـين بيتًـا يسـتهلها بمقدمـة فيهـا شـكوى مـن التقـدم في العمـر وقـد فـارق حيـاة اللهـو والغـزل وفارقتـه، ليجعـل العِـوض في ملاقـاة الشـيخ النابلسـي ويسـتطرد في مدحـه فيقـول:

(1) هـو جعفـر بـن محمـد باعلـوي البيتـي المدنـي، شـاعر غزيـر العلـم بـالأدب والأخبـار، ولـد سـنة 1110هـ وتـوفي بالمدينـة سـنة 1182هـ، أبـرز شـعراء المدينـة في القـرن الثانـي عشـر الهجـري. (السـميري، 2017) (الزركلـي، 1992، صفحـة 129 ج 2)

(2) هـو الشـاعر يوسـف بـن محمـد القدامـي الشـهير بابـن المبيّـض، أصلـه مـن دمشـق الشـام ثـم سـكن المدينـة. (النابلسـي، 1998، صفحـة 193 ج 3)

إنّ الـذي ضـنّ الزمـان بـزوْرةٍ ... منـه حبـاك بـه زمـانٌ جِيـدُ
أعنـي بـه عبـد الغنـيّ ومـن غـدا ... فـوق السـماك مقامـه محمـود
هـادي الهداة بفضله العلم الذي ... فضَـلَ الأمـام بيانـهُ المشـهود
رب المعالـي والمآثـر كلّهـا ... وأخو الفضائل ليس عنه محيد
عين الوجود فما يرى من فضله ... شَـبَهٌ لعمـري وهـو فيـه وحيـد
إن رمْـت حـلّ المشـكلات ببابـه ... لُـذْ صـاح تظفـر بالمنـى وتزيـد
وافتك فاقبـل مـن ثنـاي بديعـةً ... تبقـى مـع الأيـام وهـي شـرود
يـا مـن لديك المكرمـات جميعها ... وعليـه كلّ العالمـين وفـود
دم حشْـو برديك الفضائل جمّةً ... وبـك الحسـود معـذّبٌ مفـؤود
واسلمْ فلا أبقى الردى لك كاشحًا ... أبـدًا لأنـك في الزمـان فريـد

(النابلسي، 1998، صفحة 193 ج 3)

يذكر الداغستاني في كتابه (اللآلئ الثمينة) أبياتًا من قصيدة لمصطفى الشعاب[1] يمتدح بها الشاعر جعفر البيتي، وقد مزج فيها الشاعر بين الإخواني والغزلي، يقول:

الصـبّ أدرى يـا عـذول بحالـه ... لِـمَ لا عذلت الحبّ عن ترحاله
فالجفن قد أذرى عقيق عيونه ... كـم لامـعٍ مـن برْقـه بمحالـه
عـزّ الوصـال علـيّ حتّـى أننـي ... أرجـو السـهاد وسـيلةً لخيالـه
بـاللّه دعنـي يـا عـذول ولوعتـي ... وتولّهـي وتشـوّقي لوصالـه
هل أنت تدري ما الغرام وما الهوى ... الحـبّ صعـبٌ قد غـدا برجالـه
سـر يـا عـذول وخلّنـي بمتيّمـي ... إن كنـت لا تـدري الهـوى بمآلـه

(1) هـو مصطفى بـن أحمـد بـن محمـد الشـعّاب الرومـي المدنـي شـغل وظائـف حكومية في المدينـة المنـورة، توفي سـنة 1159هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 313)

فَوَمَنْ أحبّ لأعصينّ عواذلي ... في حبّه وعيونه ودلاله
ولأصبرنّ لصدّه ولبعده ... ولهجره ولفتكه بنصاله
يا قلب صبرًا للعذول وإن جنى ... عذله أو زاد في أقواله
ما الحبّ إلا بالعذول وبالنوى ... لا تسأمن يا قلب من عذّاله
ما كلّ من ذاق الهوى يدري الهوى ... أو كلّ من يرجوه من نوّاله
كم من خميس تصبّرٍ جمّعْتُه ... فدهاه جيش الهجر من أهواله
عزّ القريض عليّ في مدح الذي ... حاز السِّماك بقوله وفعاله
ماذا أقول إذا أردت مديحه ... شطّ المزار ولست من وصّاله

(الداغستاني، 2009، صفحة 286)

ويمدح عبد الباقي الشعاب[1] كذلك الشاعرَ جعفر البيتي بقوله:

عصاني القلب بعد الظاعنينا ... وأسلمني وكنت به ضنينا
وفارقني فأرّقني وأمسى ... شعاري أنني أبدي الحنينا
لحى اللّه الفؤاد أطاع سعدى ... ولم يرع مؤانستي سنينا
ألا يا أيّهذا القلب هلّا ... تعرّفت الهوى علمًا يقينا
ألم تعلم بشرح حديث قبسٍ ... ولم يبلغك خطب الأوّلينا
فؤادي الحبُّ مهلكةٌ ومظمى ... فأنّى ترتوي ماءً معينا
فكم أودى وفلّ شبا أناسٍ ... وكم أضنى القرون السابقينا
وكم قد ذلّ قبلك من أسودٍ ... تولّاهم فلم يجدوا معينا
تكاد تهابهم أسد الفيافي ... وتخشاهم فتزتبن العرينا

(1) هو عبد الباقي بن أحمد بن محمد الشعّاب الرومي المدني، كان متميزًا في الكتابة وضبط الحساب، شغل وظائف حكومية في المدينة المنورة، توفي سنة 1159هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 313)

أَفِقْ يا قلب من وَلَهٍ فإنّي وجدت أخا الهوى صبًّا حزينا
تجاذبه يد الأشواق حتّى تثير بقلبه الداء الدفينا
فمذ أصغى الفؤاد إلى مقالي وحقّقَ سابقات السابقينا
صحا من سكر لوعته وأضحى ينضّد في الملا عقدًا ثمينا
بمدح السيّد السند المرجّى سليل رسول ربّ العالمينا
أبي العزمات جعفر من تبدّى يشيّد في العلا مجدًا رصينا

(الداغستاني، 2009، صفحة 288)

ب - الاشتياق:

بما أنّ شِعْرَ الإخوانيات قائمٌ على تبادل القصائد المكتنزة حبًّا وولاء للصديق، فلا غرو أن تجد الشوق حاضرًا بين ثنايا أبيات هذه القصائد.

كتب العلامة الشاعر حسن بن علي بن حفظ اللّٰه النعمي[1] متشوّقًا إلى القاضي الحسين بن الناصر المهلا الشريف[2] منها:

لأنت لمدلهمّ الأمر بدرٌ يضيء وشمس معرفةٍ وبحر
وطود مكارمٍ وسبيل حقٍّ لليل دجى من الشبهات فجر
ونور هدى لمن يعروه جهلٌ ويمّ ندى لمن وافاه فقر

(1) هو حسن بن علي بن حفظ اللّٰه النعمي، ولد بالدهنا من أعمال صبيا بالمخلاف السليماني سنة 1029هـ، شاعر برع في العلوم الشرعية والمحاضرات الأدبية، توفي سنة 1079هـ. (المحبّي، 1969، صفحة 421 ج 3) (النعمي، 2017، صفحة 100 ج3)

(2) هو الحسين بن الناصر بن عبد الحفيظ المهلا الشريف اليماني، عالم كبير من علماء الزيديّة، أديب وشاعر، توفي سنة 1111هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 315)

وفضلك شاع في العلماء حتى تـــداول ذكـــره شـــامٌ ومـصـر
بـيـوت عـلاك شـامـخـةٌ طـوالٌ وروض هـــواك نـاضـره يسرّ
وفضلك جاءني فاهتزّ عطفٌ لـه منّـي وطـاب بـذاك صدر

(الحازمي، 2018، صفحة 315)

ويكتب النعمي كذلك إلى المهلا الشريف متشوقًا:

منتظر القلب متى وصلكم فـحـالـنـا شـقّ بـه الانـتـظـار
والـشـوق منّا لـم يـزل صاليًا جـوانـح الـقـلـب بـجـمـرٍ ونـار
وربـعـنـا تـهـتـزّ أكـنـافـه شـوقًا إليكم يا خيار الخيار
لا زلـتـمُ لـلـحـقّ قـوّامـةً وفي المعـالـي قـادةً والـفـخـار
وقد جعلت الناصر المرتضى أبـاك إذ ذاك الصفيّ النضار
معتصمًا من هجركم سابقًا وملـجـأً مـن مثـلـه مستجار

(الحازمي، 2018، صفحة 316)

وكتب العلامة الشاعر عبد العزيز بن محمد النعمان الضمدي[1] إلى السيد أحمد بن صلاح الشريف[2] متشوّقًا:

إنّي من الوجد والتبريح في قلق وناظري من غزير الشوق في غرق
شـوقًا لأهـل ودادٍ مـا ذكرتُهـمُ إلا شـرقت بريقي غاية الشرق
حملت من حبّهم ما لو تحمّله جبال رضوى على التحقيق لم تطق

(1) هو عبد العزيز بن محمد النعمان الضمدي، ولد سنة 1013هـ، عالم شاعر، توفي سنة 1078هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 327)

(2) هو أحمد بن محمد بن صلاح الشريف، ولد سنة 975هـ، من أعيان أصحاب إمام اليمن الإمام القاسم، كان فصيحا بليغا، له مؤلفات كثيرة وشعر، توفي سنة 1055هـ. (الحازمي، 2018، صفحة 333)

أهواهـمُ والهـوى عـذبٌ لذائقـه ... فاطْعمْه تلقَ الذي استحليه وذُق
تـاللّه لا ملـت قلبًـا عـن محبّتكم ... يومًا ولو لم تدع منهم سوى رمقي
ولـي إليهـم حنين السـقْب أفرده ... عن أمّه السوم في محلولك الغسق
يـا عاذلـي فيهـمُ دعنـي مطاولـةً ... فإنّ عذلك لي من أعظم الحمق
واستعمل العيس في البيداء طاويةً ... صحْفَ الفلا بسريع الوخد والعنق
يمّم بهم ساحة السادات في شرفٍ ... أعني صفّي الهدى والدين خير تقي
للّه مـن سـيّدٍ قـد نـال مرتبـةً ... فاقت علينـا بـلا ريبٍ ولـم تفـق
يا أحمد بن صلاحٍ أنت في شرفٍ ... أعلى وفي الشرف الأعلى لذي حنق
فخصّ لي الناصر المشهور من شمخت ... به الفضائل في مجدٍ بذاك وقي
كذاك عبد الحفيظ البحر من ظهرت ... له المكارم مثل الشمس في الأفق
أسـنى السـلام وأسـناه وألطفـه ... يحـفّ من فضله كالعارض الغدق

(الحازمي، 2018، صفحة 333)

أورد المقحفي[1] في كتابه (إتحاف الأحباب) أبياتًا لإبراهيم بن محمد بن الحسين[2] متشوّقًا إلى زيارة المقحفي لشبام:

إن تسلّى مَنْ على النجم رقى ... عـن شبـامٍ فهي تشكو الأرقـا
وعيون النرجس الغضّ غدت ... مـذ تنـاءى شـاخصـاتٍ حدقا
وغـصـون البـان مـذ بـان رمت ... نورها في الطرق لمّا أشرقا

(1) هو العلامة أحمد بن محمد بن عبد الهادي الحبابي الشبامي المقحفي، نسبة إلى شبام كوكبان من أعمال اليمن، المعروف بابن قاطن، عالم أديب، وهو قاض يمني عالم بالتراجم والأسانيد، ولد سنة 1118هـ، وتوفي في صنعاء سنة 1199هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 244 ج1) (المقحفي، 2008، صفحة 19)

(2) هو إبراهيم بن محمد بن الحسين بن عبد القادر، ترجم له المقحفي في كتابه إتحاف الأحباب، وذكر أن بينهما صداقة وأنه أديب المحاضرة، لطيف الطباع، عالي المروءة. (المقحفي، 2008، صفحة 109)

شـرقـت عـيـنـا شـبـام بـعـده ... لا عـجـيـب فـهـو بـدرٌ أشـرقـا
وبـرود الـروض شـقّـت حـزنـا ... للنوى والغصن ألقى الورقا
عَـلِـمَ الـوُرّق قـديمـا فـقـده ... فـغـدا الـنـوح لـهـا متّسقا
لـغـصـون الـروض مـيـلٌ نحوه ... فـلـمـاذا مـال عـنـهـا حَـنَـقـا
قـد غـدت قـائـمـةً قـامـاتـهـا ... نـاظـراتٍ لـلـقـاه الـطـرقـا
لـمـواطـئ قـدمـيـه فـرشـت ... أعـين الـنـوّار منها استبرقا
فسلاه هل سلا الشعب وقد ... بـان عـنـه وسـلا بـان الـنـقـا
لا يـروّيـهـا الـنـوى مـن بُـعْـدِكم ... فـتـدارك بـالـتـلاقـي رمـقـا
هـل سلتكم نـزهـةً ينسى بها ... ولـهـا أحـبـابـهـا مـن عـشَـقـا
أن نـسـيـتـم درّ نـظـمٍ لـكـمُ ... زادنـي حـبّ شـبـامٍ أرقـا
كـلّ نـظـمٍ لـكـمُ راقٍ سـوى ... يـا أخـلائـي لـقـد عـزّ اللقا
عـزّ أي مـا ذلّ يـا عـزّ ومـا ... عـزّ أي قـلّ فـمـا قـلّ لقا
فـكـلام الـقـوم في بـاطـنـه ... حِـكَـمٌ ظاهرها الشيء اللُّقَى

وقد شكك المقحفي في أنّ إبراهيم هو قائل الأبيات بقوله: « وعهدي به أنه لا يقول الشعر فلعلها قيلت على لسانه». (المقحفي، 2008، صفحة 110)

كتب جعفر الخطي إلى أخيه عبد القاهر بن عبد الرؤوف[1] وهو يومئذ بالقطيف وبعث بها إليه بالبحرين يتشوّق إليه بقصيدة تقع في ستة وثلاثين بيتًا، وذلك سنة 1012هـ:

يـا نسيم الشمال أدّ رسـالا ... تـي وبـلّـغ تحـيّـتـي وسـلامـي

(1) هو عبد القاهر بن عبد الرؤوف بن حسين الحسيني الجدحفصي، ذكر عدنان العوامي محقّق ديوان الخطي أنه قاضي القضاة ولم يعثر له على ترجمة. (الخطّي، 2005، صفحة 194 ج 1)

واحتقب عبء ما أبثّك من فرّ ... ط اشتياقٍ ولوعةٍ وغرام
لفتى هاشمٍ أخي السؤدد العوّا ... د ربّ الهبات والإنعام
إنّ دهرًا قضى ببعدي عن نا ... ديه أولى مقصّرٍ بملام
وحشًا ألهب الفراق حواشي ... ها لأحرى حشًا ببلّ الأوام
ومحبًّا عانى الفراق ولم يقْـ ... ـض لأقوى امرئٍ على الآلام
أشخصتني عنه النوى بعد ما طا ... ل ثوائي بجوّه ومقامي
زحزحتني عن غابه والعفرنى[1] ... ذُلُّه في مُزايل الآجام
خرطتني من سلكه ويتيما ... ت اللآلي جمالها بالنظام
حلأتني عن ورده فاقض بالحقّـ ... ـف لملقى دون الشريعة ظامي
وصلتني بغيره وأخو الصحّـ ... ـة يدري ما قدّرها في السقام
يا أخا هاشم بن عبد مناف ... دعوة من أخي رجالٍ كرام
أيّ غبنٍ تراه لي غير مكثي ... بين قومٍ لا يفقهون كلامي
ما مقامي فيهم وحاشاك إلا ... كمقام اليقظان بين النيام
تجتلي العين منهمُ صور الأنـ ... ـس وهمٌ من هوامل الأنعام
ليت أنّي بدّلتهم وهم البيـ ... ـض لسامٍ بالسود من نسل حام
من غبيٍّ لا يملك الفرق في ما ... بين وسطى يديه والإبهام
ولئيمٍ واهي المروءة لا يفـ ... ـرق بين الإكرام والإيلام
غير أنّ السراة من هاشم الغرّ ... رعوا حرمتي وحاطوا ذمامي

(الخطّي، 2005، صفحة 194 ج 1)

وتظهر الأبيات مدى معاناة الخطّي من أبناء زمانه ولعل ذلك يجسّد غربة هؤلاء الشعراء العلماء، مما يجعل الشعر الإخواني متنفّسهم الوحيد الذي يستوعب نفثات صدورهم ومكنونات خواطرهم.

(1) الغفرنى: الأسد. (ابن منظور م.، 1990م، صفحة عفر)

وكتب الأديب أحمد بن محسن الزبيدي اليمني[1] إلى القاضي محمد بن أحمد بن مشحم[2]، متشوّقًا:

مضى الدهر والشوق المبرّح لم يزل ... يحثّ ولم أبلغْ مناي ولا قصدي
ومرّت دهورٌ في لعلّ وفي عسى ... ولم تنتج الأقدار من ذاك ما يجدي
فهل حيلةٌ للوصل يا غاية المنى ... تبلّغ ما أهوى وتنجز لي وعدي
فإن تعلموا من ذاك شيئًا فأرشدوا ... فإنّيَ مستفتٍ لعلمك مستهدي
عليكم سلامٌ من أخي لوعةٍ له ... إلى وجهك الوضّاح شوقٌ بلا حدّ
ودم في نعيمٍ لا يشاب بنقمةٍ ... وصار لك الدهر المعاند كالعبد

(الحضراوي، 1996، صفحة 112 ج1)

ويزور عمر الداغستاني الشيخ عبد القادر طاهر[3] فلا يجده في منزله فيكتب له:

جئنا إلى سوحكم نرجو نفوز بكم ... ونمتلي بالتلاقي معْكمُ فرحا
فلم نجدْكمْ ولو أن كنتمُ أبدًا ... في خاطرٍ لم يزل بالذكر منشرحا
وذاك من حظّنا المقصور ليت لنا ... حظًّا كما لكمُ يدني لنا المرحا

فكتب الشيخ عبد القادر مجيبًا:

لمّا أتينا وجدْنا في منازلنا ... آثار من يتلقّى الصّحب بالمُلح

(1) هو أحمد بن محسن الزبيدي اليمني، ولد ببندر زبيد سنة عشر وبضع سنين ومائتين وألف من الهجرة، أديب فاضل، توفي سنة نيف وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة. (الحضراوي، 1996، صفحة 111 ج 1)

(2) هو محمد بن أحمد بن جار الله مشحم، فقيه يماني من أهل صعدة، له نظم جيّد، ولي القضاء والخطابة في بعض مدن اليمن، توفي بصنعاء سنة 1181هـ. (الشوكاني م.، بدون، صفحة 102 ج2)

(3) ترجم له الداغستاني في كتابه اللآلئ الثمينة في أعيان شعراء المدينة، ونعته بالشيخ عبد القادر طاهر. (الداغستاني، 2009، صفحة 298)

قد صار في القلب وجدٌ لا يكاد له ... وصفٌ من الشوق أنشاه شجى الفرح
قد حفّنا السعد مذ وافيت مجلسنا ... سراج بهجتنا لا زلت في مرح

(الداغستاني، 2009، صفحة 299)

ويصرّح السمرجي في قصيدة يوجهها لأحمد رضوان بشوقه، حيث يقول:

فأمسيت لا الذكرى تعيد الذي مضى ... ولا كَبِدي الحرّى تفيق من الوجد
وكنت خليًا فاستفزّني الهوى ... بما زادني ذكراه وقْدًا على وقْد

والاشتياق الحميمي من لدن الشاعر يجسّد رغبته في موافاة الجماعة، والخروج من العزلة التي قد تمر بالشاعر في محيطه لعدم مشاكلة من حوله، وهو أسلوب شعري ينتهجه الشاعر للخروج من الذاتية والانفرادية إلى رحابة الجماعة التي يرى الشاعر انسجامه معها. يقول:

ويا ليتني كفّرت عن عهدي الذي ... حرمت به كأس الصفا من بني ودّي
وقد كنت سيّالًا بطبعي فما الذي ... دهاني إلى أن صرت كالحجر الصلد
فوا أسفي إن لم ترقّ طبائعي ... وإن لم أراعيهم[1] على الغيّ والرشد
وأرفا الذي شقّيت[2] معتذرًا ولا ... أشقّ على صحبي وأَلْحَمُ ما أسدي
فإن هبطوا غورًا ففي الغور منزلٌ ... وإن صعدوا نجدًا حللت ربا نجد
وماذا على مثلي وهم خير ما أرى ... ودادًا إذا ما كان ودّهم ودّي

(1) الصواب: شققت، فشقّيت مستخدم في اللهجة المحكية الدارجة، ولعل سلامة الوزن اضطرت الشاعر لذلك.

(2) الصواب: شققت، فشقّيت مستخدم في اللهجة المحكية الدارجة، ولعل سلامة الوزن اضطرت الشاعر لذلك.

وكما أن الفرد يخرج من عزلته الذاتية ليكوّن لحمة مع الآخر/ الآخرين نجد الجماعة تنسج لحمتها حول قطب واحد تؤهله صفاته الجاذبة وأريحيته ليكون بؤرة هذا التكتل الذي يتحوّل بسبب هذا التناغم والانسجام إلى جسد واحد، يقول بعد الأبيات السابقة:

على أننا نأوي جميعًا وننتحي إلى واحدٍ كالألف في رتبة العدّ

(السمرجي، مخطوط، صفحة 36 ب)

ويقدّم السمرجي لقصيدة إخوانية يصف فيها اشتياقه لصديق بحديث إخواني أقرب للشعر بل ربما تفوّق على بعضه، يقول: «ومما قلتُه مستدعيًا لخِدْنٍ وشقيقٍ هو لروضة الأدب شفيق، في روضٍ تلفَّعَ بِبَرَدِ غَيْمٍ رفيق، وابتسم زهرُه عن درٍّ طلٍّ أنيق، وتَقَنْطرَ شاذروانُه على جسْرِ الأمواه، واغتدتْ أنابيبه فاغرةَ الأفواه، والشمس تارة تبدو من حُلل السحاب كالمرآة في كفِّ الأشل، فتعتصر بكفِّ الشعاعِ ما بأذيالِ الغصون من البلل، وتارة يجمع ضوؤَها الغمامُ في بردته، ويبدّد فريدَ الدرِّ من عقود مُزْنَتِه». (السمرجي، مخطوط، صفحة 145 / أ):

لعمر العلى ما الدهر إلا كريمه وما العيش إلا صفوه ونعيمه
وشرخ شبابٍ أرقص الزهو عطفه ورنّحه نشْر الصَّبا ونسيمه
عداك من الأيام إلا محجّلٌ أغرّ يغرّ الخطب وهو لطيمه
ومن غرر الأتراب إلا مهذّبٌ حليف الوفا طلْقُ الوداد قسيمه
رضيعي من ثدي هو الأدب الذي ينكّب عنه الغرّ وهو فطيمه
إلى ما التصابي في إسارٍ وشملنا شتيتٌ وأبهى الدرّ حسنًا نظيمه

هلمّ بنا لا زلت نَحْسُو سلافةً ... هي الملك لا ما يدّعيه زعيمه
سلافة آدابٍ تدار كؤوسها ... مِلاءً كما يسقي النديم نديمه
على سفح روضٍ حلّ في أفق الحيا ... عُرى مزنه حتى استطار شميمه
وبرد ظلالٍ قد أسالت به ذكا ... لُعابَ ضياءٍ يستطاب حميمه
وبركة ماءٍ ألبستها سماؤها ... قباءً من الفيروز قُدَّ أديمه
يزفّ الصبا من ماء شاذَرَوَانِها ... ذوائبَ درٍّ سرّحتها نسيمه

والسمرجي وإن لم يصرّح بلفظ الاشتياق في التقديم للقصيدة، يعتمد في أسلوبه لغةً خاصة تحقق مفرداتُها غايته، فكلمة الاستدعاء تعدّ لازمة من لوازم الاشتياق، وإردافها بالخدن يدلّ على عمق العلاقة، واستبطان الودّ لصديق كريم مهذّب، وهذا الاستدعاء الذي جاء نتيجة الاشتياق يدعو إلى احتساء سلافة الآداب على سفح روض وبرد ظلال، ويلاحظ قبل ذلك تأكيد الشاعر على النسب الذي يربطه بهذا الصديق، فهي أخوّة رضاعة سببها ثدي الأدب.

ومن التشوّق إلى الأشخاص إلى التشوّق إلى شعر الصديق، وذلك مما يعزز من قيمة شعر الإخوانيات، فالداغستاني يرسل إلى محمد صالح حمّاد[1] مادحًا له ومتشوّقًا لشعْرٍ وُعِدَ بإرساله له، يقول:

تحبُّ وتحبى ما يحلّ لك الحُبى ... ومن قنّة العليا تحلّ بمفرق
سلامٌ كما وَشْي الرياض المؤنّق ... وأطيب من عرف النسيم المعبّق

(1) هو محمد صالح بن محمد سعيد بن عبد الحفيظ حماد المدني الشهير بالسندي، أديب شاعر، صار خطيبًا وإمامًا بالمسجد النبوي. (الأنصاري، 1970، صفحة 193)

وأبهج من زهرٍ تفاوح نشره ... وأسلس من قطرٍ إذا انهلّ مغدق
إلى الماجد المرفوع في فلك العلا ... فتًى حلّ من هام السماك بمفرق
أريبٌ لأصناف المحامد صالحٌ ... وقد صار حمّادًا له الحسب النقيّ
فضائله منظومةٌ كلآلئ ... شمائله كالزهر حين تألّق
وينهي إليه العبد بعد ثنائه اشْـ ... ـتياقًا لنظمٍ منه كالبدر مشرق
يرجّيه من بعد التلطّف والحيا ... وفاءً لوعدٍ من سنا الصبح أصدق
فانشِقْ بريّاه أخا الفضل مهجتي ... وأطْفِ لظى قلبٍ لسيبك شيّق
وأرشفْ براحٍ منه مرشف مزبري ... وحلّ به باللّٰه أجياد مهرقي

فأجابه بقوله:

تجلّت لنا ذات السنا المتألّق ... تميد بقدٍّ في الملاحة مشرق
بأبهى محيّا زانه درٌّ مبسمٍ ... تحيّي بأشهى من حميّا مروّق
تتيه دلالًا في حليٍّ وحلّةٍ ... وتزهو جمالًا قد حلا بترقرق
رشيقة شكلٍ زيّنت بمحاسنٍ ... بديعة حسْنٍ أتقنت بتأنّق
ترقّ بظرف تسترقّ به النهى ... وترنو بطرفٍ للقلوب مفوّق
شمائلها تحكي الشمول لطافةً ... وتروي لنا ريّا الشمال المعبّق
فأهدت سلامًا رقّ معنى لسامع ... وأبدت كلامًا دقّ معنى لذيّق
فهمّت بها لمّا فهمت خطابها ... وقابلتها مذ أقبلت بتشوق
وقبّلتها حبًّا لها وقبلتها ... وأمهرتها روحي وجسمي وما بقي
ولِمْ لا ومهديها السراج ضياؤنا ... أخو الفضل بل ربّ الكمال المحقق
مجيدٌ لأفراد المناقب جامعًا ... مجيدٌ إلى أعلى المراتب مرتق
همام له الباع الطويل تفضّلًا ... يفيض به من بحره المتدفّق
أريبٌ أديبٌ لا يجارى بحلبة الـ ... ـبديع وفي الإبداع أبرع مفلق

فيا بارعًا وشّى الطروس بنثره ونظمٍ كما الدرّ النضيد المنسّق
ومن سخرت عصم المعاني له متى دعاها أجابته بغير تعوّق
أتت بنت فكرٍ منك تخطب خطّةً يضيق نطاقي عن مداها ومنطقي
ولولا الحيا من وجه جاهك سيّدي مطلت بها فالمطل حيلة مملق
فدونكها خجلاء عطلا فحلّها بحلّي قبولٍ بالتفضّل أليق
ودم وابق واسلم في هناءٍ وغبطةٍ برغم حسودٍ لا يغيظك أحمق

(الداغستاني، 2009، صفحة 206)

ج- المراسلة:

يقوم شعر الإخوانيات وخاصة بين الشعراء على تبادل القصائد وقد نعت هذا النوع من الشعر عند بعض الدارسين بشعر المراسلات، فالرد على قصيدة موجهة من شاعر صديق من أدبيّات شعر الإخوانيات.

ذكر المحبي في (نفحة الريحانة) أنّ السيد لقمان بن أحمد[1] كان يتراسل هو والسيّد محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين[2]، وذكر أنّ «مما كتبه إلى السيد محمد بيتان قد طارا كلّ مطار، وزانا ببهجتهما الأقطار، وهما:

واسطة العقد متى تأتنا فعقدنا أضحى بلا واسطه

(1) هو السيد لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي لدين الله. (المحبّي، 1969، صفحة 367 ج 3)

(2) هو عز الإسلام محمد بن عبد الله بن شرف الدين الحسني، من أعيان ملوك كوكبان المشهورين بالفضل والعلم والآدب، توفي سنة 1010 وقيل 1016هـ. (المحبّي، 1969، صفحة 274 ج 3)

وحالنا أضحت بلا صاحبٍ وجملةُ الوصل بلا رابطه

(المحبّي، 1969، صفحة 367 ج 3)

وكتب عبد العزيز الزمزمي المكي[1] مراسلًا ومادحًا للشيخ عبد القادر الجنيد[2] في مدينة زبيد قصيدة منها:

أزكى سلامٍ كالنسيم العاطر عن صدق ودٍّ واعتقادٍ صادر

منّي إلى بحر الحقائق حَبْرها ابن الجنيد الشيخ عبد القادر

كم قد سمعت بذكره فلقيته فرأيته للّٰه أعظم ذاكر

وشهدت من أحواله ما هالني ومـلا ودادًا واعتقادًا سائري

إن فاه فاض من المعارف ما طمى وأراك باطنهنّ عين الظاهر

إلى أن يقول:

فاعطف على عبد العزيز وقل له: يا زمزمي أبشر بخيرٍ وافر

واقْرِ السلام بنيك عنّي سيّما من خُصّ منك بفضل خيرٍ ظاهر

وكذا المتيّم والهجين ولم تكن عن كلّ من ينمى إليك بقاصر

ثمّ الصلاة على النبيّ وآله ما سار ركبُ الحجّ نحو أذاخر

(البيضاوي الزمزمي، 2013، صفحة 212)

وأرسل محمد بن أبي الحسن الصديقي[3] سنة 966هـ رسالة

(1) هو عز الدين عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز البيضاوي، الشيرازي الأصل، ثم المكي مولدًا، الزمزمي الشافعي، ولد سنة 900 هـ وتوفي سنة 976هـ. (البيضاوي الزمزمي، 2013، صفحة 6) (الشلّي اليمني، 2004، صفحة 520)

(2) ذكر الزمزمي في ديوانه أن عبد القادر الجنيد من زبيد، وهو من أهل التحقيق في علوم الشريعة والحقيقة. (البيضاوي الزمزمي، 2013، صفحة 212)

(3) وصفه الزمزمي في ديوانه بالأستاذ الأعظم، والإمام الذي أفنته شهرته أن يترجم، وأورد رسالة له وصلته من الصديقي عام 966ه. (البيضاوي الزمزمي، 2013، صفحة 215)

نثر وشعر ممتدحًا قصيدة في المديح النبوي للزمزمي، فقال الزمزمي شاكرًا الصديقي بقصيدة طويلة تقع في أربعين بيتًا، منها:

عبدٌ على الباب ألقى نفسه ورمى ... بها على بابك العالي علا وسما
ومن يكن لك عبدًا يا عزيز إذا ... دُعي بعبد العزيز اعتزّ واعتصما
والله لا يختشي سوءًا يلمّ به ... في الدهر من بفناكم لاذ والتزما
لكلّ وجهٍ إليكم وجهةٌ ولكم ... مزيد ودٍّ أكيدٍ في القلوب نما
وأنتم القوم لا يشقى جليسكم ... وكيف يشقى لديكم من به نعما؟
وحقّكم يا بني الصديق إنّ لكم ... مكانةٌ قد تسامت من سمًا لسما
علومكم بزغت منها نجوم ضحى ... وشمسكم نوره ليلًا جلا الظُّلما

إلى أن يقول:

ومن قريضك قد قرّظت مدحيَ في ... خير الأنام بعقد درّه يتما
فلا أوفّيك شكرًا بالثناء ولو ... أطلعته من دراري الأفق منتظما

(البيضاوي الزمزمي، 2013، صفحة 215)

كتب علي بن معصوم أبياتًا إلى الميرزا نصير ابن اللاهجاني[1] جوابًا عن أبيات بعثها إليه:

سلامٌ على ربّ الفضائل والعلا ... على عالم الدنيا على علم الهدى
على الباذخ العليا على شامخ الذرا ... على من رقى في المجد أشرف مرتقى
على مجمع البحرين في الفضل والندى ... على مشرق الشمسين في الضوء والسنا
على مقتدى أهل المكارم والنهى ... على مجتدى أهل المآرب والرجا
سلام محبٍّ شاكرٍ طوله الذي ... بأطواقه زان الترائب والطلى

(1) لم أعثر له على ترجمة.

على أنّ كلّ الشكر ليس ببالغٍ مدى بعض ما أولى وأجزل من ندى
وأنّى يوازي الشكر إحسان منعمٍ يمنّ بلا منٍّ ويولي بلا أذى

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 45)

ويجيب ابن معصوم حسين بن شرف الدين النجفي[1] بقصيدة تقع في خمسين بيتًا استهلّها بمقدّمة روضيّة خمريّة غزليّة، منها:

سقيا لمثناة الحجاز وطيبها ولسوح روضتها وسفح كثيبها
وظلال دوحٍ في شريعتها التي تنساب بين مسيلها ومسيبها
ورياض بحرتها التي فاقت على كلّ الرياض بحسنها وبطيبها
كم بتّ فيها ساحبًا ذيل الصبا أختال بين ربابها وربيبها
ويكفّني حلم الحجا حتى إذا دبّت حميّا الكأس بعض دبيبها
مزّقت جلباب الوقار بصبوةٍ ما زال دهري معجبًا بعجيبها
ومليحةٍ قد أشبهت شمس الضحى في الحسن عند طلوعها ومغيبها
تبدو فتختطف العيون مضيئةً بشروقها وتغيب في غربيبها
ومن العجائب أنّ جمرة خدّها تذكو فيشكو القلب حرّ لهيبها
ما ساغ مورد وصلها لي ساعةً إلا أغصّتني بعين رقيبها

ثم يتخلص لإطراء النجفي فيقول:

ما زلت أنتخب القريض لوصفها ولمدح منتخب العلا ونجيبها
مولي المعارف والعوارف والندى وعريف سادات الورى ونقيبها

(1) حسين بن شرف الدين النجفي، ذكر محقق ديوان ابن معصوم أنه لم يقف له على ترجمة، ويظهر مما ورد في إخوانياته الشعرية مع ابن معصوم أنه عربي علوي عراقي استوطن الهند، وقد تولّى الوزارة في حكومة الهند، وكان شاعرًا مبرزًا، له المكانة المرموقة في العلم والأدب. (ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 55)

إن عدّت الأنساب فهو نسيبها ... وحسيبها المشهور وابن حسيبها
حاز الفخار بنسبةٍ نبويّةٍ ... هي في غنى عن بُردها وقضيبها
يا أيّها الشهم الذي سبق الورى ... ببعيد غايات العلا وقريبها
جُزْت السماء بمرتقى قد قصّرت ... عن أن تنال علاه كفُّ خضيبها
للّه درّك من جوادٍ ماجدٍ ... لم يحوها شيبٌ أوان مشيبها

وأخيرًا يختم القصيدة بإطرائها والدعاء للنجفي:

وإليكها غرّاء تستلب النهى ... بأوانس الألفاظ دون غريبها
وافتْك تشرح شوق نفسي عندما ... حنّت إلى لقياك حَنَّة نيبها
قايسْ بها الأشعار في حسْنٍ تجد ... شِعْرَ المحبّ يفوق شَعْرَ حبيبها
واسلم ودم في نعمةٍ طول المدى ... تختال من أبرادها بقشيبها
ما رنّحت ريحُ الصِّبا زهر الرّبا ... أو غرّدت ورقاء فوق قضيبها

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 55)

أرسل الشاعر المدني عمر دفتردار[1] أبياتًا للأديب الحيدري[2] يقول:

إلى حضرة الشهم الكريم أخي الندا ... سراج ذوي الحاجات في ظلمة الردى
وكهفٌ إذا ما الناس يومًا زمانهم ... أدار بهم من فاقة الوجد موردا
فَثَمّ هناك الورد صافٍ شرابه ... يخال به المرتاب صرحًا ممرّدا

(1) هو عمر بن علي بن عبد الرحمن الرومي، والده من أتباع الدفتردار من رجال الدولة العثمانية أولي الاعتبار، وصفه الأنصاري بأنه رجل كامل مؤدب، صار إمامًا بالمسجد النبوي، توفي سنة 1194هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 226)

(2) لعلّه عمر بن محمود حيدر البغدادي، ترجم لهم الأنصاري في تحفة المحبين ببيت حيدر، وذكر أن عمر ولد سنة 1144هـ، وأنه رجل حاذق أديب ذو لسن، له نظم وشعر بديع حسن. (الأنصاري، 1970، صفحة 195)

ومن دونه كوس التهاني قد انجلت ... كحمر الدنانير الشّعال توقّدا
وساقيه ساقٍ لا عدمت حياته ... له الجود أمسى يستمدّ به يدا
يجود بعشْرٍ إن رأى النّصْف كافيا ... جعلت له روحي معاملةً فدا
فيا ربّ باكرْ حيّ محيَا جماله ... بعرفٍ شذيٍّ يفضح الندّ والندى

فأجابه الحيدري مع إرسال المقصود:

أخي عمدتي هذي الدنانير قد بدا ... ضيا شمسها يعلو مدى الدهر أجردا
تجول بميدان الأيادي وتارةً ... تفرّ كما فرّ الحمام من الحدى
لها همّةٌ في وَصْلِ غيدٍ وبُعْدِه ... وقرْبِ صديقٍ ثمّ قطْعٍ مؤبّدا
وإن رمت كلّ الوصل لا تستطيعه ... وناهيك ما قال الحريريّ منشدا
فواصلكم منها مع العبد عشرةٌ ... تكون لديكم قرضةً تلثم اليدا
إلى سحّ سحب الحج يا صاح عسجدًا ... ودم في أمان الله ما الطير غرّدا

(الداغستاني، 2009، صفحة 244)

ويرسل عابد السندي[1] قصيدة تقع في ثلاثين بيتًا إلى عمر الداغستاني تستغرق مقدمة وصف الطبيعة والغزل جل أبياتها فلا ينوب الداغستاني منها سوى سبعة أبيات، مطلعها:

قد صحا الجوّ والربى قد تبسّمْ ... زهرُه والنسيم عنه تنسّمْ
والسحاب الثقال أخفت وأخفى ... زاجرَ الرعدِ صوتَه حين زَمْزَمْ
وبدا سافر الضّيا حين غشّى ... ضاحك البرق ثغره وتلثّم
وأغاني الحمام أمست تغنّى ... وبأشجى ألحانها تترنّم
وجواري المياه مثل جوارٍ ... وعليها من عسجد الشمس معصم

(1) من شعراء المدينة المنورة الذين ترجم لهم الداغستاني في كتابه اللآلئ الثمينة، وذكر أنه تفنن في فنون اللغة أديب شاعر. (الداغستاني، 2009، صفحة 268)

وفي البيت الثاني عشر ينتقل إلى الغزل ليستمر بذلك إلى البيت الثلاثين فيتخلص لمدح الداغستاني بقوله:

وسبى عاذلي بسحر رناه ... ليرى ساكتًا فلا يتكلّم
مثلما قد سبى الورى بمعاني ... سحر أشعاره من إذا قال أحكم
السراج الوهّاج من قد تسامى ... في منار العلا إذا الجهل أظلم
الأديب الأريب في العصر من قد ... زيّن الفضل بالنضيد المنظّم
لا أرى من يرى لديه مجيبًا ... أن ينادى في الشعر من يتقدّم
إن يكن بعد أحمد المتنبي ... مرسلٌ في القريض كان المقدّم
فتراه إذا دعا كلّ معنى ... من عصيّ الأفكار جاء وسلّم
وأراه لو قام موقف قسّ ... في عكاظ لكان أعلى وأعلم

فأجاب الداغستاني بقصيدة تقع في ستة وستين بيتًا حذا في مقدمتها حذو السندي حيث وصف الطبيعة استغرق واحد وأربعين بيتًا، يقول:

جاد غيم السّما لنا وتبسّم ... عن سنا بارقٍ له غير جهّم
وغدا في الهواء يسحب بُرْدًا ... بطراز البروق أصبح مُعْلَم
واختفت تحت ذيله الشمس حتّى ... أصبحت لا ترى كمثل الملثّم
فتراه يجري وللرعد سَوْقٌ ... خلفه كالحادي إذا ما ترنّم
فكأنّ السماء غارت فغطّت ... وجهها حينما الربى قد تبسّم
فانظر الروض في حلاه تجلّى ... لابسًا سندسًا عليه منمنم
وكأنّ الأغصان يا صاح أعطا ... فٌ عليها خدود الأزهار تلثم
ذاك قد لاح أحمرًا وترى ذا ... أصفرًا فاقعًا وأخضرَ أدهم

ثم يتخلص للغزل عند البيت الرابع عشر بقوله:

ولصدح الحمام في القلب صدعٌ ... إن بدا شاديًا بعوْدٍ وزمزم
وخصوصًا إذا تغنّى بترقيق سجو ... عٍ منه القلوب تهيّم
يذكر الصبّ عهد ما كان منه ... مع صحبٍ له يزيلون للهمّ

إلى أن يتخلّص إلى مدح الداغستاني في ستّة أبيات، بقوله:

حيّني يا أخا الغرام وأسند ... لي حديثا من الصبابة محكم
واشرحن لي متن الغرام وأظهر ... لي ما كان منه مخفى ومبهم
وأفدني بوصف كلّ مليحٍ ... بارع الحسن بالجمال معمّم
حَسَنِ الجيد والشِّمال كريمٍ ... خيمه من بالمحاسن أكرم
مثل خيم الأديب ربّ المعالي ... والمعاني التي بها قد تقدّم
مفرد العصر جيّد الشعر ربّ ... النثر كالزهر لاح غير مكتّم
بارعٌ من خزائن الفضل والمجد ... كذا العلم صار أغنى وأغنم
نظمه في الأذواق والخلق منه ... ذاك أحلى وذاك باللطف أحلم
عابد اللّه بالخلوص صديقٌ ... صادق الودّ طرسه عنه ترجم
ماهر في الآداب نابغة الوقت ... وكلٌّ بأنّه الفرْد يعلم

(الداغستاني، 2009، صفحة 268)

يرد الشاعر الأحسائي ابن مشرّف[1] على كتاب ورد إليه من

(1) أحمد بن علي بن حسين بن مُشْرف الوهيبي التميمي الأحسائي، فقيه مالكي كثير النظم سلفيّ العقيدة، ولد في بلَدة الزبارة في الأحساء سنة 1203هـ، ونشأ وتعلم بها. ثم قصد نجد واتصل بالأمير فيصل بن تركي. اشتغل بالتدريس، وتولى القضاء أيام الدولة السعودية الثانية. توفي في مدينة الأحساء. سنة 1285هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 182 ج1)

بعض أصحابه، فيقول:

أنظم قريضٍ أم نفيس الجواهر ... له نظمت بالفكر أيدي الخواطر
أم الروضة الغنّاء قد حاك وَشْيَها ... أناملُ وسميّ السحاب المباكر
أم الطرس يزهو بالبلاغة وَسْمُه ... يكاد لها يبيضّ حبر المحابر
فأنبأنا عن وجد صبٍّ أخي وفا ... تذكّر عهدًا في السنين الغوابر
وأثنى على شيخٍ هدته علومه ... إلى نهج أرباب الحجى والبصائر
فأصبح في الآداب والعلم والنهى ... يتيمة دهرٍ، فهو إحدى النوادر
تذكّرنا قسًّا فصاحة لفظه ... وتخبر عن سحبان فوق المنابر
وينشده الملتاع من لاعج الهوى ... لك الخير، حدثني بظبية عامر
عليه سلام الله ما نمّت الصّبا ... بعرف الخزامى في الرياض الزواهر
بحيث وفى بالواجبات وما جفى ... وهجران شيخ العلم إحدى الكبائر
وصلّى إله العالمين مسلّمًا ... على خير مبعوثٍ وناهٍ وآمر
كذا الآل والأصحاب ما هبّت الصّبا ... وما أطرب الأسماع تغريد طائر

(ابن مشرّف، ط4، صفحة 73)

يجيب محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني[1] على كتب وصلت إليه من محمد بن سالم بن وصال الأحسائي[2] يخبره فيها بارتحاله إلى مكّة سنة 1127هـ بعد إقامته في صنعاء وقراءته بعض كتب النحو لديه، وفي ذلك دلالة على اختلاف العلماء وارتحالهم في

(1) هو محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الحسني الصنعاني، مجتهد من بيت الإمامة في اليمن، له نحو مائة مؤلف، وله ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، 1992، صفحة 38 ج 6)

(2) هو الشيخ محمد بن سالم بن وصال الأحسائي، جاء في ديوان الأمير الصنعاني أنّ الشيخ الكريم ارتحل إلى مكة سنة 1127ه بعد إقامته بصنعاء وقراءته بعض كتب النحو لديه. (الأمير الصنعاني، 2009، صفحة 212)

طلب العلم، مع طول المسافة وشقّة السفر، كذلك تبادلهم الأشعار والأخبار، يقول الصنعاني:

أقلّب قلبًا بعد بُعْدك في الجمر ... وأسبل دمعًا في خدوديَ كالقطر
وأسأل عنكم كلّ غادٍ ورائحٍ ... وهيهات ما الأخبار تغني عن الخبر
إذا قطعت أيدي النوى حبل وَصْلنا ... رجعنا إلى حسن التأسّي والصبر
عسى ولعلّ الدهر يجمع شملنا ... فقد ربما نيل الوصال من الهجر
سلامٌ على أخلاقك الغرّ إنّها ... ألذّ إلى الوسنان من نومة الفجر
سلامٌ على الأخ الكريم بن سالم ... سميّ حبيب اللّه في الشرف الوفْر
فتى كملت أخلاقه فنظيره ... يعزّ إذا فتّشته في بني الدهر
لأنت وإن طال النوى وتباعدت ... ديارك لا ينساك قلبي من الذكر
وقد وصلت منكم إليّ رسائلٌ ... (جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري)

(الأمير الصنعاني، 2009، صفحة 212)

يرد السمرجي على العلامة الأديب الأريب - كما ينعته- السيد حسين بن السيد محمد عشيش[1] عن أبيات كاتبه بها في قافيتها، يقول بعد مقدّمة طويلة:

مولاي نظمك وهو أعلى رتبة ... من أن يقاس[مدىً] على نظرائه[2]
وافى سفيرا بين صبّك والجوى ... يطوي الحسا سفرًا إلى حوبائه
فأهاج لي شوقًا ولا برق سوى ... قلمٍ يسحّ من المداد بمائه
وأعاد لي ذكر الحمى فأبان لي ... ولناظري ما بان من جرعائه
شكرًا لمرآة الزمان وربّها الـ ... ـمهدي الزمان بأرضه وسمائه

(1) لم أعثر له على ترجمة.

(2) هكذا في الديوان، ويظهر أن هناك كلمة سقطت ولعل صوابه ليستقيم الوزن (من أن يقاس [مدىً] على نظرائه).

مولاي يا فخر الكرام وخير من ... ألقى البديع له زمام ولائه
من للحسين بأن يفدّيك ابنه ... بأجلّ نسلٍ من بني آبائه
لا تعرضنّ بنات فكرك إنه ... لم يلْقَ عندي كفؤ بعض إمائه
فلتحمد الأفكار فكرك إنما ... إنشاؤها كَلٌّ على إنشائه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27 / أ)

من المراسلة ما أرسله الشيخ الدرمكي العماني للشيخ بشير بن عامر الأدمي الأزكوي[1] واعظًا له:

أيها الغرّ كيف تطعم غمضًا ... والمنايا يركضن حولك ركضا
بادر الموت للمعاد بزادٍ ... صالحٍ تلق ما تحبّ وترضى
تب إلى الله من معاصيك واندب ... عُمُرًا منك في الذنوب تقضّى
ثمّ أصلح ما كنت أفسدت قدْمًا ... كان نفلًا هناك أو كان فرضا
جفّ ماء الشباب منك وأمسى ... عُودُه ذابلًا وقد كان غضّا
حلّ ضيف المشيب منك برأسٍ ... فنضى ملبس الشباب وأنضى
خلّ عينيك تذْرِ بالدمع خوفًا ... من ذنوبٍ دنّسْن ثوبًا وعرضا
داوِ بالطاعة الجوارح واعْلم ... أنها ما عصيت مولاك برضا
ذبّ عن نفسك المعاصي ذبًّا ... وارفضن الفضول ما عشت رفضا
رحم الله مذنبًا تاب ممّا ... كان فيه وأقْرض الله قرضا
زوّد النفس فالرحيل قريبٌ ... وافعل الخير تلْقَ رفعًا وخفْضا
سوف يأتيك ما تخاف وتغدو ... كلّ نصبٍ تحبّه النفس خفْضا

(1) الشيخ بشير بن محمد بن عامر بن أحمد بن موسى الفزاري الإزكوي، فقيه وناظم للشعر من فقهاء القرن الحادي عشر، كان إلى سنة 1079هـ حيًّا موجودًا. وقد نسخ الجزء الثالث من كتاب « بيان الشرع» في التاريخ المذكور، له ديوان شعر مخطوط. (السعدي، 2007، صفحة 30 ج 1)

شرّ ما في النفوس شحٌّ مطاعٌ ... وهوى منه يكسب العقل مهضا
صاح لا تغترر بشرْخ شبابٍ ... كم فتى مات شارخ السنّ بضّا
ضلّ سعي امرئٍ بطبع هواه ... ويمدّ الآمال طولًا وعرضا
طالبًا من سراب قاعٍ شرابًا ... قابضًا كفّه على الماء قبضا
ظنّ جهلًا بأن يفوت المنايا ... وهو قد أودع الأحبّة أرضا
عامَ في لجّة الأماني حتّى ... عضّه الموت بالمصيبة عضّا
غرّه ما بدا له من حياةٍ ... حبّها صار عند ذلك بغضا
فأفقْ يا عزيز من سكر لهْوٍ ... واشربن من نصيحتي لك محضا
قد أرتْك الأيّام ما صنعته ... في ملوك العباد فتْلًا ونقْضا
كرّرت صرفها عليهم فبادوا ... ومضوا في الثرى يُرضّون رضّا
لم تحطهم من المنون حصونٌ ... حين شاموا لعارض الموت ومْضا
ما أقاموا سوى زمانٍ قليلٍ ... يحتوي بعضهم على المِلْك بعضا
نكّسوا للردى الرؤوس وأمسى ... بهم ثابت المواقف دحْضا
وردوا المورد الزّعاف وكانوا ... قبلها يشربون شهدًا وبرْضا
هاك وعظًا يعيه كلّ لبيبٍ ... مهضّته القريح منّيَ مهضا
يا كثير الرقاد دونك تنبيـ ... ـها يفضّ الرقاد والنوم فضّا

(الخصيبي، 1994، صفحة 121ج 1)

وقد يضطر من وُجّهت له القصيدة الإخوانية إلى الاستعانة بشاعر صديق يكتب قصيدة عنه، حيث يجعلها على لسانه ويتقمّص مشاعره إذ ذاك.

مثال ذلك رد عمر حيدر على قصيدة للدغستاني أرسلها لبعض الأحباب بقصيدة منها:

لقد صغت يا ربّ المعارف والمجد ... خريدة فكرٍ تخجل الشمس من بعد
وتسبي عقول العاشقين بحسنها ... عروس بديعٍ نسمة البان والرند
عليها حلى الإقبال من كلّ جانبٍ ... غدت في كتاب الشعر يا صاح كالحمد
إذا ردّدت تحلو تردّ معارضًا ... بحسن بيانٍ كي يعود إلى الرشد
بدائع آي النظم فيها تكاملت ... تجلّت من الإتقان عن وصمة النقد
تميس دلالًا مذ أتتني وسلّمت ... ويصحبها بيتًا لتاريخها يبدي
غدا درّةً في وسط درٍّ منضّدٍ ... وأبدت من الإشراق ما مثله عندي
فقلت لها أهلًا وسهلًا ومرحبا ... فنعْمَ الذي تبدي ويا نعم ما تهْدِي

ولم يكتف الداغستاني بل ردّ على الردّ مما ينبي بولع شعراء الفترة بشعر المراسلات الإخوانية، فقد رد بقصيدة منها:

بدت في نحور الطرس تزهر كالعقد ... فصالت على الألباب بالحَلِّ والعقد
ولاحت بأفق النظم كالنجم حسنها ... وأبهى لأنّ النجم يُنظر من بعد
وفاح شذاها العبهريُّ مروّحًا ... بروض البها كالنرجس الغضّ والورْد
وماست بأردان الملاحة تبتدي ... بتحريك أفراحي وبالأنس تستبدي
كأنّ لها من طلعة البدر منظرًا ... وثغرًا نضيد الدرّ ينطف عن شهد
فألفاظها كالراح من فرط رقّةٍ ... وأسطرها مثل العذار على الخدّ
بديعة حسْنٍ أقبلت في لطافةٍ ... تبختر في مرط الملاء كما دعد
رأتني كفُئًا لاجتلاء جمالها ... فحييتها بالشوق والوجد والودّ
وقلت لها أهلًا بخير عقيلةٍ ... أتت من سراج الفضل والفاضل الفرْد

(الداغستاني، 2009، صفحة 186)

د- التهاني:

تمثل التهاني واسطة عقد شعر الإخوانيات، إذ بها يتفاعل الشاعر مع صديقه في فرحته، فالشاعر حين يكتب قصيدة التهنئة يبرهن على عمق العلاقة مع صديقه واهتمامه به ومتابعة أخباره، ويستغل لذلك المناسبات الاجتماعية لكتابة قصيدته، فتكون ثمّة مشاركة للفرحة والنجاح مع الآخر، وفرصة يمارس فيها شاعريته طمعًا في توطيد العلاقة مع هذا الصديق القديم، أو بناء علاقة مستحدثة مع صديق جديد.

يُذكر الغرض من التهنئة غالبًا، ويُحدد هدفها، كتهنئة بعقد نكاح أو تهنئة بمولود أو تهنئة بكتاب الخ، وقد تجد تهنئة لم يحدد غرضها، ولا يتبيّن المراد منها، كتهنئة وردت في ديوان فتح الله ابن النحاس[1] كتبها لأحد أصدقائه، لم تحدد مناسبتها، يبدو أنها تهنئة بمكانة وعلوّ قدر ونجابة ابن، يقول:

تهنّ على حين ارتقيت الليالي ... وقُدّت الأماني حافلاتٍ كما هيا
وكم شدّةٍ حتّى استدرّيت ضرعها ... وكم قلقٍ حتّى اطمأنّيت راضيا
حمدنا لك الله ارتياحًا لفضله ... كثيرًا وأكثرنا هناك التهانيا
وبالله قل لي بعد ذا الحظّ كلّه ... أهنّيك جهدي أم أعزّي الأعاديا
همُ أبصروا من غرسك الغصن مثمرًا ... وما كان من غرسٍ لهم صار ذاويا
فهبّت سموم من لظى نظراتهم ... إليه فكان الله إذ ذاك واقيا
على ابنك عينُ الله من كلّ حاسدٍ ... وليس يبيح الله ما كان حاميا

(1) هو فتح الله بن عبد الله، الشهير بابن النحاس، شاعر رقيق مشهور، من أهل حلب، زار دمشق والقاهرة والحجاز، واستقر بالمدينة، وتوفي بها سنة 1052هـ، له حائيته التي اشتهرت بكثرة معارضاتها، مطلعها: بات ساجي الطرف والشوق يلحّ/ والدجى إن يمض جنح يأت جنح. (الزركلي، 1992، صفحة 135 ج 5)

ولا زلت تاج العارفين إلى العلا كما شئت أو شاءت مساعيك راقيا
ولا عصفت ريحٌ بما أنت غارسٌ ولا صدّع التفريق ما كنت بانيا
(ابن النحاس، 1991، صفحة 154)

1- التهنئة بعقد نكاح:

يستغلّ شاعر الإخوانيّات المناسبات ولا سيّما السعيدة لتقديم التهنئة لصديقه الأديب الشاعر، وعقد النكاح مناسبة سارّة تستحق التهنئة والمباركة. يقول جعفر الخطي مهنئًا جعفر بن عبد الجبار الموسوي[1] بزواجه:

هنّاك ربّك ما أولاك من نعم يا خير من أنبتت جرثومة الكرم
ونلت في ضمن ما أوليت من نعمٍ يُمنًا ومأمنةً من زلّة القدم
الآن لان الزمان الوعر جانبه وافترّ عن ثغر طلق الوجه مبتسم
وأصبحت تتحف البشرى قوابلها أمُّ الرجاء وقد مرّت على العقم
ما أنتجت دورة الأفلاك فائدةً كهذه وقضاء اللوح والقلم
خير الرجال قضى سعد الجدود له بأن تزفّ إليه خيرة الحرم
يا ابن الذين تولّى اللّه مدحهمُ دوني فهم أغنياءٌ عن مقال فم
قومٌ كأنّك إذ تتلو مناقبهم تغري بزهر الربى معتلّة النّسم
فقُرَّ عينًا وطب نفسًا ونم دعةً يصحبّك ذلك يقظانًا وفي الحلم
(الخطّي، 2005، صفحة 261)

(1) لم أعثر له على ترجمة.

ويستغل الشاعر محمد خليل السمرجي مناسبة عقد نكاح لصديق ينعته بالوجيه عبد الرحمن بن علي الحمّال[1]، حيث جرت العادة أن تدبّج فيها خطب الإملاك، فيمتدح فصاحة هذا الصديق، ويمتدح من تزوّج منهم وينعتهم بالفضل والتقى، يقول:

طاب عقدٌ قضى المهيمن فيه ... بالعلا للمهذّب النحّال
النجيب الذي يفوق بهاءً ... وكمالًا بدر الدجى في كمال
راح عبد الرحمن منه بعقدٍ ... حسدت جيده عليه الأوالي
أيّ عقدٍ فيه ملائكة الله (م) شهودٌ على شهود الحال
ملأ الأرض والسماوات والأيا ... م عطرًا شميمه والليالي
مشرق اللفظ كاد ينثر منه ... في رؤوس الملا نثار اللآلي
وكفاه فخرًا بأن نال فخرًا ... وسموًّا لخطبة المفضال
حمزة الخير منبع العلم حقًّا ... وحليف التقى بلا إشكال
وبعالي الجناب أعني عليّ الـ ... ـقدْر ذا الجناب العالي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 126 / ب)

ومن التهنئة بالعرس تهنئة الشاعر موسى بن حسين الكيذاوي العماني[2] لسليمان بن مظفر[3]، حيث يستهلّها بمقدّمة غزلية فيقول:

(1) لم أعثر له على ترجمة.

(2) هو موسى بن حسين بن شوال الحسيني المعروف بالكيذاوي، من شعراء عمان في القرن العاشر الهجري، ولد ببلدة محليا من وادي عندام من الناحية الشرقية من عمان، أديب شاعر مدح النباهنة الأسرة المالكة. (الخصيبي، 1994، صفحة 54 ج 1)

(3) لم أعثر له على ترجمة.

هبّت تغرّد من فوق الأماليد ... تواصل السجع تغريدًا بتغريد
مخضوبة الكفّ لم تنفكّ نائحةً ... تردد الصوت منها أيّ ترديد
فأسعرت نار لوعاتي فبتّ لها ... مسهّد الطرف مكحولًا بتسهيد
يا حادي العيس رفقًا إنها إبلٌ ... في الوخْد رافقة بالخرّد الغيد
ويا لييلاتنا اللائي سررت بها ... عودي بما كان من لذّاتنا عودي
أيّام يجمعنا الحانوت مشربنا ... ماء الغمام وأدماء الرواقيد
والشمل مجتمعٌ والدهر يسعدنا ... منه ويجمعنا صدق المواعيد

إلى أن يتوجّه بالتهنئة لصاحب العرس فيقول:

خذ من هبات الليالي ما اصطفيت فقد ... ألقت لك اليوم أطواق المقاليد
وأنعم بذا العرس إن العرس من نعم الدّ (م) نيا فخذ منه حظًّا غير محدود

(الخصيبي، 1994، صفحة 61 ج1)

2- التهنئة بكتاب:

تظهر هذه التهنئة مدى عمق العلاقة بين الأدباء والمثقفين ومشاركة بعضهم بعضًا من خلال هذه الأشعار؛ فالسمرجي هنا يهنئ أستاذه عليًّا القناويّ[1] بوصول كتاب له من أستاذه محمد الحفني[2]، وهذا يظهر مدى الاحترام المتبادل بين الأستاذ وتلميذه، ومدى رقيّ هذا التواصل والاحتفاء به؛ فوصول كتاب من أستاذ

(1) هو العلامة علي بن عمر القناوي المصري، وفد إلى زبيد وصنعاء مرات عديدة، توفي سنة 1198هـ. (الأهدل، 2010، صفحة 116)

(2) هو محمد بن سالم الحفني أو الحفناوي، ممن أخذ عنهم العلامة علي بن عمر القناوي، فقيه شافعي، من علماء العربية، ولد بحفنة من أعمال بلبيس بمصر سنة 1101هـ، تعلّم في الأزهر وتولّى التدريس به، توفي بالقاهرة سنة 1181هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 134 ج6)

لتلميذه عُدَّ مناسبة تستحق الاحتفاء والتهنئة، يقول:

أهلّ بمنشور الكمالات طالع ... وهلّ بأسرار الجلالات طابع
وبشّر بالبشرى وأنجز باللقا ... مطالع منه بالسعود طوالع
وعن قمر الأقمار بانت أهلّةٌ ... فكانت لأسرار القبول طلائع
حروفٌ هنا جاءت ومجرورها المنى ... إليك بماضي الوصل فهو مضارع
تذكّر نشر السرّ من طيّ طيّها ... عبيق عبير الوصل والوصل يانع
هنيئًا لك البشرى بها ولك الهنا ... لها ولك الزلفى فما ثَمّ مانع
لئن نشرت من مصر رايات شوقها ... إليك وأبدت ما تحنّ الأضالع
فما خفقت إلا بأعلام قطبها ... فمن خفّقها في الخافقين لوامع
وألقت عصاها في ذراك وأودعت ... إليك من السرّ البديع ودائع
فشاهد بعين القلب عين حضورها ... فخلف حجاب العين للغور لامع
فلله من خطٍّ شريفٍ ترنّحت ... به الروح وارتاحت إليه الطبائع
تطالعه روحي بروحي فينجلي ... يصوّره في نفس روحيَ طابع
ويظمأ قلبي كلّما كرّ ناظري ... لتكريره شوقًا فتجري المدامع
فأنت مرام القصد بل غاية المنى ... وسدّتك اللاتي إليها المراجع

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 / ب)

تظهر الأبيات مدى خصوصية العلاقة بين هؤلاء الأصدقاء الزملاء، فوصول كتاب من أستاذ أو شيخ له الفضل، ممن شاع ذكرهم، قد لا يقدّره ويهتمّ له الناس العاديّون، لكنه أمرٌ ذو بال عند أهل العلم والأدب.

فهي ليست رسالة فحسب، بل بشرى ورايات تنشر، وهي رسالة قمينة أن تشاهد بعين القلب وتستجليها الروح.

3- التهنئة برمضان والعيدين:

التهنئة بالمناسبات الدينيّة والأعياد ليست حكرًا على الشعراء، إذ يشاركهم فيها أبناء المجتمع كافة، لكن شاعر الإخوانيات يصوغ هذه التهاني خاصةً.

يهنئ حسن مصطفى البوسنوي[1] الشيخ عارف حكمت[2] بشهر رمضان فيقول مؤرّخًا:

يا من أمانيه الإثابه ... والعفو من مولى الإنابه
والفوز أقصى مطلبٍ ... يبدي لمغنمه طِلابه
ومواسم الطاعات أحْـ ... ـسن ما يروم بها اكتسابه
إنّ المراحم قد أضلّت (م) للأنام بها سحابه
بقدوم ما بصيامه ... قد وجّه المولى خطابه
شهرٌ عظيمٌ فيه أنـ ... ـزل جلّ خالقنا كتابه
والشرّ يغلق بابه ... والخير يفتح فيه بابه
فاهنأ به يا خير من ... ما زال فعل الخير دابه
برحاب أحمد من أعدّ ... لجمع وفّادٍ رحابه

(1) هو الشيخ حسن بن مصطفى بن حسن بن مصطفى البوسنوي (البصنوي) المدني، ولد في المدينة المنورة، تقلّد الإمامة والخطابة في الحرم النبوي، ترجم له الدكتور محمد العيد الخطراوي في مقدّمة ديوان الشاعر محمد أمين الزللي وذكر أن البوسنوي توفي بعد سنة 1253هـ، له ديوان شعر مخطوط، اطلعت منه على ثلاث نسخ مصوّرة. (الأنصاري، 1970، صفحة 116)

(2) هو أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت بن إسماعيل رائف باشا الحسيني، تركي المنشأ مستعرب، اشتهر بخزانة كتب عظيمة له في المدينة المنورة، ما زالت موجودة حتى اليوم، تقلّد قضاء القدس، ثم قضاء مصر، فقضاء المدينة المنورة، ولي مشيخة الإسلام في الأستانة عام 1262هـ، توفي بالأستانة سنة 1275هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 141 ج1)

في بلدةٍ نفحاتها ... بالطّيب منه مستطابه
والشهر يعدل صومه ... ألفًا لمن وفّوا حسابه
في خير عامٍ فيه غيْـ ... ـث اللطف قد والى انسكابه
عن وجه تاريخٍ له ... أيدي الوفا رفعت نقابه
في ضمن بيتٍ لفظه ... قد وافق المعنى إصابه
يشدو به شادي الهنا ... شدوًا لداعيه أجابه
يهنيك شهر الصوم أحْـ ... ـمد عارف ودّا لطابه

1239هـ

(البوسنوي المدني، نسخة آل هاشم، صفحة 12)

ويهنئ محمد خليل السمرجي صديقًا لم يذكر اسمه بالعيد:

لمثل ذا وأفاض الله نعمته ... عليك في رتبة تعنو لها الرتب
تستوهب الله شكرًا في بقاك لها ... صلاتك الغرّ والأشعار والخطب
ولْيهنك اليوم عيدًا قد رفعت به ... شعائر الدين تنويهًا بما يجب
لم تخلُ منك ليالي الصوم من قُربٍ ... والعيد لم يخْله من فضلك الحسب
ما زلت تبذل والأملاك شاهدةً ... والأجر يثبت والرحمن يحتسب
حتى دعاك لسان الملك مفتخرًا ... يا مطلبًا ليس لي في غيره أرب
وأنشدتك المعالي يا ابن بجدتها ... إليك آلَ التقصّي وانتهى الطلب

(السمرجي، مخطوط، صفحة 121 / ب)

والأبيات تعبّر عن تهنئة لصديق له مكانة ورتبة، بالرغم من عدم ذكر اسم الصديق الموجّهة إليه.

4- التهنئة بمولود:

لعل التهنئة بمولود فيها حميمية خاصة بين الأصدقاء، إذ تشارك الأب فرحته وحفاوته بضيفه الجديد الأثير.

هنأ نظام الدين بن معصوم[1] السيد محمد بن أبي شبانة الحسيني البحراني[2] بمولود في أثناء إقامته بالهند بقصيدة مطلعها:

ليهنك أيها العَلَمُ العليم لقا نجلٍ له وجهٌ وسيم

فأجابه بقوله:

أسحر جاء أم درٌّ نظيم فمنه قد تحيّرت الفهوم
كأنّ كواكب الجوزاء غارت له فتناثرت منها النجوم
كلامٌ يعجز الفصحاء نظمًا ويُسحر من بلاغته الفهيم
يكاد لحسنه لفظًا ومعنى يضيء بنوره الليل البهيم
كأنّ مصاقع البلغاء عادوا وعاد لبدئه العصر القديم

(1) هو نظام الدين أحمد بن محمد معصوم الحسيني المدني، والد علي بن معصوم صاحب كتاب سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر وكتاب أنوار الربيع في أنواع البديع، ولد في الطائف سنة 1027هـ، استدعاه السلطان عبد الله بن محمد قطب شاه ملك حيدر آباد، فرحل إلى الهند سنة 1054هـ، وأقام عنده مكرما، وتزوج بإحدى بنات السلطان ووزر له، وطمع بالملك من بعده، فلما مات السلطان وولي الميرزا أبو الحسن الفارسي، حدثت بينهما أمور، فاعتقل وسجن إلى أن توفي سنة 1086هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 239 ج 1)

(2) هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن شبانة الحسيني البحراني، ممن ترجم له علي بن معصوم في السلافة، وأورد له عددا مع القصائد، منها ما نظمه مخاطبا بها والده نظام الدين أحمد بن معصوم.
(الخطّي، 2005، صفحة 362 ج 2) ، (ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 508)

بأبيات غدت للشعر روحًا ... وبالأرواح تنتعش الجسوم
رقائق لو تمرّ على نسيمٍ ... لمرّت لا يحسّ بها النسيم
ومثل السيل وافت بانسجامٍ ... بها يتحدّر الطبع السليم
وأنت لَواحدٌ في الفضل فردٌ ... ولكن لا يكون له قسيم
زعيمٌ بالمفاخر والمعالي ... ولكن عنده قسٌّ زعوم
له في كلّ مكرمةٍ حديثٌ ... يصححه له مجدٌ عظيم
له بيت المكارم بيت عزٍّ ... به ركن المطالب والحطيم
كأنّ وفوده من كلّ قطرٍ ... تسير إليه خطّ مستقيم
هو البحر المحيط وأيّ بحرٍ ... سواه مرام ساحله عديم
أتاه العلم من ينبوعٍ وَحْيٍ ... ومنه قد تفجّرت العلوم
له فهمٌ كأنّ الوحي يلقى ... إليه وعنده ملكٌ كريم
له ثُنيتْ وسادة كلّ علمٍ ... ليبلغ كلّ ساعٍ ما يروم
وقد جُمعت له من كلّ نوعٍ ... فضائل لا تحيط بها الرَّقوم
لأقدام الأكابر من قديمٍ ... إلى تقبيل سدّته قدوم
نظام الدين لمّا أن تسمّى ... سما فتقوّم الدين القويم
توافق في اسمه لفظٌ ومعنى ... وأعرب عن بناء الأصل خيم
له علمان من علمٍ وحلمٍ ... بلا مينٍ هنا للخلق نيم

(الخطّي، 2005، صفحة 362 ج 2) (ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 508)

ويحاول محمد خليل السمرجي في تهنئة لم يُنصّ على الصديق الموجّهة له أن يخرج عن القاموس التقليدي للتهاني، فيقول:

لقد نبعت من دوحة الملك نبعةٌ ... تفرّع من أغصانها للندى زهر
أضاء به أفق النبوة غرسنا ... هلالٌ تسامى للكمال به البدر

وشنّف أذن الخافقين بشائرًا تبسّم عن ثغر التهاني به البشر
فأصبح حدّ السيف يحمرّ نشوةً وترقص زهوًا في أنابيبها السّمْر
بمولد من وقّى به المُلك نذره كما شاءت العلياء والنهي والأمر

(السمرجي، مخطوط، صفحة 13 أ)

ويهنئ السمرجي عبد الرحمن المفتي بمولود، ويستطرد بعد التهنئة مبرزًا فضائل هذا الأب المُهنّأ ومزاياه، حيث الديباجة المعهودة التي لا تخلو من خصوصية تفرضها نسبة الشخص الأسرية، وهيئته الاعتبارية، إذ نجده هنا منتسبًا لأبي بكر الصديق، فضلًا عن أنه صاحب علم:

أقبلت دولة أيام السعادهْ وبدا كوكب أفلاك السياده
وشدا طير الأماني ساجعًا بالتهاني حسْب تخصيص الإراده
وغدا الإقبال والسعد على جيد مولود الهنا أبهى قلاده
والمسرّات توالت والرضا لوجيه الدين قاموس الإجاده
صفوة الصدّيق من تثني على مجده الألسن حبًّا وَوَدَاده
نظر الله له بلّغه ربّه الحسنى وأعطاه الزياده
نضّر الله زمانا لم يزل لك يا أوحده يثني الوساده
أيها المشهود بالفضل له بين أعلامٍ وساداتٍ وقاده
عادة الرحمن عادت بالهنا لك والخير وكم لله عاده
فتقبل وافد السعد الذي خص بالإقبال من قبل الولاده
يا له من وافدٍ سوف ترى غرر الأحكام منه مستفاده

(السمرجي، مخطوط، صفحة 122 أ)

5- التهنئة بالشفاء:

التعافي من المرض في زمن عزَّ فيه الطبُّ والأطبَّاء يعدُّ مغنمًا يستحق الفرحة والابتهاج، إذ يلهج الأقارب والأصدقاء بتهانيهم ووصف مشاعرهم ودعواتهم لهذا المتعافي. فهذا فتح الله بن النحاس يهنئ مريضًا بشفائه، فيقول:

زال عن جسمك الذي أمّة الفضْـ ـل به لا ضمائر وعظام
أيّ جسْمٍ يندى فتشقّ ريّا ه وتثني بالدرِّ عنه المسام
فكأنّ المسامَ أفواهُ مدْحٍ ملأتها بالدرّ قبلي الكرام
غربة الشكلِ دونها غربة الأهْـ ـل وكلٌّ به الكريم يضام
غربةٌ كالليال بالحظّ حبلى وزفيري منها تؤام تؤام
لم يضق منه وهو ضيفٌ ولكن ربّ ضيفٍ يُملُّ منه المقام
قصدتك الأعيان حتّى المعاني والمعاني من بعضها الأسقام
ثمّ زالت وأقبلت صلة الأجْـ ـر عوافٍ تحكي نداك جسام
بأبي أنت ركن فضلٍ وللكلّ (م) التماسٌ من حوله واستلام
لك همٌّ وهمّةٌ ولك الطّوْ ل وعارٌ أن لا يهمّ الهمام
أنت ممن تَضْنَى القلوب إذا اعتلّ وتَشفى ببرئه الآلام
ما بقي في الأنام والحمد لله (م) مريض إلا الجفون السقام

(ابن النحاس، 1991، صفحة 151)

وقد وجد شعراء الإخوانيّات موضوع التهاني بمناسباته المتنوعة فرصة لمدِّ أواصر الصداقة باعتماد أسلوب محايث يختلف عن الأسلوب التقليدي للقصيدة الإخوانية المباشرة، إذ يزاوج الشاعر بين التهنئة وإطراء الصديق المهنّأ.

6- التهنئة بزيارة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم:

كان السفر إلى المدينة المنورة لزيارة قبر النبي صلى اللّه عليه وسلّم والصلاة في مسجده مشقة لا يستطيعها ويتحمّلها الكثيرون، وقد أوجبت حين تحققها التهنئة.

بعث الشاعر محمد بن خليل الأحسائي[1] إلى القاضي أحمد بن عيسى المرشدي[2] يهنئه بزيارة النبي صلى اللّه عليه وسلّم:

زيارة رفعتها للقبول يدٌ ... وسفرةٌ أسفرت، في طيّها مدد
يهنيك زورة خير الخلق في رجبٍ ... يا من ربيع يديه دائمًا لبد
اللّه والشافع المختار قد نظرا ... إليك والركب إذ سايرته سعدوا
أخلصت للّه في هذي الزيارة إذ ... شددت وجناء لا تشكو إذا تخد
وفزت في لثّم أعتابٍ مقرّبةٍ ... إليه قوم بها في ربهم حمدوا
نعم لكم ذمّةٌ منه بتسميةٍ ... يهني محمد من ذي الحمد ما يجد
قد سرت للّه سير الصالحين إلى ... نبيّه وعلى الألطاف تعتمد
قصدت سوح إمام الرسل سيدهم ... غوث العباد إذا في حشرهم جهدوا
ورمت من فضله فضلًا تزيد به ... فضائلًا هي في عليائك السند
طابت بطيبة أوقات الأولى قصدوا ... تقبيل تربته والخير قد وجدوا
هبّت عليهم نسيمات الرضا سحرًا ... فزال عنهم لهيب القلب والكمد
زاروا جسومًا وزرنا نحن أفئدةً ... في سبسب الوجد والأشواق تطّرد

(1) هو القاضي محمد بن الخليل الأحسائي المكّي، تقلّد منصب القضاء بالطائف، ملمّ باللغة والنحو والعروض. (ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 227) (الخطّي، 2005، صفحة 249 ج2)

(2) هو القاضي شهاب الدين أحمد بن عيسى المرشدي، ولي القضاء بمكة، شاعر، توفي بمكة المكرمة سنة 1047هـ. (ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 92)

بشراك يا زائر المختار لا برحت ... عليك منه مبرّاتٌ سمت ترد
لا زلت تقصده ما سار زائره ... إليه في كلّ عامٍ نجمه يقد
(الخطّي، 2005، صفحة 348)

هـ- الاستنجاز:

طلب الحوائج واقتضاؤها شأن اجتماعي له أصول وأدبيات، حيث يتعيّن على الشاعر إذ ذاك أن يختار الظرف المناسب والشخص الذي يُتوسّم فيه تلبية طلبه وقضاء حاجته، والاقتضاء الحسن المهذّب يسميه القدماء لطيف الاستمناح، ويرون أنه سبب النجاح في تحقيق المطالب، وقد أفردت أمهات الكتب أبوابًا خاصة لهذا المعنى. [1]

بعث جعفر الخطّي قصيدة إلى بعض أصدقائه يستنجزه حاجة، فقال:

قل لأعلى الورى محلًّا ورتبةْ ... وأجلّ الأنام قدرًا وأنبهْ
والكريم الذي بنى لذوي الآ ... مال في ساحة المنامة كعبهْ
وأبوه من قد علمنا وأمّا ... أمّه فهي بالبتولة أشبه
خيّرٌ بين خيّرين تربّى ... طاهر العرض عن خنا ومسبّه
رحم الله والديه وأبقا ... ه بقاء الدنيا وأعلى كعبه
إنّ قوما من الأحبّة عندي ... وأعزّ الورى عليّ الأحبّة

(1) انظر: أدب الاقتضاء واستنجاز الحوائج- مدلولاته الخلقية في الشعر الأموي، الخطيب، بشرى محمد علي إسماعيل، مجلة الآداب، جامعة بغداد، (إسماعيل، 1997، صفحة 88)

وببيتي ما شئت والحمد لله ... ولكن ما فيه حبّة شلبة
ودعاني إلى استماحتك الودّ (م) الذي قد علمته والصحبة
فلئن جاء ما التمست فشكرًا ... ولئن كان غير ذاك فغضبة
ورمى الله من يعاديك يا را ... شد أمّا بحبَّة أو بجربة
فلئن تاب بعد ذاك وإلا ... فرماه بطعنةٍ أو بضربة
ومن اغتاظ من دعائي ولم يرْ ... ض بما قلت فيك فهو ابن قحبة

(الخطّي، 2005، صفحة 58 ج2)

وللخطي وقد استعطى بعض إخوانه تتنًا (تبغًا) فأبطأ عليه، فعاتبهما مداعبًا بقوله:

يا طرس قل لخليليّ اللذين هما ... كالعين لي في اجتلاب النفع والأذن
يمنى يديّ ويسراها ومن ملكا ... رقّي بما أسلفا عندي من المنن
هذا يميني إذا كان الدفاع وذا ... يسراي إن أستعن يومًا بها تعن
السيّد النّدب درويشٌ وصاحبه ... جمالُ عطّارة الأمصار والمدن
أُنْسُ المجالس نجم الدين أطرب مَن ... شدا ومن بمراعاة اللحون عُني
هداكما الله إنّي ما صحبتكما ... إلا وأرجوكما عونًا على الزمن
ولا لبستكما في كلّ نائبةٍ ... إلا لكونكما من أحصن الجنن
فما لي اليوم أستعطيكما تتنًا ... وهان لا بارك الرحمن في التتن
فتجبهاني بردٍّ لا يقوم له ... صبري ولا يتقضّى عنده حزني
ما كان عذركما قولًا لأسمعه ... فإنّ تِتْنَكُما من أعظم الفتن
لو سمتمانيه بيعًا كنت جئتكما ... سعيًا بما شئتما فيه من الثمن
إنّي لأنشد إذ خيبتما أملي ... بيتًا لبعض ذوي الألباب والفطن
ما كنت أول سارٍ غرّهُ قمرٌ ... ورائدٍ أعجبته خضرة الدّمن
وقاكما الله عتبي إنّ أيسره ... لا تستقرّ عليه الروح في البدن

وسلّم الله ربي كلّ شارقةٍ عليكما ما شدت ورقاء في غصن

(الخطّي، 2005، صفحة 61 ج2)

وكتب محمد بن خليل الأحسائي إلى القاضي تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المالكي[1] مستهديًا نعلًا:

قاضيَ الشرع فقت كلّ الأناما بحجى ثابتٍ وعزّ قدامى

وذكاءٍ يعيد كلّ ذكيٍّ واطّلاعٍ يخجّل النّظّاما

إنّ أهل الكمال عطلٌ وتاج الد (م) ين تاجٌ يزيّن النُّظّاما

من أناسٍ في بطن مكة ساروا إذ غدوا يمنحون فضلًا لهاما

زيّنوا منصب الرياسة والفضْـ ـل بفضلٍ ومنطقٍ لا يراما

مذ حللت الحجاز ضاء ومذ غبْـ ـت رأينا عليه حينًا ظلاما

كلّ وقتٍ لم ننس ذكرك فيه فاحفظن للمحبّ منك الذماما

واذكرن حاجة المحب وإن ركّ (م) اذّكاري لها فحاشا المقاما

فأرسل الشيخ تاج الدين بالنعل مع قطعة شعرية يمازحه فيها:

وصلت رقعة البريد على ما كان في طيّها مخبًّا فقاما

وهي في كفّه يفكّر فيها أيرى ذروةً لها أم سناما

أم يخلّي سبيلها في عفاء ليرى أنّها تقيم النظاما

وإذا احتجتها ليوم نزالٍ فحميمي يكون فيها إماما

زينة يوم زينة وهي في الكفّ (م) سلاحٌ إذا أردنا اللطاما

(الخطّي، 2005، صفحة 249 ج2)

(1) هو القاضي تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري المدني المالكي، قاض أديب، من أهل مكة أصله من المدينة، توفي سنة 1066هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 82 ج 2)

ويجعل محمد خليل السمرجي في قصيدة لامية المقدّمة تتناسب مع الباعث على كتابة القصيدة وهو الاستنجاز، وأتى ذلك أشبه بالمعادل الموضوعي الذي يستطيع من خلاله تمرير أحاسيسه، ووصف مدى إخلاصه وتعلقه بالمحبوبة، وذلك هو حال الشاعر مع صديقه المرجو عطاؤه، القصيدة مرسلة إلى القاضي محمد بن مشحم يستنجزه، ويضمن الشاعر قصيدته بعض المعاني التي يبثها -عادة- الحبيب إلى حبيبته في لغة الغزل التقليدي، حيث العذاب من الصدود وطلب الوفاء بالعهد والوعد، وأداء الحقوق التي يوجبها الحب، يقول:

ما على المحسنين في الجود خلّه ... لو شفوا غلّة الفؤاد بنهله
وأذاقوا حلاوةَ الوصلِ صبًّا ... سكب الدمع قلّةً بعد قلّه
شهد الله ما سلوت ولا أذْ ... نَبْتُ ذنبًا ولا أتيت بزله
وأرى الأمر واضحًا واضطراري ... عجبًا لاختيار هذى الأدلّه
أتلظّى بنار وجدي هيامًا ... بالموالي وما ظفرت بخُلّه
وحقوقي أكيدةٌ مع أنّ الـ ... ـغير يَرْوى وما شفت لَيَ غلّه
يا لجرمٍ سوى تَخَلُّف حظٍّ ... عقلته نوائب الدهر ضلّه
أتراني أسأت في حسن ظنّي ... بكمُ والوفاء فيكم جبلّه
والمحّب المحّب إن رام أمرًا ... لم ينل من نجاحه غير مهله
سادتي سادتي حنانًا وعطفًا ... بمحبٍّ مضنى الفؤاد مدلّه
لي فيكم أجلى المذاهب في الحبّ (م) وأعلى الأديان فيمن تألّه
يا إمام الهدى ومن عقد الملـ ... ـك عليه من الخلافة ظلّه
أنت في الملك أم على الفلك الأطلـ ... ـس أم في الشموس أم في الأهلّه
أنت في الكون أم على العالم العلـ ... ـوي إمامٌ وللملائك قبله

حار فهمي في كنه ذاتك والأو صاف ضاقت مكانةً ومحلّه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 45 ب)

ويستنجز السمرجي القاضي يحيى السحولي لقضاء أغراض لوالده، فيعتمد ديباجة الغزل مقدّمة للقصيدة ليتخلص إلى غرضه، فالجامع بين الغرضين الحب والغرام:

أحسن المحسنون يا عزّ جمله فبكائي على الأسى منك ضلّه
وأرى الحق لازما لي وغيري يتقاضاك خلّة بعد خلّه
وأراني إذا تقاضيت أمرًا صدّني من شريعة الحبّ مهله
ما لذنبٍ لكنّما حاجة الصبّ ترى صعبةً وإن هي سهله
في سبيل الغرام قلب محبٍّ في هواكم قامت عليه الأدلّه
ما تعودت منكمُ ذا التجنّي والتجنّي في شرعة الودّ مُثْلَه
ما تبدّلت عنكمُ بسواكم أأروم الهدى وأجنح ضلّه
حبكم مذهبي ومعنى هواكم لي أنّى اتّجهت دينٌ وملّه
أيّ عذر بعد انتصارك للإســـ ـلام في سدّ خلتي وتعلّه
نال منّا ذا الدهر حتى لكدنا بعد عزّ الغنى نصير أذلّه
وتمنّى منّا الأُطيفال واليا فع والشيخ موتةً مشمعلّه
ليس هذا شأن الكرام ولكن خَلّةُ الحظّ لا تسدّ بخُلّه
يا عماد الهدى وأيّ عمادٍ أنت للدين في الأنام وظلّه
قد تضرّبت في أموري فهلّا تصطنعني يا ابن السراة الأهلّه
فأعدني بفرحةٍ فبقلبي من ثنائي الخليل أعظم شغله

(السمرجي، مخطوط، صفحة 46 ب)

وتتعدّد مطالب الأصدقاء من بعضهم بعضًا وتتنوّع، فهذا الداغستاني يذكر في اللآلئ الثمينة أنّ عبد الغني الحلبي المدني[1] تلقّى أبياتًا وهو في مدينة ينبع يطلب صاحبها منه إرسال حوت[2]، والأبيات هي:

مولاي يا عبد الغني ... يا ذا الصفات الأمجديّة
حزت اللطائف كلّها ... إن تبدُ أو كانت خفيّة
النون هذا وقته ... فانعم بأكلته الشهيّة
وابقَ ودم في نعمةٍ ... ما طار طيْرٌ في عشيّة

فأجابه عبد الغني بقوله:

أسقيطُ طلٍّ سحرةً ... حلّ الديار الينبعيّة
أم تلك ليلى أسفرت ... فأرتْ صباحًا في عشيّة
لا بل قريضٌ صاغه ... حاوي الصفات الألمعيّة
ذو المجد والخلق السنيّ ... روح النفوس الكسرويّة
وافى فأحيى ميّت الـ ... أحشاء درّي التحيّة
ورّيت بالنون الذي ... أضحى تكشّفه الرويّة
فغدوت مسرورًا وكدْ ... ت أصيد حوت الأعلويّة
وسألت صنْوك ما طلبْـ ... ـت البحر أعني ذا الحميّة
فتسابقت حيتانه ... كيلا تكون لك الأبيّة
فاخترت منها مهديًا ... مستعفيًا شيخ الطويّة

(1) ممن ترجم لهم الداغستاني في كتابه اللآلئ الثمينة، واقتصر من شعره على هذه الإخوانية مع الداغستاني. (الداغستاني، 2009، صفحة 218)

(2) الحوت: السمك.

فـاقـبـلـه وقّـيـت الـــردى واعـــذر أُخـيّـك في السجيّة
واســلــم ودم فــوق الـسـمـا ك تجــرّ ذيــل الأمـجـديّـة
مـــا حـــنّ مـشـتـاقٌ إلـى ســاحــات وادي الـعـنـبـريـة

(الداغستاني، 2009، صفحة 219)

وقد يكون الاستنجاز بطلب الرد على قصيدة إخوانية كما فعل الشاعر محمد بن محمد اليزيدي[1] من أهل كوكبان الذي أرسل قصيدة إخوانية للمقحفي مذيلها بقطعة نثر، وعندما استبطأ الجواب كتب له يقول:

يا تاركًا لجواب الصبّ حين رأى بمقلة النقد شعري غير مطبوع
هلاّ جعلت فدتك النفس محتسبًا حبلي بحبلك موصولًا بمقطوع

فأجاب المقحفي مستهلًا قصيدته بمقدمة غزلية لا تعدو كونها معادلًا موضوعيًّا لحالته:

مطلع البدر في سماء فؤادي نـوره سـاطـعٌ بـأرض ودادي
قد بدا في دجى الغدائر حتّى ظـفـروه مـن أعـيـنـي بـالـسـواد
قـمـرٌ قـلـبـه بـفـاتـك لحـظٍ عـاد لـي منه منيتي ومـرادي
طـرت شـوقًـا لـمّا رنـا بعيونٍ فـتـكـت مـن مـراضـهـا بـحـداد
سـحـرت قـيّـدت تـولّـت فأدلت لبّ قلبي العذاب طول السهاد

إلى أن يقول متخلّصًا:

قـد كـسـاه الجـمـال ثـوب دلالٍ دلّـنـي أنّ حـبّـه في ازديـاد
زادنـي بالوصال شـوقًـا وحبًّا وولـوعًـا وكـم لـه مـن أيـاد

(1) هو محمد بن محمد اليزيدي، عالم أديب، من أهل كوكبان، ولد سنة 1126هـ، وتوفي سنة 1191هـ. (المقحفي، 2008، صفحة 126)

قلت: زدني فقال: يغنيك عنّي ... مغرمٌ طال عهده بالرقاد
في مليحٍ بخدّه النار والنو ... ر وماء اللجين شافي الصوادي
كلّ لبٍّ إذا تأمّل فيه ... ضاحكٌ من تزاحم الأضداد
شعر بدر الأنام بدر الشعر ... مضيء في جنح ليل المداد

(المقحفي، 2008، صفحة 126)

و - العتاب:

العتاب كما قيل صابون القلوب، وهو المعوّل عليه لإزالة ما يشوب علاقات الأصدقاء من شوائب، وشاعر الإخوانيات حين يعاتب صديقه يؤكّد على عمق الصداقة، ويكون ذلك فرصة للتواصل الإخواني المنشود.

يعاتب الشاعر الحلبي المدني فتح الله بن النحاس - الذي عانى من الغربة متنقلًا بين البلدان - صديقًا له، فيقول:

بِكَ التأم مولاي شَعْبُ المنى ... فدام لك السعد طول الدوام
طلعت بمصر بعيد الغيا ... ب عنها طلوعَ هلال الصّيام
فهل يسع العين أن لا ترا ... ك وتقنع بعد الضّيا بالظلام
صرفتُ كثيرَ التفاتي إليّـ ... ـك وتعرف أنّي كثيرُ الغرام
وما بي غرامٌ لغير العلا ... ولا لي اشتياقٌ لغير الكرام
فكيف قضيت لنا بالبعاد ... وعَدْلُك قد شاع بين الأنام
وكيف انبعاثك من مجلسٍ ... وليس به مطربٌ من كلام
وما نافعٌ قرب دار الهوى ... ومن دونها مانع الاحتشام
فإن ترني فبعينٍ أرا ... ك فإنّي أراك بعين التّمام

وبـــاللّه إن لـــم يـكـن بـالـكـلا م ودادك لـي فليكن بالسلام

(ابن النحاس، 1991، صفحة 148)

وفي معاتبة الشاعر الناصر بن عبد الحفيظ الشريف ليحيى بن أحمد الشريف لتأخره عن الدرس، لشغل عرض له دلالة على أن الشعر الإخواني تحوّل إلى لغة تواصل بين هؤلاء العلماء الشعراء، يقول:

أحبابنا ما لهذا الهجرِ من سببِ وما الذي أوجب الإعْراضَ وا عجبا

يمضي الزمان ولا نحظى بقرْبِكُمُ على الجوار ومؤن الجار ذا قُربى

وليس شيءٌ على المشتاق أصعب من بُعد اللقاء إذا مشتاقه قربا

فصانك اللّه يا سبط الأكارم أن يكون ودّك للأحباب مضطربا

هذا وإنّي لأدرى أنّ قصدك لي وأنت معْ ذاك شيخي عكس ما وجبا

لكنّه لم يكن منّي لحقّكمُ جهلٌ ولكنّ عذري عنك ما عزبا

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 372 ج3)

ويبدو أنّ انقطاع الشاعر الأديب عن مراسلة زميله شعرًا ذنبٌ يستحقّ العتاب، يكتب ابن معصوم إلى عفيف الدين عبد اللّه بن حسين الثقفي[1] قصيدة يظهر أنه يعاتبه على انقطاعه عنه:

أَنَاسٍ عفيفَ الدين أم أنت ذاكر عهودًا سقتهنّ العِهادُ البواكر

ومثلك من لم ينس عهدًا وإنّما هو الدهر لا يُلفى على الدهر ناصر

وما أنت ممّن يُبخس الودُّ عنده ولكن قضاءٌ أوجبته المقادر

أرومُ لك العذر الجميل مصحّحًا وفاك وقد كادت تضيق المعاذر

(1) هو عفيف الدين عبد اللّه بن حسين بن جاشل الثقفي، من قبيلة ثقيف، ترجم له ابن معصوم في السلافة، وأورد له نصوصًا شعرية منها إخوانيات مع ابن معصوم ومع والده. (ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 31)

أُعيذك أن أمسي لودّك عامرًا ويصبح ودّي وهو عندك داثر
أبى لك أصلٌ في المروءة طاهرٌ وفرعٌ بأنواع الفتوّة ظاهر
وإن تُنْسِكَ الأيّامُ عهدي فإنني وحقّك للعهد القديم لذاكر
إليك أخا الهيجاء نفثة مُوجَعٍ رآك لها أهلًا فهل أنت شاكر
ودم وابْقَ واسلمْ ما تألّق بارقٌ وهبّ نسيمٌ واستهلّت مواطر

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 186)

ويعاتب الشاعر علي البيتي[1] الشيخ عارف حكمت لأنه مرَّ به الشيخ في المسجد الحرام ولم يرم عليه السلام، فقال:

لِمَ التّجاهل يا عارفُ ويا ليت شعريَ ما الصارف
منعتَ السلام بلا موجبٍ وأهملت ما شَرَطَ الواقف

فأجابه الشيخ بقوله:

أيا بيت مجدٍ بلا طائفٍ سواء به البادِ والعاكف
قَدِمْنَا حِماكم وما زرتنا فأهملتَ ما شرط الواقف

(الحضراوي، 1996، صفحة 96 ج 1)

تستغرق مقدمة قصيدة تبدو للوهلة الأولى غزلية ثلثي قصيدة إخوانية يوجهها السمرجي إلى القاضي يحيى السحولي، إذ يضفي العتاب الغزلي على هذه المقدمة، وهو تقليد معروف يعتب فيه الحبيب على حبيبته، لكن العتاب هنا ينبي عن عتاب مبطّن لهذا الصديق، لم يشأ أن يبرزه السمرجي بل عمّى عليه

(1) هو علي بن محمد البيتي باعلوي، ولد في المدينة المنورة سنة 1115هـ، أديب شاعر تولّى وزارة لشريف مكّة، توفي سنة 1175هـ. (الداغستاني، 2009، صفحة 124) (الأنصاري، 1970، صفحة 127)

وألبسه ثوب الغزل التقليدي:

برّدت مضجع أشواقي من الحُرَقِ ... بسلوةٍ عنك لم يسمح بها خلقي
وَدَكَّ طوْرَ اصطباري منك يا كبدي ... نورُ التجلّي فلم أصعق من الفرق
فلِمْ تَصدُّ ولِمْ أُذنبْ ولِي وَلَهي ... وَلَمْ ترقّ ولِمْ تَجْفو ولَمْ أُطق
سَلِ الدجى غير مأمورٍ يجبْك بما ... أسرّ من نار أشواقي ومن حرقي
واستخبر النجم عن مضناك هل عثرت ... أقدامه في السرى إلا على حدقي
أرعى الكواكب كي تحنو وغاية ما ... يرضيك إحراج صدر الشيّق القلق
كن كيف شئت فإنّي قد صبأت على ... حبّي لما شئت واعذرني على خلقي
وألبِسُ النجمَ محمّرَّ المطارف من ... نجيع دمعيَ مصفرًّا من الأرق
والآن يا من دموعي فيه أرسلها ... مطرودةً كطراد الخيل للسّبق
عطفًا على مهجةٍ ذابت عليّ أسى ... لا تستقرّ على حالٍ من القلق
ومقلةٍ ما انثنت إلا إليك بكا ... إلى خداعٍ تمنّى الطيفَ بالأرق
فاصدع بأمرك لا خلقٌ أحقّ بإصـ ... ـفائي سواك وربّ المنظر الأنق
العالم العامل الحبر الذي انتظمت ... به العلوم انتظام الدرّ في نسق

(السمرجي، مخطوط، صفحة 42 ب)

وفي قصيدة تشي قافيتها وحرف رويّها بباعث نظمها حيث الشين والواشي، أرسلها السمرجي -كما يذكر- إلى صاحبه أبي بكر معبد[1] سنة 1163هـ:

رويدك لا تكن أذنًا لواشي ... فتقنع والقناعة للمواشي
فتقنع بالسلوّ عن التصابي ... وتسلو عن حبيبك بالمعاش
وما خَلَعَ الصبابةَ غيرُ عارٍ ... يرى فضلَ الوفا حسنَ الرياش

(1) لم أعثر له على ترجمة.

بروحي من أحالَ النجمَ قرطًا ... لـه خفقـانُ قلبـي وارتعاشـي
يتيـهُ بعـارضِ الحسـن المفـدّى ... وآخـر تحـت ظلِّ الصـدغ ناشـي
تَمُـتُّ جفونـه نسـبًا لكسـرى ... أنـو شـروان والخـالُ النجاشـي
غـزالٌ للغـريم بـه نمـوٌّ ... وللسـلوان مـن قلبـي تلاشـي
مُنَـى الأقمـارِ أن تُلقـي[1] عليـه ... غشـاءً والشـموس تـرى غواشـي
ومـا بالجفـن مثـل عِـذار خـدٍّ ... رقيـقُ النَّسْـجِ ملتهبُ الحواشـي
يمـورُ بـه سـحابُ الحسْـنِ مـورًا ... فذاك الرَّشْـحُ من أثرِ الرشـاش
لئـن حسـد الفـؤادَ عليـه طـرفٌ ... لقد عاض السـقامُ به انتعاشـي
وإن طـارت بوجنتـه السـويدا ... فضـوءُ النـارِ مهـوى للفَـرَاش
أخالـط فيـه بعضـي خـوف كلّـي ... وأقنـع بالتململ في فراشـي
مخافـة أن ينـال النـاس منّـا ... فأغـدو الدهـرَ ذا عقلٍ مطـاش
وأجـبن عـن تلاقيـه حيـاءً ... وأهتـف بالوصـال ولا أحاشـي
وقـد يعتـاض عـن ضعـفٍ قـواء ... ومـن خـورٍ يكـون ثبـات جـاش
فيـا بحـر العلـوم وكلّ كهـلٍ ... يعبّـر عـن عـلاك وكل ناشـي
أجـز مثّـل لنـا صنعًـا بوشـيٍ ... مـن الآداب لا وشـي القمـاش
ونظـمٍ حـق منشـيه التسـامي ... إلـى فلـك الثوابـت بانكمـاش
ليعلـو مـن هـلال الأفـق سـرْجًا ... وينشـد راكبًـا والدهـر ماشـي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 / أ)

ويعاتـب العالـم الشـاعر محمـد بـن علـي الشـوكاني[2] أحـد أصدقائـه فيقـول:

(1) الياء من حقّها النصب، لكن الشاعر تجاهله ليسلم الوزن.

(2) هـو محمـد بـن علـي بـن محمـد الشـوكاني، ولـد سـنة 1173هـ، فقيـه مجتهـد مـن أكبـر علمـاء اليمـن، مـن أهـل صنعـاء، ولـي قضـاء صنعـاء سـنة 1229هـ، لـه مؤلفـات كثيـرة، تـوفي بصنعـاء سـنة 1250هـ. (الزركلي، 1992، صفحـة 298 ج 6)

فؤادك يا ابن ودّي من حديدٍ ... وصدّك قد تجاوز كلّ صدّ
جَهَامُ سحابِ وصلِك ليس يُرجى ... لها مطرٌ ولا قهقاه رعْد
سنون قد تقضّت في مِطَالٍ ... بلا حفْظٍ لعهدٍ أو لوعْد
وصالٌ دون علمٍ ثمّ بَيْنٌ ... طويلٌ ما له حصرٌ بعدّ
فيا قلبًا تقلّب في فنونٍ ... من التسويف عدٍّ عن التعدّي
ودعْ عنك العقيقَ وساكنيه ... وإن كان العقيقُ مثارَ وجْدي
وخذْ بدلًا به سكّانَ نجدٍ ... وإن لم يشفِ ما بك أهل نجد

(الشوكاني، 1986، صفحة 142)

وقد يكون العتاب من الشيخ للتلميذ الذي ألف قربه وتلمذته لتجبره الأيام عن مفارقة شيخه الحبيب، فهذا الشيخ عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي العماني[1] يعاتب تلميذه عامر بن خميس بن مسعود المالكي[2]، يقول:

أعامرُ أنت عندي خيرُ صاحبْ ... وأنت فتًى عددتك للنوائبْ
أترحل عن أخيك على اختيارٍ ... وتتركني بلا قارٍ وكاتب
لقد ضاق الفضاءُ على خليلٍ ... غدا بعد الأحبّة دون صاحب
لئن لم تأتني في كلّ يومٍ ... لاعتمد الرحيل على النجائب
وأضرب في نواحي الأرض شرقًا ... وغربًا والجنوب وكلّ جانب

(الخصيبي، 1994، صفحة 19 ج 3)

(1) هو العلامة المحقق أبو محمد عبد الله بن حُميد بن سلوم السالمي، ولد ببلدة الحوقين من أعمال الرستاق سنة 1286هـ، له مؤلفات كثيرة. (الخصيبي، 1994، صفحة 10 ج 3)

(2) هو أبو مالك عامر بن خميس بن مسعود المالكي، قال عنه أستاذه عبد الله بن حُميد السالمي في مرض موته: لا أخاف عليكم وَهْنًا وعالمكم عامر بن خميس. (الخصيبي، 1994، صفحة 19 ج3)

وقد يأتي العتاب في صورة اعتذار، ومثاله ما أرسله علي الفرضي[1] لعمر الداغستاني:

ألا يا سراج الدين يا كهف ملجأٍ ... ويا غوث ملهوفٍ دهته النوائب
ويا بحر جودٍ فاض من فيضه الندا ... فمن أَمَّهُ حقّت لديه المطالب
فيا سيّدي ما بال قصدي لديكمُ ... غدا لم يساعف حين تقضى المآرب
فهل ذاك من [ذنبٍ] من العبد قد بدا ... فلا توجبوا الهجران فالعبد تائب
أقيلوا عثاري إن أسأت فإنّكم ... لَمِنْ أهل مجدٍ هم خيارٌ أطايب
ولا تشمتوا فينا عدوًّا معاديًا ... فصابونُ أحشاءِ الصحابِ التعاتب
وهنئتموا بالحلم والفضل والنهى ... وعند إله العرش تُعطى المواهب

فأجابه الداغستاني بقوله:

أبا الحسن اعذرني فإنّي آيب ... وسامح محبًّا للسماح يراقب
فإنّك أهل العلم والفضل والنهى ... وذو هممٍ تحكي نداك السحائب
بعثت بأبياتٍ إليّ كأنّها ... من الحسن في أفْقِ البيان كواكب
زعمت بها أنّي سلوت الوداد إذْ ... تأخّرت عنكم لا ومَنْ هو واهب
فكيف معاذ اللّه أصبح ساليًا ... لخدني الذي لي معْه تصفو المشارب
ولكنْ صروفُ الدهر أضحت تعوقني ... بأنْ ألتقي معْكم وتُقضى المآرب
وإنّي لمشتاقٌ إليكم ومهجتي ... وحقّ إلهي للّقاء تطالب
وما كان تأخيري من الهجر والقلى ... ولا القلب في إخلاصه الودّ كاذب
وكلّ الذي أبصرتمُ من تأخّري ... لأمرٍ به عقلي من الهمّ غائب

(1) هو علي بن سعد بن عبد اللّه بن إبراهيم الحنبلي الشرقي الفرضي نسبة إلى علم الفرائض الذي برع فيه جده عبد اللّه، ترجم له الداغستاني في اللآلئ الثمينة، وأورد له نصوصًا منها إخوانية مع الداغستاني. (الداغستاني، 2009، صفحة 333) (الأنصاري، 1970، صفحة 386)

وهذي الدنى ليست تجيء على الهوى ... ولا تشتهى أن قد تُنال المطالب
تكدّر ما بين الأحبّة إن رأت ... على راح صفوٍ قد تصافت حبائب
وقوليَ صدقٌ ليس فيه تخالفٌ ... لأني امرؤ قد طال منّي التجارب
فسامح ولو أخطأت يا خير صاحبٍ ... فذلك عند الأكرمين مناقب
فإني خجول منك أقوى خجالةٍ ... وفي أضلعي من شدة الشوق واجب
فلا زلت أهلًا للسماحة والعلا ... وربّ البها والعزّ ما حنّ صاحب

(الداغستاني، 2009، صفحة 333)

ز - الباعث العلمي:

اصطبغ شعر الأدباء الشعراء في هذا العصر بالعلميّة، فالشعر الفصيح لا يستطيع نظمه باقتدار إلا من نال حظًّا وافرًا من العلم، والمتصفّح لتراجم هؤلاء الشعراء يجد جلّهم من العلماء الإجلاء، فلا غرو أن تجد المسألة العلمية حاضرة فيما يتبادلونه من أشعار إخوانية، وقد يكون الباعث العلمي حقيقيًّا مما تمليه حاجة طالب العلم الذي يظلّ ينشد ما يجيب ويروي غليله العلمي، أو قد يكون ذلك من باب اتخاذ الذريعة للتواصل مع عالم شاعر ومدِّ أواصر الصداقة إليه.

1- الأسئلة العلميّة:

ذكر النابلسي في رحلته أن خير الدين بن تاج الدين الياس[1]

(1) هو تاج الدين بن جلال الدين إلياس زادة، ولد سنة 1144هـ، خطيب وإمام ومدرّس بالمسجد النبوي، ذكر الأنصاري أنه كان حيًّا عند تأليفه التحفة. (مجهول، 1984، صفحة 32) (الأنصاري، 1970، صفحة 41)

أرسل له سؤالًا منظومًا، وصورته:

يا أيها المولى الذي في أسره ... رقّ القريض محرّزٌ من فكره
يا أيها البحر البسيط الكامل ... العالم النحرير بل والعامل
يا محييًا بدرسه ما اندرسا ... من كلّ علمٍ معجزٍ من درسا
أعني الإمام العالم العلامة ... العمدة المحقق الفهّامة
شمس العلا عبد الغنيّ الحنفي ... المرتجَى إذا أُرتجي ما قد خفي
قال الأصوليون قولًا محكما ... مولاي في مفهومه قد حكما
إذا اختلافات على أقوال ... من أمّة الإسلام في أحوال
أتت فما عدا المقول باطل ... وعنه جيدٌ للصواب عاطل
فليت شعري ذا اختلاف مطلق ... أم في زمانٍ واحدٍ قد حققوا
إن مطلقا فذا اختلاف باقٍ ... إلى القيام دمت في إشراق
وذا اختيار شارح المنار ... وغيره من سادة الأخيار
فلم يكن للأربع المذاهب ... به انحصار مانع المذاهب
وإن زمانًا واحدًا فقد بطل ... قول الإمام الشافعيّ ذي العمل
لأن أبا حنيفة النعمان ... ومالكًا اتّحدا زمانا
فباختلاف منهما قد بطلَ ... مذاهب السوى وإن قد عدلا
إن قلتم ذاك اجتماع الصّحَب ... كما به الأصول حقًّا تنبي
قلنا نعم لكنّه قيل وَرَد ... وبعضهم أعرض عنه بل وَرَدّ
أو قلتمُ لثالث القرن انتمى ... هذا المقال وسواه لا تما
لكنّ قول البزدويّ وغيره ... إثباته طرًّا لآخر دهره
فاكشفوا عن وجهه سدف الخلل ... وارفعوا عن درّه صدف الخطل
وابدوا جوابي فالجوى بي مدمع ... لي الجواب من أمور تفظع
لا زلتم للعلم هالة بدره ... ودمتم للدهر ليلة قدره

قد قال ذاك العبد خير الدين ... الياس ابن الشيخ تاج الدين
الماتريديّ خطيب المسجد ... إمامه مدرّس بل مبتدي
ثم الصلاة للشفيع في القيام ... وآله والصحب طرًّا والسلام

يقول النابلسي: « فأجبناه عن سؤاله ذلك، وكتبنا إليه في الحال لما هنالك، فقلنا»:

يا أيها الشيخُ الإمامُ الماجدُ ... ومن به تفتخرُ الأماجد
ويا خطيب المسجد الحرام ... مسجد طه سيّد الأنام
سألتني يا فاضل الزمان ... ويا سليل السادة الأعيان
عن اختلاف الأمّة الذي وَرَدْ ... في الحكم شرعًا بين من فيه اجتهدْ
إن كان في الحكم على قولين أوْ ... أكثر أجمعوا على ما قد حَوَوْا
معناه في عصْرٍ من الأعصار لا ... في سائر الأعصار ما بين الملا
وانظر فإنّ شارح المنار قد ... صرّح في أوّل باب قد عقد
لذكره الإجماع حيث قال في ... عصرٍ لكي كلّ العصور تنتفي
مع ذكره الأمّة أهل الطاعة ... فلم يرد إلى قيام الساعة
وقال في آخر ذاك الباب ... والأمّة انظر مقتضى جوابي
فإنه قيّدها في عصْر ... من جملة الأعصار يا ذا النصْر
فهو المراد باختلاف الأمّة ... في المتن في المنار حيث ثمّه
قال بأنّ ذاك إجماعًا غدا ... وما عداه باطلٌ حيث بدا
فلا يجوز بعده لمجتهد ... إحداث قولٍ زائدٍ فيما قصد
وكونه يلزم منه ردّ ما ... قال الإمام الشافعي في كلّ ما
أحدثه فإنه أمر عُرف ... للحنفي إذْ بهذا يعترف
معتقدًا بطلان من قد خالفه ... فيما إمامه عليه صادفه
وكون شارح المنار أطلقا ... أي كلّ عصرٍ هكذا تحققا

لا ذاك في عصرٍ يخصّ في الملا ... كعصر أصحاب النبيّ النّبلا
فإنهمْ همُ الأولى خير القرون ... أمّا اجتماع كلّ عصرٍ لا يكون
لأنه يلزم أن لا يحصلا ... أصلًا هنا الإجماع في عصرٍ خلا
إذ ما سيأتي ليس يدريه أحد ... وكلّ عصرٍ عند أهله اتّحد
وخذ جوابي عنه فهو واضح ... وهو الذي لكلّ فهمٍ لائح
فليس في كلامهم إشكال ... وزال في جوابي السؤال
والحمد لله وصلى الله ... على النبيّ ما جرت مياه
وما أتى عبد الغنيّ بالذي ... يرضاه كلُّ ذي كمالٍ جهبذ

(النابلسي، 1998، صفحة 217 ج 3)

يؤكد تساؤل خير الدين إلياس المنظوم وجواب النابلسي عليه خصوصية شعر الإخوانيات حيث يبرز الاهتمام بالمحسن البديعي وإبراز العلميّة والقدرة الأدبية، وتظهر الندّيّة في ثنايا مناقشة المسألة والإطراء المتبادل.

ويجيب الشاعر العماني القاضي أبو الأحول سالم بن محمد بن سالم الدرمكي الأزكوي من شعراء القرن الثالث عشر عن سؤال غير مستقيم نظمه، فيقول:

وافى كتاب فتى محبٍّ ذي مِقَهْ ... في الناس ربّ العرش زيّن منطقهْ
في الأمر يأخذ بالوثيقة إن عنى ... خطبٌ مخافةَ أن يُرى في موبقه
لما سعى كلٌّ إلى ما رام من ... ذا الناس كان إلى العلا ما أسبقه
منه إليّ أتى سؤالٌ عن فتى ... لعروسه الحسناء قال مطلّقة
لكن ثلاثًا قال فيه بلفظه ... هذا فأوحشه الفراق وأرّقه
ويروم منها رجعةً من بعد ما ... قد سدّ باب الردّ عنه وأغلقه

فأجبته كيف اصطيادك للتي ... غادرتها في الجوّ عنك محلّقة
فتسلّ عنها وابْغِ خطبة غيرها ... لو كنت ذا نفسٍ إليها شيّقة
فعسى بها تغدو حليف مسرّةٍ ... وعلى مرادك لا تزال موفّقه
وبقيت في الدنيا مطيعًا للذي ... يكفيك في أخراك نارًا محرقة

(الخصيبي، 1994، صفحة 120)

ويرسل الشيخ الغشري[1] سؤالًا شعريًّا إلى الشيخ جاعد بن خميس بن مبارك الخروصي يقول فيه:

عليكم سلامٌ أيها الولدُ الذي ... تسلسل من عيصٍ[2] الأكارم عيصه
فجاعدٌ الزاكي ومن كان صيده ... طيور الثنا والمجد وهو قنيصه
ومن فهمه للعلم قد صار ثاقبًا ... فلم يَخْفَ عنه عوله وعويصه
فماذا ترى يا جاعدٌ أنت من سما ... ومن للعلا نجم السماك قلوصه
إذا رمدت عين الفتى ثمّ بعده ... بياضٌ بدا في عينه وفصوصه
فماذا الذي يجلو العيون من القذى ... لأنك للحيران أنت محيصه
أفدني فأنت المرتجى حيث قد بدا ... عليك رداء المجد ثم قميصه

فأجابه الشيخ جاعد بقوله:

أقول وبوص النفس يشهد أنني ... جهولٌ فيم الطبّ لسني أغوصه

(1) هو سعيد بن محمد بن راشد بن بشير الخليلي الخروصي الشهير بالغشري، من بلدة ستال من وادي بني خروص، فقيه وأديب وناظم للشعر، عاش في القرن الثاني عشر الهجري. (السعدي، 2007، صفحة 181 ج1) (الغشري، بدون) (الخروصي، 2017)

(2) العِيصُ: مَنبِتُ خِيارِ الشجَرِ. والعِيصُ الشجرُ الكثيرُ المُلْتَفُّ. والعِيصُ الأصلُ. يقالُ: فلانٌ من عِيصِ بني هاشم: أي من أصلِهِم. (مجموعة من المؤلفين، 1972، صفحة عيص)

ولكنني أحكي الذي قد وجدته ... به من مقولٍ واضحٍ لا أحيصه
فيؤخذ فيما قيل درهمُ راسخٍ ... ودرهمُ ملحٍ أبيض البوص بوصه
كذا خمسةٌ وزنًا دراهم أسرب ... ويلغم بالفرّار لغمًا يموصه
ومن أثمدٍ قد قيل يؤخذ مثله ... كذا التُّوتيا الصافي هدي شخوصه
فكرّر عليها السجو سبعًا وسقّها ... مرارات غربانٍ وأنت تشوصه
ألا واكتحلها بعد كون جفافها ... لداء بياض العين فهي خصوصه
وإن زاد فيها داؤها لكثافة ... تَحِلّ بها حتى تكون فصوصه
فأدويةٌ أخرى تزيلهما معًا ... ولكنّ هذا الفنّ أين بريصه
لقد باد أهلوه فقادوا إلى الثرى ... ولم يبق إلا اسمه ونصوصه

(الخصيبي، 1994، صفحة 147ج 1)

ويذكر صاحب عقود الجمان عدّة أسئلة علمية وجهها الشيخ العالم جمعة بن خصيف بن سعيد الهنائي السموألي[1] لشيخه العلامة سعيد بن خلفان الخليلي[2]، منها قوله:

يا فتى قد صار للعليا وِشاح ... وتحلّى بالسجيّات الملاح
واحد الآحاد ركنٌ غيلمٌ ... لوذعيٌّ ألمعيٌّ ذو سماح
إن عنتنا مشكلاتٌ قد دجت ... صعبةً جئنا فناه المستماح
فجلاها بسنا فطنته ... فغدت منقادةً بعد الجماح
إنما أعني سعيدًا نجل خلّ ... فان فهو القطب في ذا العصر راح
ما على من قد غفا غير مصلٍّ (م) ... لصلاة الصبح حين الفجر لاح

(1) هو الشيخ العالم الأديب جمعة بن خصيف بن سعيد الهنائي السموألي، كان جيد الخط له علم بالطب. (الخصيبي، 1994، صفحة 163 ج1)

(2) ذكر الخصيبي أن جمعة السموألي الهنائي أخذ عنه العلم، وله عدّة أسئلة معه وبحوثات نظميّة. (الخصيبي، 1994، صفحة 163 ج1)

وانـيًـا لا نـاويًـا تـركًـا لها ... فصحا حـين بـدا قـرن بُـراح
فـأتـيـنـي بـجـوابٍ واضـحٍ ... مستبينٍ ظلمة الإلـبـاس ماح

فأجابه بقوله:

هـاك منّـي قولـةً مثـل بُـراح ... نورهـا للمبصريـن الحـقّ لاح
إن تكـن نومتـه في فُسـحةٍ ... لاتّصـال الوقت طولًا وانفسـاح
وهـو راجٍ قومـةً في وقتها ... ناويًـا ذلـك والحـقّ صـراح
فهـو بالعـذر هنـا أولـى إذا ... هـو صلّـى لانتبـاه وانشـراح

ووجّه إليه سؤالًا آخر:

رعيًـا لـذي العراعـر البهلـول ... طود العـلا ذي المحتد الأصيـل
بانـي أطـوم الكـرم الطويـل ... فـاتح كلّ مغلـق مقفـول
حائـز كلّ خلـقٍ جميـلٍ ... شـمس الهـدى سـعيدٍ الخليلـي
أطلعـت بـدرًا حـلّ عـن أفـول ... فانهزمـت عسـاكر الجهـول
لا زلـت ملجـأً لـكلّ غـول ... مبلّـغ الطالـب كلّ سـول
أجائـزٌ حـلّ أسـى العليـل ... بمـا دوا محـرّم محظـول
إن كان مـن مشـروب أو مأكول ... أو نحـو مـا ذكـرت مـن مقـول
وهـل تـرى براءتـي خليلـي ... مـن مـال ذي يتـم فتـى نبيـل
أو مسـجدٍ دفعـت للوكيـل ... وكيلـه الخائنـة الختيـل
تيمّـمـن بـي لَقَـم السـبيل ... وانشـق نسـيم سجسـج بليـل

أتتْك من سلامي الجميل

فأجابه الشيخ بقوله:

عـودًا لجمعـة الفتـى النبيـل ... أسـنى سـلامٍ بهـجٍ جزيـل

وقل له إذا فهمت قيلي ... ما جعل الله شفا عليل
من الحرام جا عن الرسول ... واختلف الأسلاف بالتأويل
في عاصمٍ من الردى الوبيل ... من كلّ مشروبٍ ومن مأكول
قولان بالمنع وبالتحليل ... قيسا على المضطر ذي الغليل
لأكل ميتةٍ وفي الشمول ... بعض عليها قاس بالدليل
وفي سواها قيل بالشمول ... فما عن الوبا دواء يولي
بول الغزيرية والجديل ... إن علم الإنقاذ بالتحليل
فالخلف فيه واضح السبيل ... كذا عن العلامة الخليلي
الشيخ جاعد بلا تبديل ... وقل لمن يدفع للوكيل
من ذي خيانةٍ ومن جهول ... أموال مسجد أو السبيل
أو اليتيم المكثر العويل ... فضامن مع عدم الوصول

فيهم بما قد جاء في الأصول

(الخصيبي، 1994، صفحة 163 ج1)

أرسل الشيخ العلامة عامر بن خميس المالكي إلى عبد الله بن حميد السالمي سؤالًا شعريًا يقول فيه:

ما قولكم في مشركٍ قد طلّقا ... زوجته تطليقتين واتّقى
هل ينسخ الإسلام ما طلّقه ... في شركه الذي عليه سبقا
وزوجه تكون عنده على ... ثلاث طلقاتٍ بحكمٍ ينتقى
أم حكمه حكم ذوي الإسلام في ... طلاقه من غير أن يفرّقا
بيّن لنا أحكامه عندكمُ ... فإنّ حكمه علينا انغلقا
سلام ربي وزكاته على ... مرّ الليالي نحوكم قد أطلقا

فأجابه الشيخ بقوله:

عليكم السلام يا من اتّقى ... ومن علا فوق السماء وارتقى
إنّ الجواب بابه قد أغلقا ... ولم أجده أثرا منمّقا
لكنني أقول فانظر مشفقا ... خوف الخطا فحققن ودقّقا
التوب جبٌّ للذي قد سبقا ... ولو يكون مائةً قد طلّقا
فإنّ ذا الخطاب ما تعلّقا ... عليه ما دام بشركٍ علّقا
فحال من عن شركه قد عتقا ... كحال من عن أمّه قد فرّقا
يغفر عنه كل شيء سبقا ... فاحكم عليه بابتداء مطلقا
في آية الكتاب عفوًا أطلقا ... والقيد يحتاج له من فرّقا
واستأنف الطلاق من قد طلّقا ... أو لم يطلّق من مضى موفّقا
فذا دليلٌ يدخل المطلّقا ... حيث الخطاب لم يكن تعلّقا
والحمد لله على ما رزقا ... من البيان كاشفًا ما انغلقا
ثم الصلاة والسلام مطلقا ... على الذي حاز العلا وسبقا
وآله وصحبه ما نطقا ... مفتٍ بحقٍّ في بيانٍ منتقى

(الخصيبي، 1994، صفحة 20 ج3)

قد يتلقّى الشاعر العالم سؤالًا علميًّا، فتكون الإجابة عن السؤال نثرية مجاراة لطريقة السائل حيث يرفق القصيدة مع السؤال، فالشاعر العالم محمد بن علي الشوكاني يجيب عن سؤال وصله من أحد العلماء مرفقًا به قصيدة، فأجاب عن السؤال وأردفه بهذه القصيدة، يقول:

يا ناظم الدرر البهيّة أشرقتْ ... منك القريحةُ واستنار سناها
لله ما صاغتْه لا برحت على ... مرّ الليالي ما حييت ثناها

قد حمّلتْ كفّ الجمال من العلى ... حِمْل الكلام لذا غدت بنياها
فتنافس الآداب فيه لأنّها ... لمّا انبرى للنظْمِ شاد بناها
لا زلت يا ابن محمّد في رفْعةٍ ... ما ألبست منك العلوم حُلاها
وبقيت تنشر ما طوته فتيةٌ ... الحظّ في سوق الكسود رماها
وعليك يا نجْل الإمام تحيّة ... ما نالت الآداب منك مناها
وحباك بالمنن الجسام من الذي ... أولاك ما أولاك من أولاها
وخذ الجواب على الذي حررته ... واعذر فلي شغلٌ يطول عناها

(الشوكاني، 1986، صفحة 70)

وصلت إلى محمد بن علي الشوكاني أبيات وهو في نزهة مع جماعة من أهل العلم، تضمنت السؤال عن الأوْلى عند الاجتماع، حضور كتاب أو مفاكهة الأحباب، فأجاب ارتجالًا:

إذا نظمَتْ سموط الجمع قومًا ... همُ في الناس كالدرّ الفريد
يفيضون الحديث بغير وزْرٍ ... على نمطٍ من التقوى سديد
وجاؤوا بالنظير إلى نظيرٍ ... بلا لغطٍ ولا لددٍ لديد
فذاك لديّ أولى من كتابٍ ... حكى ما قد مضى دون الجديد
وإلا فالكتاب أجلّ قدرًا ... من الهذر المعثّر والتليد
وأمّا مجلس الثقلا فدعْهُ ... وكن في قفْر بلقعةٍ بعيد
كذلك مجلسٌ فيه اغتيابٌ ... له ريحٌ حكى ريح الصديد
ونوم المرء خير من قعودٍ ... على شتْمٍ لعمرو أو لزيد

(الشوكاني، 1986، صفحة 144)

2- الإلغاز:

حظي فنّ الإلغاز والأحاجي في عصور الدول المتتابعة بعناية الأدباء واهتمامهم، فلا يكاد يخلو منه ديوان شاعر، وألفوه الشعراء أداة للتواصل مع الآخر، فأصبح مما يلحق بوسائل الشعر الإخواني.

كتب الحسين بن عبد القادر بن الناصر[1] إلى القاضي عماد الدين يحيى بن الحسين الحيمي[2] ملغزًا:

قل لعماد الهدى الجليل ومن ... كاد لفرط الذكاء يلتهبُ
ما سابحٌ في البلاد ذو قلقٍ ... ما إن له في وقوفه أرب
يتابع الخضر في شريعته ... فاعْجبْ له إنّ أمره عجب
إذا التقته السفين يخرقها ... وهو لعمر الغلام ينتهب
لكنّه في الجدار خالفه ... يزلزل الجدر وهو منتصب
ما زال ما سار في تقلّبه ... وهْو على ذاك ليس ينقلب

فأجابه محمد بن الحسن:

يا شرف المكرمات نظمك قد ... وافى إلينا وكلّه نُخب
منسبك النظم في فواصله ... كأنّما الشهد فيه منسكب
مثل عقود الجمان في نسقٍ ... تعجز عن صوغ مثله العرب
جاء على غرّةٍ فأذعرني ... كالسيل لكنّ ضربه ضَرَب

(1) هو الحسين بن عبد القادر بن الناصر بن عبد الربّ، شاعر مكثر، كان ذا رياسة ومكارم، توفي بشبام سنة 1112هـ. (المحبّي، 1968، صفحة 303 ج3)

(2) هو القاضي يحيى بن الحسين بن أحمد الحيمي الشبامي، أديب شاعر، توفي سنة 1088هـ. (المحبّي، 1968، صفحة 317 ج3)

فهو الذي أخرب الجدار كما ... إذا التقته السفين تضطرب
وهو الذي سار في البلاد فلا ... ينتج في موضعٍ له نجب
وهو لعمر الغلام منتهبٌ ... أيضا وللكهل ظلّ ينتهب
وشرعة الخضر إذ يمرّ بها ... طريقه إنّ أمره عجب
وهو مدى الدهر في تقلّبه ... وليس قلبٌ له إذا قلبوا

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 317 ج3)

وكتب محمد بن حسين القاسم[1] ملغزًا لأحمد بن عبد الهادي الحبابي المقحفي:

صفيّ الهدى والدين بلّغت كلّما ... تروم مدى الأيّام في السرّ والجهر
أبِنْ ليَ ما اسْمٌ لا يزال ملازمًا ... بني الدهر حتى يسكنوا جدثَ القبر
وحرفان منه اسمٌ لنفس تكاملت ... أياديه بالإحسان في العسْر واليسْر
وطورًا ترى الحرفين فعلًا بلا مرا ... على صيغة الماضي كذا صيغة الأمر
وطورًا ترى الحرفين حرفًا بلا مرا ... وسلْ عارفًا للنحو إن كنت لا تدري
وعينٌ له إن قدّمت قبل فائه ... وأحرزته فاخلص لذلك في الضرّ
ولامٌ له إن قدّمت قبل عينه ... فمنه وقاك اللّه يا زينة الدهر
وقلبٌ له فيه شفا كلّ مغرمٍ ... يكون لمن عيناه تنفث بالسحر

(المقحفي، 2008، صفحة 93)

يذكر المقحفي الموجّه له السؤال أنه عندما قرأ الأبيات ورأى فيها (وسل عارفًا بالنحو إن كنت لا تدري) عزم على قراءة النحو

(1) هو محمد بن حسين الحسني الشبامي، من نسل علي بن الإمام شرف الدين، ذكر المقحفي أنه كان يقرأ القراءات السبع، ويدرّس القرآن بصوت حسن، وأنه سكن آخر مدته صنعاء، وكان يتردد بين مكة وصنعاء. (المقحفي، 2008، صفحة 93)

والانصراف له بالكليّة، وترك حضور المجالس، وقال المقحفي لصاحب اللغز: اعذرني في الجواب حتى أعرف النحو، فقال له: بل أقول لك فيم هو؟ هو في (أمل) وأمل كلّ إنسان ملازم له، بلّغك اللّه مأمولك.

يدلّ هذا التعليق من لدن المقحفي على الاهتمام بشعر الإخوانيات، إذ يحتلّ الإلغاز مكانةً في هذا الفنّ، فهو ذريعة للتواصل وفضاء للمذاكرة العلميّة.

أرسل حماد الحمادي[1] إلى أبي الخير مغلباي[2] ملغزًا في (فيل):

يا سيدًا وماجدًا ... قد راق ذهنًا وصفا
ومن غدت أوصافه ... فوق الذي قد وُصفا
ومفردًا في وقته ... قد حاز فخرًا ووفا
مهما أتانا مشكلٌ ... حلّ خفاه وشفا
ما اسمٌ له ثلاثةٌ ... من الحروف الّفا
يحتاجه الشخص إذا ... ما دهره قد أسعفا
سطوته يهابها ... كلُّ شجاعٍ عرفا
بفيك إن صحّفتَه ... رأيتَه بلا خفا
وإن قلبتَ لفظَه ... كان مُعينًا مسعفا
وإن رميتَ قلبَه ... شممتَ ريحًا لطفا
وإن تكرّر لفظه ... يحتاجه من غرفا

(1) لعلّه حمّاد بن عبد الحفيظ بن حمّاد السندي، ولد بالمدينة سنة 1104هـ، توفي سنة 1180هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 190)

(2) هو أبو الخير بن أحمد بن أبي الغيث مغلباي الحنفي، ولد بالمدينة سنة 1115هـ، أديب وشاعر توفي سنة 1164هـ. (مجهول، 1984، صفحة 80)

وإن حذفت أوّلًا ... ممّا به تألّفا
وكنت قد صحّفتَه ... صرتَ عليه مشرفا
وإن تكرّر لفظُ ما ... كنت له مصحّفا
به يهيم كلّ من ... بالوجد أضحى دنفا
ومنه فاحذف أوسطًا ... وبعده فصحّفا
وإن حذفت آخر الـ ... أحرف يا من يُصطفى
ألفيته علامةً ... قال بذاك العرفا
وإن تصحّفْه يكن ... يحتاجه أهل الصفا
أبنْهُ يا من فكره ... سحابه قد وكفا
ومن غدت آدابه ... كلٌّ بها قد عُرفا
لا زلت يا مولاي في ... عزٍّ به مكتنفا

جاء اللغز في اثنين وعشرين بيتًا ليجيب مغلباي عليه بثلاثة وستين بيتًا جلّها في مدح محمد صالح حماد وقصيدته، فقال:

سحاب درٍّ وَكَفَا ... حسبي علاه وكفى
هبّت صَبا قبوله ... من نحو ذهنٍ قد صفا
وفاح من شذاه لي ... ما عُرْفه قد عُرِفا
ولاح برق الحسن في ... سمائه مستجفا
فأشخصت أبصارنا ... بما لها قد خطفا
قد شنّف الأسماع ما ... غدا به مشنّفا
بوقع لفظٍ رائقٍ ... في عقده ترصّفا
كأنه في حسنه ... بُردًا غدا مفوّفا
شبّهته كالورد في ... أغصانه لن يقطفا
أو طلعة الخشف الذي ... بدر الدجى عنه اختفى

أو كـوكـب طـالـعـه سعد السعود الظرفا
إنـســان عــين وقـتـه وعــين عــين الـعـرفـا
من لم يزل يسمو على الـ أقــران عــزًّا ووفــا
ذو الـفـضـل إلا أنّـه مـن الـظـهـور في اختفا

وجاءت إجابة اللغز طويلة سنكتفي ببعض أبياتها:

أهـديـت ممـا نـسجتْ يـد الـنـهـى لـي تحفا
لـغـزًا بـهـيًّـا صغتَه في قـالـبٍ قـد لطفا
يـرمـز نحْـو اسـم شـيءٍ (م) لــم يــزل مـخـوّفـا
لـه اخـتـصـاصٌ دونمـا ســواه يـا مـن عطفا
بـخـلـقـةٍ في رأســه يسطو بها إذا اقتفى
حــروفــه ثــلاثــةٌ [قد] قيل فيها مصحفا

(الداغستاني، 2009، صفحة 194)

وكتب محمد أمين الزللي[1] إلى حسن مصطفى البوسنوي ملغزًا في (الحبْر) الذي يكتب به:

أيها الحبر هاك منّيَ لغزًا ثمّ هات الجواب إن كنت تدري
أيّ شيء تراه حينًا جمادًا وتراه حينًا يسيل ويجري
وهو العالم الخبير بما في سالف العصر من خيارٍ وشرّ
لجميع الكتّاب ربحٌ إذا ما قلبوه وذاك في وسط شعري

فأجابه البوسنوي:

أيّها البَرُّ هاك درَّ جوابٍ حازه الفكرُ منك من قلب بحر

(1) هو محمد أمين بن حسين بن أبي بكر الزللي المدني الخطيب، ولد سنة 1188هـ، أديب له ديوان مطبوع، توفي سنة 1241هـ.(الزركلي، 1992، صفحة 42 ج6) (مجهول، 1984، صفحة 122) (الزللي، 1985، صفحة 5)

إنّ لغـزًا وافـى بـه الحِـبُّ حُـبٌّ ... راق حسْـنًا بعـين راءٍ كبـدر
جـاء حـرّ الأطـراف وهـو رقيـقٌ ... علـى سـوقٍ يبـاع دومًـا لنشـر
وتبـدّى يرجـو الكتابـة والتحْـ ... ـرير مـن أيـدي أيّ عبـدٍ حـرّ
وأتـى سـائل الجمـاد عـن السـا ... ئـل وهـو الحَبْـرُ الخبيـر بحِبْـر
ذاك شـيءٌ تصحيفـه كلّ خيـرٍ ... أمّ عليـاك لا يُشـانُ بشَـرّ
لـم يـزل قلبـه يقلّـب دهـرًا ... بـين نفـعٍ إلـى العبـاد وضـرّ
هـو حـرب العـدوّ مـع بـرح إثـمٍ ... وهو ربح الصديق مع رحب أجر
وعجيـبٌ وهـو المحـرر للـرقّ (م) ... ومـا انفـكّ وهـو في الـرقّ يجـري
كـم بتسـويده تسـوّد كتّـا ... بٌ سـموا في تبييض نظمٍ ونثـر
هـذه قطـرةٌ همـت مـن يـراعِ الْـ ... ـوصف فيـه تنهلّ مـن وبلٍ قطـر
فَبِنِقْسِ[1] الصواب اكحلْ إذا ما (م) ... ضلّت القصد عينُ عشواء شعري

(البوسنوي المدني، نسخة آل هاشم، صفحة 79)

وكتب الشاعر مصطفى القجوي[2] إلى محمد الخليفتي[3] ملغزًا:

وإلـى الأديـب اللوذعـي الأمجـد ... الكامـل الندب الأديب الأوحدي
الفاضل الشهم النجيب ومن غدا ... بـرد المحامـد في البريّـة يرتـدي

(1) النِّقْس: المداد. (ابن منظور م.، 1994، صفحة نقس)

(2) ممـن ترجـم لهـم عمـر الداغسـتاني في كتابـه اللآلـئ الثمينـة ونعتـه بالمرحـوم دون ذكـر سـنة ولادتـه أو وفاتـه، وقـد أورد لـه عـدّة قصائـد، وقـد ذكـر صاحـب كتـاب تراجـم أعيـان المدينـة في القـرن الثانـي عشـر الهجـري لشـخص اسـمه عبـد الرحمـن بـن مصطفـى القوجـوي وأورد شـعرًا لـه، وذكـر أنـه تـوفي بالمدينـة سـنة 1154هـ. (الأنصـاري، 1970، صفحـة 337) (مجهـول، 1984، صفحـة 97)

(3) هـو محمـد زيـن العابديـن بـن عبـد اللّه بـن عبـد الكريـم الخليفتـي العبّاسـي، ولـد بالمدينـة سـنة 1130هـ، كان خطيبًـا وإمامًـا ومدرّسًـا بالمسـجد النبـوي، لـه نظـم ونثـر، تـوفي بالمدينـة سـنة 1182هـ. وهنـاك محمـد بـن عبـد اللّه الخليفتـي العباسـي أيضـا شـاعر تـوفي سـنة 1130هـ. (مجهـول، 1984، صفحـة 76) (الزركلـي، 1992، صفحـة 241) (المـرادي، 1988، صفحـة 60 ج 4)

لغزٌ بدا من ذي ودادٍ صادقٍ ... في اسمٍ لذي قَدٍّ قديمٍ أملد
ما اسمٌ رباعيٌّ إذا أثبتّه ... في الرسم يا ربّ الذكا المتوقّد
فالربع منه اسم طودٍ شامخٍ ... وكذاك أول سورةٍ لم تجحد
وإذا حذفت لثالثٍ ألفيته ... ماضي فعال مقوّمٍ من مرقد
وإذا تجرّد عن أخيرٍ اسمه ... تلقاه وصفًا من قساوة جلمد
وإذا عكست الوصف يبدو عكسه ... ساقٍ يلوح بخدّه المتورّد
وإزالة الثاني له تنبيك عن ... قسمٍ تبقّى للحزين المكمد
فأبنْه فضلًا منك يا فرد الورى ... من غير مأمورٍ لسائل محتدي
لا زلت في أوج السرور ممتّعًا ... بكماله وجماله المتفرّد
ما أينعت أغصان روضة حسنه ... وتمايلت طربًا لشدْو مغرّد

فأجابه الخليفتي بقوله:

يا كوكبَ الأدب الذي أضحى بأفْـ ... ـق سما الفضائل ساطعًا كالفرقد
يا من إذا انبعثت سوابق فكره ... جارتْه بالمعنى الغريب المفرد
وافى لنا نَظْمُ البديع فخلتُه ... دُرًّا تنظّم في سلاسل عسجد
ضمّنته لغزًا بهيًّا قد غدا ... في اسمٍ رباعيٍّ لظبيٍ أغيد
فهو الذي إن زال منه تاجه ... فاسْمٌ وليس اسمًا بغير تردّد
فمتى أرى ذاك المسمّى قاسمًا ... بيني وبينك وصله بالموعد
هذا الذي قد لاح في تبيين ما ... ألغزتَ فيه بفكرك المتوقّد
فاستر إذا ما شئت تقصيرًا وكن ... لي عاذرًا هذا تمام المقصد
لا زلت في مرقى المعالي صاعدًا ... أبدًا على رغم العداة الحسّد
ما مال غصنٌ في الرياض وما أضا ... بدر التمام ولاح بارق ثهمد

(الداغستاني، 2009، صفحة 337)

3- الإجازة العلميّة:

يحرص طالب العلم على الإجازة العلميّة من لدن عالم معروف، حيث لا مؤسسات علميّة ولا شهادات مصدّقة، فكان الشعر وسيلة من الوسائل التي تطلب بها الإجازة العلميّة، وقد جاءت متدثرة بمزايا الشعر الإخواني.

يذكر المقحفي في كتابه تحفة الأحباب أن شرف الدين بن قاسم الشرعي[1] طلب منه إجازة بقصيدة طويلة تقع في واحد وخمسين بيتًا استهلها بمقدمة غزلية ليتخلّص في نهايتها لطلب الإجازة فيقول:

حليف الاجتهاد بلا نزاعٍ ... وربّ الفضل والنسك العظيم
صفيّ الدين شيخي في فنونٍ ... يتيه بدرسها فكر الفهيم
ملكت نهاية العليا جميعًا ... بغير مشاركٍ لك أو قسيم
وإنّ فتًى له أنتم عمادٌ ... وعونٌ بعد خالقه الرحيم
يريد إجازةً منكم وإذنًا ... بأحلى سنّة الطهر الكريم
وربّ البيت أنّي كلّ يومٍ ... أحنّ إلى لقاك حنينَ هيم
وأدعو مالك الأملاك طرًّا ... بطول بقاك في حالٍ أميم
وصلّ خالقي في كلّ حينٍ ... على طه المشفّع بالأثيم
وعترته الكرام وتابعيهم ... ميامين العناصر والأروم

ويذكر المقحفي أنّه تأخّر بالإجازة لشغلة عرضت، فعزز الشرعي بقصيدة نونيّة ذكرها المقحفي، ثم ذكر قصيدته التي

(1) هو ضياء الدين شرف الدين بن قاسم الشرعي، ممن سكن صنعاء، وصفه المقحفي في تحفته بأنّه أديب آخذ من العلوم بأوفر نصيب، وأنّه أخذ عن المقحفي. (المقحفي، 2008، صفحة 341)

أجـاز بهـا الشـرعي أن يـروي عنـه، حيـث يقـول:

يا غائبًا حاضرًا في القلب لم يبن ... وقائمًا في مقام الصدق لن يَمِنِ
ومن إذا اجتمع الأحباب زانهمُ ... في القول والفعل والأخلاق والمنن
وفات في العلم والآداب موكب من ... ساماه حتّى رقى أعلى من القنن
أنت الذي لم تفارقني شمائله ... مهما تفارقت الأبدان باليمن
ذكراك في خاطري يوليك جائزةً ... إجازةً لك أهديها بلا ثمن
وقد أجزتك يا مولاي ما سمعت ... أذناك فارْوِ الذي أروي على سنن
عنّي وما صحّ لي في السماع وما ... أجازني فيه أهل الشام واليمن
واسلم ودم في نعيمٍ لا نفاد له ... ما دمت تروي وتملي زمرة السنن
وغيرها من أسانيد الأئمة والأجزا (م) العوالي في سرٍّ وفي علن
واعذر محبّك إن كانت على عجلٍ ... فإنّ عهدك عندي أعظم المنن
وقد أجزت بني دهري وأرجو أن ... يدعو لمثلي مجاب من بني زمني
والشرط فيها فلا يخفى على رجلٍ ... جمّ الفضائل وافٍ بالتقى قمن

(المقحفي، 2008، صفحة 341)

يظهـر ذلـك عمـق العلاقـة العلميـة بـين هـؤلاء الشـعراء العلمـاء واتخـاذ القصيـدة الإخوانيـة وعـاء للتواصـل بينهـم.

كتـب السـيد أحمـد بـن محمـد الضحـوي التهامـي[1] مـن ضواحـي مدينـة صبيـا سـنة 1274هـ إلـى شـيخه الحسـن بـن أحمـد عاكـش

(1) هـو العلامـة أحمـد بـن محمـد بـن إسـماعيل المعافـى الضحـوي الحسـني، نسـبة إلـى قريـة الضحـى ولـد سـنة 1233هـ، عالـم أديـب، لـه مؤلفـات ومصنفـات. (زبـارة الصنعانـي، بـدون، صفحـة 198 ج1)

الضمدي[1] قصيدة يطلب منه إجازة في جميع ما له من المسموعات والمفردات، تقع في خمسين بيتًا بمقدمة غزلية طويلة يتخلص بعدها لمدح عاكش فيقول:

وما زال في قلبي أليمُ فراقها ... له كلّ آنٍ مبدئٌ ومعيد
إلى أن دهتنا النائبات بنأي من ... مكارمه للوافدين قيود
ربيب العلا السامي على هامة السهى ... ومن هو في هذا الزمان فريد
هو العَلَمُ العلامة الحبر من له ... أكابر أرباب العلوم شهود

ثم يختم القصيدة بطلب الإجازة فيقول:

ومطلب منشيها الحقير إجازةً ... تنيف على ما تبتغي وتزيد
بكلّ الذي تروونه عن أئمّةٍ ... تضمنّهم ثبتٌ لديك مفيد
وأرّخ عنانًا لليراع فأنت من ... إذا شاء وشّى والأنام شهود

ويقول زباره إنه كتب له إجازة مطوّلة فيها أسانيد كتب الحديث وأصحبتها هذا الجواب، وهو قصيدة تقع في واحد وخمسين بيتًا، استهلها بمقدمة روضية غزلية انتقل بعدها لمدح التهامي وشعره ليخلص في النهاية إلى ذكر الإجازة متواضعًا فيقول:

ولست بأهلٍ أن أجيز وإنّما ... سمعت لطوع الأمر وهو رشيد
وهاك إجازاتي بكلّ مؤلَّفٍ ... بسيطٍ وإسنادي إليه مديد
تفرّدت بالإسناد بالعصر إذ مضى ... بحور علومٍ قعرهنّ بعيد

(زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 199 ج1)

(1) هو الحسن بن أحمد بن عبد الله، المعروف بعاكش، مؤرّخ، من أهل ضمد في تهامة، ولد بها سنة 1221هـ، وانتقل إلى زبيد فصنعاء، توفي بمدينة أبي عريش سنة 1289هـ، له عدّة مؤلفات. (الزركلي، 1992، صفحة 183 ج2)

يورد صاحب كتاب (السناء الباهر بتكميل النور السافر) في وفيّات سنة 979هـ وفاة عبد الحقّ بن أبي زرعة، ويذكر أنه حفظ عدّة كتب في صغره، وعرضها على جماعة من المشايخ وأجازوه منهم الشيخ قطب الدين الحنفي الذي اختار له أعجازًا من أبيات الشاطبيّة وركّب عليها صدورًا مناسبة تتضمّن الإجازة بالكتب، يقول بعد مقدمة ذكر فيها فضل العلم وأهله:

هو الشيخ عبدالحقّ ذو شرفٍ غدا ... أخا ثقةٍ يغضي ويعفو تجمّلا
سمعت له (ألفيّةً) و(عقائدًا) ... بصوتٍ خفيٍّ كلّ دانٍ تنوّلا
كذا (الأربعين) الغرّ مع (شاطبيّةٍ) ... يطوع بها نظم القوافي مسهّلا
كذلك للسبكي (جمع جوامعٍ) ... ومن أجله في ذروة العزّ يُجتلى
وأتقن حفظًا (حاوياً) لجميعها ... فأصبح بالعذب الفرات معلّلا
أجزت له عنّي الرواية ناصحًا ... مجلًّا له في كلّ حالٍ مبجّلا

(الشلّي اليمني، 2004، صفحة 535)

4- استعارة وطلب الكتب والشعر:

لم تكن الكتب متوفّرة يتيسّر الحصول عليها، إذ كانت تخطّ باليد، وتحول ظروف بعض الشعراء دون شرائها، لذلك كانت استعارة الكتب شائعة وقد كان الشعر الإخواني أداة لاستعارة الكتب أو طلب المجموع الشعري لأديب.

يوجه الشاعر محمد بن خليل الأحسائي[1] قصيدة إلى الشيخ

(1) هو محمد بن خليل الأحسائي المكي، عالم أديب، تقلّد منصب القضاء بالطائف سنة 1034هـ. (ابن معصوم ع.، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 227)

تاج الدين[1] الذي يظهر أنه قد طلب شيئًا من شعره:

لديك أخا العلياء والفضل والعلم ... ومن جلّ من بين الإخلاّء بالفهم
تحلّ رحال الظاعنين فمن غدا ... إليك بدا في حاملي العِلْمِ كالنجم
لئن كان ربّ الفضل كالرأس في الورى ... فأنت له تاجٌ مضيءٌ بلا كتم
طلبت من النظم البديع لآلئًا ... فدونكها كالعقد في الحسن والنظم
تشنّف أسماع الرواة بدرّها ... وتقطع أفلاذ العيِّي من الغمّ
فيا أيها القاضي المولّد طبعه ... من العلم أفنانًا تجلّ عن العقم
نوائب هذا الدهر غالت قريحتي ... ودقّت عظامي بعد تمزيقها لحمي
فلو أنّ هذا الدّهر يبدي تعطّفًا ... لظلّ بديع النثر والنظم في حكمي
ولو أنّ جزءًا من همومي مفرّقٌ ... على الخلق عاموا في بحارٍ من الهمّ
وسامح فمنديل القرار مقطّعٌ ... ورقّ لقلبٍ لا يقرّ من العدم

(الخطّي، 2005، صفحة 350)

يذكر زبارة في كتابه (نيل الوطر) أنّ أحمد بن محمد الذماري[2] جمع تاريخًا ترجم فيه لعلماء عصره، وكان ضنينًا به، وأنه أرسل إليه هذه الأبيات:

إنّي إلى تأليفكم شيّقٌ ... والأذن قبل الأذن قد تعشق
مذ فاح لي طيبُ ثناءٍ له ... ما زلت من ريّاه أستنشق

(1) هو تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المالكي المكي، إمام المالكية بالمسجد الحرام، توفي بمكة سنة 1066هـ. (ابن معصوم ع.، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 133)

(2) هو أحمد بن محمد الذماري، نزيل صنعاء، ذكر زبارة أن عاكش ترجم له في (عقود الدرر) وذكر أنه صاحب ظرف ولطافة وله اشتغال بالأدب، وأن عاكش اجتمع به في صنعاء سنة 1243هـ. (زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 210)

تقيّد الفكر على مدحه ... يا ليت في روضاته يطلق
فأسعفوا العبد بإرساله ... فإنّ قلبي فيه مستغرق
أليس هو كالشمس في ضوئه ... والشمس من لازمها تشرق
جمعت فيه كلّ فردٍ غدا ... في العلم والآداب لا يسبق
لله من رقّش ألفاظه ... فبالبلاغات غدا ينطق
قد أشرق الناس بإبداعه ... وللحجا من لطفه يسرق
هُمُ عيون الدهر هذا بلا ... شكٍّ وذا جفنٌ بهم محدق

فأجابه الذماري بقوله:

مُقيّدُ الحبّ بكم مُطلقُ ... وروض شوقي بكمُ مُورق
ومهجتي شيّقةٌ للّقا ... والشوق للّقيا بكم أشوق
يا فتية إن فاخروا فتيةً ... كان إلى ما فاخروا يسبق
حلّيتمُ العلم وحيّاكمُ ... والجهل من تحقيقكم يفرق
تاهت بكم صنعا وأربابها ... والشام والمغرب والمشرق
طلبتمُ التاريخ كي تنظروا ... جماعةً للعلم قد حقّقوا
كذاك بالأدب الغضّ قد ... أضاء عنه حالكٌ مطبق
فهاكمُ سفْرًا يروي عطا ... شًا فيه أهل العلم قد وثّقوا
لا زلتمُ أهل العلا في الملا ... إليكم لحظ الهدى يحدق

(زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 210)

وكتب محمد بن إسحاق (ت1167هـ) إلى القاضي أحمد بن محمد الحيمي مستدعيًا منه بعض مؤلفاته:

أيّها الفاضل الذي قد مدحته ... فكفتّنا عن المديح صفاته
ليت شعري متى نراك وتروي ... عنك من يعطش الحيا زفراته

ونـرى عـين تصانيفـك الـلا ... ئـي إلـى غيرهـا يقـلّ التفاتـه
فإلـى أوراقـه إليـه اشـتياقٌ ... منـه تبكـي أقلامـه ودواتـه

(ابن إسحاق، 2006، صفحة 84)

وكتـب محمـد ابـن إسـحاق إلـى زيـن العابديـن المنـوفي[1] يطلـب منـه سـفينة[2] بهـا نظمـه ونظـم والده:

هـاك يـا زيـن العابديـن سـلاما ... قـد حكاه في اللطـف درٌّ نضيـد
مـن محـبٍّ إلـى بديـع معانيـ ... ـك لـه شـوق مـا عليـه مزيـد
والنظـام البديـع يفعـل في القلـ ... ـب كمـا تفعـل العيـون السـود
فلقد حلّ لي من وجوه نظْمك ما ... يصبو إلى حسنها الحليم الرشيد
وابعثنّ السـفينة اليـوم واشـحن ... مـن دراري النظـام مـا يسـتجيد
مـن مقالاتـك العِـذاب وممّـا ... نظـم الوالـد السـعيد سـعيد

(ابن إسحاق، 2006، صفحة 87)

5- تقريظ الكتب والشعر:

مـن المجـالات الرحبـة لشـعر الإخوانيـات بـين الشـعراء العلمـاء تقريـظ الكتـب والشـعر، فالنتـاج العلمـي والأدبـي قمـين بـأن يحتفـى بهـا مـن لـدن زمـلاء الحـرف والأدب.

(1) هـو زيـن العابديـن بـن سـعيد المنـوفي، قَـدم المدينـة سـنة 1138هـ، وانتهـت إليـه رئاسـة الشـافعية فيهـا، وصـار خطيبًـا ومفتيًـا وإمامًـا بهـا، تـوفي في المدينـة سـنة 1151هـ. (مجهـول، 1984، صفحـة 82)

(2) السـفينة: كالدفتـر أو المفكّـرة، يجمـع فيهـا صاحبهـا مـا يستحسـن ويختـار مـن أشـعار ومراسـلات أو طرائـف ونـكات أدبيـة. (ابـن إسـحاق، 2006، صفحـة 87)

قرّظ أحمد بن أحمد الأنسي[1] كتاب المحبي (نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة) بقصيدة تقع في ثلاثين بيتًا مطلعها:

لشمس المعالي والبلاغة إشراق ... وللنظم من بعد التقيّد إطلاق
فريحانة المولى الخفاجيّ عَرْفها ... بروضٍ من الآداب والعلم عبّاق
ويا حبّذا ذيلٌ كساها محمدٌ ... سلالة فضل الله من هو سبّاق
وذلك فضل الله يؤتيه من يشا ... وحسبك أنّ الفضل والعلم أرزاق
لقد فاق مولانا الأمين مؤرّخًا ... لقومٍ لما تحوي التواريخ قد فاقوا
بأوراقه زينَتْ قدودُ علاهمُ ... كما زانت الأغصانَ في الروض أوراقُ
وأحكم في تأليفه متفنّنًا ... وأبدع حتى قيل ذلك إغراق
يحقّ لهذا الذيل إن قال تائها ... أنا الرأس والريحانة الخفّ والساق
كأنّ رياضًا ما حواه قِمَطْرُهُ ... فعن طيّه نشر اللطائف خفّاق
كأنّ معانيه معانٍ لمعبدٍ ... يجاوبه مهما ترنّم إسحاق
كأنّ به هاروت ينفث سحره ... فللقوم إصغاءٌ إليه وإطراق
كأنّ ذوي الآداب عند سماعه ... وقد ثملوا صرعى مدامٍ فما فاقوا
كأنّ التواري والجناس خرائدٌ ... تشاهدها في موقف الأُنس عشّاق
كأنّ سواد الحبر فوق بياضه ... وقد زانه سحر البلاغة أحداق

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 597 ج3)

كتب حسين بن علي بن شدقم الحسيني قصيدة يمدح بها والد ابن معصوم، فأمر الممدوح ابنه علي بن معصوم بإجابة ابن

(1) هو أحمد بن أحمد بن محمد الأنسي، شاعر نشأ بصنعاء وانتقل إلى مكة ثم عاد إلى اليمن، توفي بجزيرة زيلع سنة 1119هـ. (المحبّي، 1968، صفحة 596 ج3) (الشوكاني م.، بدون، صفحة 36 ج1)

شدقم وذلك سنة 1081هـ، فكتب ابن معصوم مجيبًا ابن شدقم بقصيدة تقع في أربعة وثلاثين بيتًا، استهلّها بمقدّمة غزلية ليتخلص بعدها لمدح ابن شدقم ومقرّظًا قصيدته، ليختمها بإطراء قصيدته التي أجاب بها، فقال:

هذا الحسين ابن الحسين أخو العلا ... علقتْ يدي منه بودٍّ أقعس
لم يُنْسِهِ بُعْدُ الديار مودّتي ... يومًا وعهدي عنده لم يبخس
وسواه يظهر ودّه بلسانه ... وخميره كصحيفة المتلمّس
وافت قصيدتك التي فعلت بنا ... فعل المدامة بالنهى والأرؤس
ألبستها وشْي الكلام فأقبلت ... مختالةً تزهو بأبهى ملبس
ما ضرّ سامعها وقد جُليت له ... أن لا يجيل كؤوسها أو يحتسي
جدّدت لي عهد الصبا بنسيمها ... وربوع عهدي بالصبا لم تدرس
وإليكها غرّاء تستلب الحجا ... وتروض كلّ جموح طبعٍ أشرس
نضّدت عقد نظامها وبعثتها ... دررًا تفوق على الدراري الخنّس
وكسوتها من وصف ودّك حلّةً ... هزّت لها عطف المحلّى المكتسي
تُجلى عليك ونجم سعدك مشرقٌ ... في قمّة الفلك الرفيع الأطلس

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 239)

ويجيب علي بن معصوم مقرّظًا كتابًا وصله من العفيف الثقفي يحوي شعرًا ونثرًا بقصيدة منها:

سلامٌ على بدرٍ له السعد مطلع ... وشمسٍ سناها بالمناقب يسطع
على غرّة العليا على هامة العلا ... على من له المجد المؤثّل أجمع
على من حوى درّ المكارم يافعًا ... على من أوى حجر العلا وهو يرضع
أتاني كتابٌ منك يشرق نوره ... كأنّ على أعطافه الشمس تلمع

تنـوّع مـن نظـمٍ ونثـرٍ كأنّـه ... ريـاضٌ غـدت أزهارهـا تتنـوّع
ففي كلّ سطرٍ منه وشيٌ منمنمٌ ... وفي كلّ فصلٍ منـه عقدٌ مرصّع
طربـت بـه لفظًـا ومعنـىً كأنّـه ... أديـر علـيّ البابلـيّ المشعشـع

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 274)

أهـدى أحمـد بـن محمـد الجوهـري المكّـي[1] كراسًـا مـن نظمـه ونثـره إلـى علـي بـن معصـوم، فكتـب إليـه رسـالة تقريـظ صدّرهـا بهـذه القصيـدة:

زُهَـرُ الـدراري أم نظـام الجوهـر ... وشذى السـلافة أم شميم العبهر
أم زَهَرُ روضٍ قد تبسّم ضاحكًا ... إذ جـاده صـوب الغمـام الممطـر
وشـذور تبـرٍ أم جمـان قلائـدٍ ... تزهـو وتزهـر في مقلّـد جـؤذر
أم هـذه ألفـاظ مولـى ماجـدٍ ... ورث البلاغـة أكبـرًا عـن أكبـر
يـزري بنظـم الـدرّ باهـر نظمـه ... ويفـوق مسـكره مـذاب السّـكّر
فلشـعره الشـعرى العبور تضاءلت ... كرهًـا وودّت أنـه لـم يشـعر
والنثـرة العليـا هـوت مـن نثـره ... خجـلًا وقالـت ليتـه لـم ينثـر
قـد أعجـز البلغـاء معجـزُ أحمدٍ ... فأقـرّ كلّهـمُ بعجـزٍ مقصّـر
يـا مهديًـا لـي مـن سـنيّ نظامـه ... ونثـاره درًّا بهـيّ المنظـر
شكرًا لفضلك شكر ممنونٍ فقد ... حلّيت جيدي من عقود الجوهر

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 207)

(1) هـو أحمـد بـن محمـد علـي الجوهـري المكـي، أديـب وشـاعر، ولـد في مكـة ونشـأ بهـا ثـم انتقـل إلـى الهنـد في شـبابه، ومكـث بهـا خمسًـا وعشـرين سـنة، ثـم عـاد إلـى مكـة، تـوفي بالهنـد سـنة 1069هـ. (المحبّـي، 1968، صفحـة 157 ج4)

يقرّظ الحسين بن عبد القادر الناصر (طوق الصادح) ليوسف بن علي الهادي[1] من شعر بعض العصريين باليمن:

لعمرك ما الروض الموشّع بالزّهر ... ولا طلعة البدر الذي حفّ بالزهر
ولا الحور قلّدْن النحور قلائدًا ... تضيء من الدرّ المفصّل بالشذر
ولا ابن ذُكا يا ذا الذكاء ولا ولا ... بأبهج من هذا الكتاب بلا نكر
لقد أطربت ألفاظه كلّ سامعٍ ... فيا من رأى طوقًا له نغمة القمري
معانيه أضحت كالمهارق تجتلى ... كما يجتلى وجه المليحة في الخُمر
ولا عيب في ألفاظه غير أنّها ... غدت لأولي الألباب تنفث بالسحر
على كتب التاريخ يفضل يا فتى ... كما فضلت شمس النهار على البدر
فما يجتلى وجه (الخريدة) بعده ... وذلّ به قدر (اليتيمة) في الدهر
و(ريحانة) المولى وإن فاح عَرْفها ... ففي طيّ ذا من ريح يوسف والنشر

(المحبي، 1969، صفحة 306ج3)

يذكر النابلسي في رحلته أنّ عبد الكريم الخليفتي العبّاسي[2] أرسل له تصنيفاته وطلب من النابلسي تقريظها، فكتب بقوله:

جاء عبد الكريم نسل الكرام ... بكتابٍ ذي رونقٍ وانسجام
كلماتٌ تناسقت كعقودٍ ... من لآلٍ تروق في الانتظام
ومعانٍ كأنهنّ كؤوسٌ ... من علومٍ لطيفةٍ لا مدام
تسكر العقل إن أديرت عليه ... بالتقاسيم في فصول الكلام

(1) هو القاضي يوسف بن علي الهادي الكوكباني ثم الصنعاني، أديب شاعر، توفي سنة 1115هـ. (المحبّي، 1968، صفحة 447 ج3)

(2) هو الخطيب عبد الكريم بن عبد الله الخليفتي العبّاسي، ولد بالمدينة سنة 1070هـ، ونشأ بها، تولّى إفتاء الحنفيّة، شاعر، توفي سنة 1133هـ. (مجهول، 1984، صفحة 72) (المرادي، 1988، صفحة 66 ج3)

وبإتحافها الخليل تسامت ... إذ بعلم الخليل ذات ابتسام
وبحور الشعر التي هي فيها ... دافقاتٌ لسائر الأفهام
وطويل الهنا مديدٌ بسيطٌ ... وافرٌ عند من بها متسامي
وبها الكامل المضارع فضلًا ... لعلاها المجتثّ بين الأنام
فاعلاتٌ مستفعلن فاعلاتٌ ... خفّة اللفظ في كمال احتشام
كيف لا والذي تدارك منها ... لاقتضاب المنى سريع اقتحام
تحفةٌ صاغها الذي صيغ علّمًا ... وكمالًا في هيكلٍ منه سامي
نسل عمّ النبيّ عبّاس عزٍّ ... وفخارٍ والمجد والإقدام
وله منهلٌ من الفضل صافٍ ... في قوافٍ سما بخير الأسامي
نثر الدرّ فيه من بحر علمٍ ... موجه يتحف البريّة طامي
لم يزل منشئ الكتابين يسمو ... ما همى في الربا من الغيث هامي

(النابلسي، 1998، صفحة 294 ج 3)

ويظهر لنا هذا الإهداء للكتب من قبل الخليفتي للنابلسي وطلبه تقريظ كتبه مدى العلاقة بين هؤلاء الشعراء العلماء، ومدى حاجتهم لهذا الشعر الإخواني الذي يسطر جهودهم العلميّة ويعدّونه بمثابة وسام تزيد به الكتب أهميّة وقيمة.

ويذكر النابلسي أنّ عبد الرحمن بن عبد القادر أفندي المدني[1] قد جاء إلى النابلسي وقرأ كتبًا من ضمنها كتاب لوالده عبد القادر اسمه (عيون الكلام) وقد طلب عبد القادر والد المذكور من

(1) لم أعثر له على ترجمه سوى ما ذكره النابلسي من أن والد المذكور عبد القادر أفندي له مصنف بعنوان (عيون الكلام) يقع في أربعة كراريس أكمل به كتاب (لسان الحكام) لابن الشحنة في فقه الحنفية. (النابلسي، 1998، صفحة 295 ج 3)

النابلسي أن يقرّظ له على كتابه، فكتب له النابلسي:

عيون الكلام كلام العيون ... وفيه من الفقه أسنى الفنون
به تمّ نطْق لسانٍ غدا ... لحكّامنا في الكمال المصون
فأضحى كعقدٍ من الدرّ في ... نحور الغواني سواجي الجفون
أم الروض غبّ نزول الحيا ... إذا نسمةٌ عبثت بالغصون
فلله جامعه إنّه ... إمامٌ همامٌ وركن الرّكون
له نسبٌ طاهرٌ ظاهرٌ ... بطه الرسول على كلّ دون
وبالعبد للقادر اسمٌ له ... علا فهو أشرف شيءٍ يكون
وفي طيبةٍ داره لم تزل ... تطيب بسكنى أجلّ الحصون
رعى الله صدْق ودادٍ به ... تحقّق عندي وزال الكمون
ولا زال يرقى مراقي العلا ... وعزّة جانبه لا تهون
مدى الدهر ما قال عبد الغني ... عيون الكلام كلام العيون

(النابلسي، 1998، صفحة 295 ج 3)

وهناك قصيدة للخطيب أحمد البساطي المدني[1] وجهها لعمر الداغستاني تجمع بين تقريظ مديحه وتقريظ كتابه (تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر)[2] يقول:

أهدي السلام لعزيز القدر ... من ساد بالفضل أهالي العصْر
أعني ابن عبدٍ للسلام من سما ... بالعلم أسمى رتبةٍ في الفخر
سراجنا الفاضل ذا شمس النهى ... باهي المحيّا مخجلًا للبدر

(1) هو أحمد بن عمر بن يحيى بن حمزة البساطي، نسبة إلى بساط قرية مصريّة، ولد في المدينة سنة 1151هـ، وصار خطيبًا وإمامًا، توفي سنة 1187هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 96)

(2) كتاب لعمر بن عبد السلام الداغستاني يترجم لشعراء المدينة في عصره.

مترجم الأعيان أهل (طيبة) في (تحفة الدهر ونفح الزهر)
شهمًا أديبًا راقيًا أوج العلا ونظمه فاق عقود الدرّ
ونثره اللؤلؤ ضاء نوره إذا بدا كلامه في السطر
يظهر سرّه ومعناه لمن ينظر في ألفاظه بالفكر
إذا تأملت ترى في نظمه قولًا بديعًا وكذا في النثر
له معانٍ واستعارات كذا علم بيانٍ باهرٍ كالسحر

وبالرغم من تدنّي مستوى الشعرية في أبيات البساطي إلا أنّ الداغستاني يجيبه بقصيدة يذكر منها أربعين بيتًا استغرقت المقدّمة الغزلية ستة وعشرين بيتًا، منها:

بدر الدجى بان لنا في الخُمُر أم وجه من رضابه كالخَمْر
وهذه لآلئٌ قد نظمت أم أنّها أسنانُ ذاك الثغر
وما أرى هل هو وردٌ ناظرٌ أم حسن خدٍّ بالحيا محمرّ
وذا قوامٌ في البرود مائسٌ أم غصن بانٍ أم عوالي السّمْرِ
وهل فتورٌ في الجفون قد بدا أو الخمار أو دبيب السّحْر
وهذه أعينه في حَوَرٍ أم غصن نرجسٍ غضيضٍ نضْر
قد رشقت حسْنًا بقوس حاجبٍ أسهم لحظٍ في القلوب يَفْري
أفديه بدرًا قد حَبَا محبّةً بالوصل من بعد الوفا والهجر
سقاه كاس الأنس عذبًا هانئًا حتى غدا من قربه في سكْر
كم بتّ من قبل به مسهّدًا مضنى أراعي للنجوم الزهر

ويتخلّص للمدح والإطراء قائلًا:

أنعم بها من ساعةٍ قد وضعت كلّ السرور والهنا في صدري
وأنعشتني مثل ما أنعشني سامي الكمال بالنظام الدرّي

نظـمُ بديـعٍ قـد حـوى طـلاوةً مثل العقـار في العقـول يسـري

(الداغستاني، 2009، صفحة 146)

ويقرظ أحمد الجامي[1] سفينة أشعار للداغستاني، فيقول:

لـمّا نظرت إلى سفينتك النفيـ ـسة يا سراج وذقت حلو جناها
ورأيـت فيها كلّ معنى يشتهى والـفـكـر في بلهاتها قـد تاها
حوّطت خرّدها الحسان بما أتى بـتـبـارك الـفـرقـان ثـمّ بطه
لا سـيّـمـا لـمـا طـلـبـت بـفـاقـةٍ مـاء العذيب ولاح لـي بلماها
وجبرن خاطريَ الكسير وقلن لي لـنـولّـيـنّـك قـبـلـةً تـرضـاهـا
ثمّ انثنيت وقلت سبحان الذي في نيل مصر الحسن قد أجراها
لا زلت يا سحبان وائل عصرنا بـك بـين أبـنـاء الـعـلا نتباهى

فأجابه الدغستاني متغزلًا بقصيدته وكأنها حسناء فاتنة بقوله:

آيـات حسـنك ذو الغـرام تلاهـا وبطيب وصفك من جواه تلاهى
هل ذي خدودٌ قد صلاني جمرُها يـا مـن يـروّي القلب بـرد لماهـا
أم وَرْدِ أكمـام الريـاض مفتّـحٌ تطفـي إوار الوجـد مـن ريّاهـا
أولى بشمس الصدغ تسفر بالضحى والليـل مـن فـرعٍ إذا يغشـاها
إنّ العقـار بريق ثغرك بَخْتُ من يحسوه من كأس الشفاه شفاها
حفّت على الأسنان مونقةً كما الـ ـياقوت فـوق لآلـئٍ حلّاهـا
كم ذا الـدلال أربّـة الخـال التـي تسبي القلوب بلحظها ورناها
من جفنك المخمور أحسيتي النهى خمـرًا غـدا ثمـلان منـه وتاهـا

(الداغستاني، 2009، صفحة 170)

(1) هـو أحمـد بـن عبـد الرحمـن مـلا جامـي، تولّـى إمامـة الشـافعية بالمسـجد النبـوي، أديب شـاعر. (الأنصـاري، 1970، صفحـة 150)

ومن تقريظ الكتب إلى تقريظ الشعر، فهذا الداغستاني يقرّظ نظمًا للسيد زين جمل الليل[1]، فيقول:

للّه ما أحسن هذا الجمان	قد أخجل الدرّ بحسن البيان
نظمٌ بديعٌ قد حلا لفظه	ويسكر السمع كبنت الدنان
له قوافٍ رقّ إبداعها	كعقد أجياد الغواني الحسان
مسبوكةٌ في قالب اللطف بل	منظومةٌ في سلك حسّن المعان
كالأنجم الزهر بأفق البها	بل أنّه الزهر بوسط الجنان
بل درٌر أبرزها الحذق من	أصدافِ أفكارِ بديعِ الزمان
الفاضلِ الججاح مولى الندى	الكامل الندب الفضيل المصان
مولى سما في أفق المجد بل	فاز من السعد بأعلى مكان
حسيب أصلٍ بل نسيبٌ علا	تا اللّه ما أشرف هذا القِران
ربّ المعالي والسجايا التي	يعجز عن حصر حلاها اللسان
زين ذوي الفضل الذي خصّه	مولاه من إحسانه بامتنان
رفيع قَدْرٍ منتقى ماجدٌ	ينزل عن عليائه الفرقدان
فاق على أقرانه رتبةً	وصار فيهم ذا فخار وشان
له ذكاءٌ مثل نهرٍ وقد	أرخى له نظم القوافي العنان
يا أيّها المولى الذي وصفه	يضوع مثل المسك بالزعفران
اقبل بعذرٍ من محبٍّ وَفَى	نظمًا حكى الطلّ على الأقحوان
أو حبّ مزنٍ أو نسيم الصَّبَا	إذ هبّ فارتاح إليه الجنان
ودم بعون اللّه في عزّةٍ	ممتّعًا في ظلّ دوْح التّهان

(1) هو زين بن علوي بن با حسن جمل الليل باعلوي المدني، ولد بالمدينة سنة 1174هـ، محدث فقيه، شاعر، توفي في المدينة سنة 1221هـ. (البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، 1963، صفحة 639 ج2) (الأنصاري، 1970، صفحة 122) (الداغستاني، 2009، صفحة 158)

فالداغستاني يذكر أن القصيدة تقريضًا على نظم له بينما اتجهت الأبيات لمدح جمل الليل، فأجاب بقصيدة منها:

أغادةٌ من خود حور الجِنَان ... تتيه إن ماست فتسبي الجَنَان
أم بكْر فكرٍ من خدور النهى ... زفّت بقينات بديع المعان
فاقت على أترابها من غذت ... فريدة الحسن رداءً حَصَان
أم راح ألفاظٍ حلا رشفها ... من كفّ ممشوقٍ رطيب البنان
رقّت وراقت فرقى هامُها ... تاجَ حبابٍ فاق حبّ الجمان
ختامها مسكٌ وممزوجةٌ ... بشهد ريقٍ من رحيق اللسان
فتارةً يسقيك خمرَ اللمى ... وتارةً يعطيك بنت الدّنان
حُبابها مع لونها شَاكَلا ... وجنته مع درّ فِيهِ المُصان
قد أَسَرْتَ عقل أُهيل الحجا ... وأمسكت من كلّ لبٍّ عنان
أم أنجمٌ لاحت بطرسٍ أضا ... كبدْر صيْفٍ مذْ وَفَى واستبان
أم ذي عقودٍ من لآلٍ حَلَتْ ... قد صاغها الندْب بديع الزّمان
أم روضةٌ غنّاء غنّى على ... أفنانها طير الهنا والتّهان
أم نسمةُ الروض سرت سحرةً ... ففاح منها عَرْف روض الجنان
تحكي لنا باللطف أخلاق من ... حاز المعاني فَرْد هذا الأوان

(الداغستاني، 2009، صفحة 158)

يلاحظ كيف حرص الشاعر على تشخيص قصيدة الداغستاني ليبرزها في ثوب غزلي.

ويكتب إبراهيم بن أحمد البرّي[1] لإبراهيم الخياري قصيدة طالبًا منه إعادة السفينة، فيقول:

أعين الفضائل زين الخصائل ... ربّ عيون العلوم المعينة
تألّق في أفق المجد منك ... ضياءٌ رأينا سنى البدر دونه
وفوّقت سهم ذكاك إلى ... أبيّ المعالي فنال جبينه
وحاصر فهمك حصّن العصيّ ... من المشكلات فهدّ حصينه
كأنك إن ما دعيت لحلّ الْـ ... ـعويصات ليثٌ يجافي عرينه
وإن ريم نيلك تلقى إذن ... كأنك غيثٌ يوالي هتونه
لعمر أبيك لأنت المنوّه ... باسمك بين أهالي المدينة
ألسْت إمام القريض الذي ... رأيناه في جبهة الدهر زينه
ألست إذا ما نثرت تشنّف (م) أسماعنا باللآلئ الثمينة
أليس يراعك في روض طرْ ... سك يبرز زهرًا يحلّي غصونه
وإنّي أتيتك أرجو كمائم (م) تلك الأزاهر وهي السفينة
لنجني نورًا أفاد الزما ... ن شذاءً يفوق شذى الياسمينة
فلا تمنعن ذا ولا من نداك ... ولا تك مثل الليالي الضنينة
فجودك عمّ البعيد فكيف ... بمن لا يرى غير حبّك دينه
ودم للمعالي دوام الدهور ... نراك عزيز الجناب مصونه

فأجابه بقوله:

أصدر المكارم خدّن العلا ... ومن هو بالحق شيخ المدينة
ومن فاق في نظمه والنثا ... ر فلم تلْفِ بحرًا يجاري معينه

(1) هو إبراهيم بن أحمد بن عبد البر بن أحمد البرّي، ولد بالمدينة سنة 1050هـ، كان عالمًا فاضلًا، تولى نيابة القضاء سنة 1102هـ، وتولى إفتاء الحنفية سنة 1104هـ، توفي سنة 1130هـ. (الأنصاري، 1970، صفحة 94)

لقد بذّ فضلك من شانه ... وأعجزه أن يباري شؤونه
نظمت الجواهر ولا منكرٌ ... إذا البحر أبدى اللآلئ الثمينة
وشنّف سمعيَ بيتُ صفاتٍ ... بها ذات مولاي أضحت قمينة
فمن بيتكم قد تسامى الفخار ... والشبل للّيث يأوي عرينه
وللأصل إذ فاق تُنمى الفروع ... وتُلقى محاسنه المستبينة
وقد حقّقت فيك منّا الظنون ... وكانت بمثلك حقًّا ضنينة
ولكن أتيت فأربى سناك ... على من يساميك وصفًا وطينة
فكم قد نثرت بروض النظام ... نوافح وَرْدِك والياسمينة
وأومأت تطلب روضًا به ... نتائج فكريَ وهو السفينة
وتلك وحقّك مشحونةٌ ... فرائد درٍّ تبدّت مصونة
وفيها من الغثّ أو ضدّه ... فكن ساترًا لعيوبي الدفينة
فأنت الشقيق وأنت المسمّى ... ودهريَ إن خان كنت أمينه
فلولاك ما نشرتْ بزَّها ... وقد أظهر الحسّن منها كمينه
ولا كشفت من نقاب الحيا ... ولاحت تبختر في كلّ زينة
ولكنّها استمطرت من سما ... ء لحظك غيثًا يوالي هتونه
وأمّتك تخطر في خجلةٍ ... لتلثم منك الأيادي المكينة
تنوب عن الخلّ في لثمها ... وتوضح في منهج الحبّ دينه
فشمّ برقها غافرًا ما حوت ... فما كلّ بيضاء حورا سمينة
ودم للمعالي مشيدًا لها ... تسهّل من كلّ صعبٍ حزونه
وتظهر حتى يقول الأنام ... لفضلك لا مثله لا قرينه
تحلّى من الدهر أيّامه ... وفاضلَ أشهره أو سنينه

(الداغستاني، 2009، صفحة 134)

تُظْهِر هاتان القصيدتان ما للشعر من دور في التواصل بين الشعراء الأصدقاء، فالموضوع لا يعدو كونه استعارة سفينة/ديوان شعر، لكن نلاحظ حرص الشاعرين على توظيف الموضوع ليكون مجالًا للمبارزة الشعرية.

ح - المداعبة:

من شأن الإخوان أن يداعب بعضهم بعضا، فما بالك بشعراء علماء يعدّ شعر المداعبة بمثابة استراحة يسيرة من صرامة طلب العلم وتعليمه وكدح العيش والحياة.

من المداعبة المشوبة بالعتاب ما قاله الغنوي[1] أخو أبي البحر الخطي، وذلك أنّ الخطي أبطأ على اجتماعه بأخيه في قرية سار بالبحرين لإملاء ديوان الخطي، إذ كتب إليه يستقدمه سنة 1019هـ، بقوله:

قل لأبي البحر فقد رابني ... لأيّ ما شأن بنا لا تلم
أكلّ هذا البطء في خلوةٍ ... تغنمها من عَرَدٍ منثلم
لا تخلُ في الصوم بمعشوقةٍ ... وأنت عذريّ الهوى ترتطم
قد يجرح النّسْك معاطاة ما ... يجذبك الشوق له فاستقم
أخاف إن بتّ على مشعر الحج (م) إذا ما نمت أن تحتلم
وأنت غرثان إلى حاجةٍ ... تجهش مثل الشبب المغتلم

(1) هو الحسن بن محمد بن ناصر بن علي بن غنيّة الهذلي، شاعر وكاتب جيّد الخطّ، صديق أبي البحر الخطّي وكاتب ديوانه الشعري، يفهم من ديوان الخطي أنه يسكن قرية سار من البحرين. (الخطّي، 2005، صفحة 143ج1)

فكيف إن كشّفت عن هضبةٍ بيضاء مثل العانك المرتكم
وذقت ظَلمًا أشِرًا مثلما ينهلّ ذوب البَرَد المنسجم
وظَلت تلوي أسوقًا نعمةً مثل خضيد العُشَرِ المنصرم
فظلّتَ من ذاك أخا لوعةٍ تقاطرت باللهب المضطرم
فصر إلينا واجتنب خطّةً تعقبك الإثم ولا تستنم

فأجاب الخطي قائلًا:

نصحت لله فلا تتّهم وجئت بالحكمة يا ذا الحكم
صدقت إني رجلٌ ربّما مال بي الودّ لبعض الحرم
وإنني أعتدّ أنسي بأدٌ ناهنّ عندي من أجلّ النعم
لكنني لو برّح الشوق بي وأفضت العشقة بي للعدم
ثمّ توفّقت لإدراك من تهون عندي فيه حمر النعم
لا أتعاطى ما ينافي التقى في خلوتي لا وحياتي قسم
ما حصلت كفّي على ريبةٍ إلا وراحت من يميني سلم
لا غرو فالسرحان قد ربّما عاف لأمرٍ ما افتراس الغنم
زمّت بتقوى الله نفسي وما غاية نفسٍ بالتقى لا تزمّ
ما رمضان بمبيري وما كنت لأخشى غير باري النسم
فقوّ ظهرًا بي فإنّي امرؤٌ أجتنب الإثم وأخشى اللمم
أإن تأخّرت لأمرٍ وما زلّت به عندك منّي القدم
حملتني ظنًّا على خطّةٍ شنعاء تزّاور عنها الشيم
فاستغفر الله لأمرٍ جرى به عليّ اليوم منك القلم
ودم دوام الدهر يا خير من يهجر (لا) قولًا ويهوى (نعم)

(الخطّي، 2005، صفحة 386 ج1)

ويداعب أحمد الحضراوي[1] صالح حمدان الساعاتي[2] فيقول:

أمولاي ما هذا العنا معْ غزالةٍ ... حوت كلّ القبائح بالسويّة
يمينا عهدها زورٌ محالٌ ... ووسواسٌ لها أدهى بليّة
فتتعب عاشقًا منها بوعدٍ ... ويرمي طرْفُها بعض البرية
فهيْ لا بأس فيها بعض حسنٍ ... إذا طلعت بحلّتها السنيّه
بطرفٍ أحورٍ غَنِجٍ مريضٍ ... بلا رمدٍ ولكن سهم ديّة
فيخطئ سهمها ويصيب قومًا ... لهم في كلّ نافرةٍ دريّة
فحاذر يا أخي هاروت معْها ... وماروتٌ يعلّمها القضيّة
فتسلب كلّ لبٍّ لا تبالي ... وتتركه على البطحا الدنيّة
فيغدو تائهًا بين البرايا ... بلا سببٍ ولا يدري المزيّة
على أنّي نصحتك يا ابن ودّي ... فهب للنصح بعض القابليّة

فأجابه الساعاتي يعتذر:

أمولانا بعثت إليّ سمْطًا ... تضمّن نظمه دررًا سنيّة
حوى طرف البلاغة والمعاني ... فأزرى بالعقود اللؤلؤية
وما لي في سباقك يا ابن ودّي ... يدًا أرجو بها نيل المزيّة

(1) هو أحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي، مؤرخ، ولد بالإسكندرية سنة 1252هـ، وانتقل به والده إلى مكّة، فنشأ بها وتأدب وتفقّه، له عدّة مؤلفات، توفي بمكة سنة 1327هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 249 ج1)

(2) هو الشيخ صالح حمدان الساعاتي المكي، ممن ترجم لهم الحضراوي في كتابه نزهة الفكر، وصفه بأنه شاعر أديب، صاحب نباهة وسماع، ومن شدة حذقه ونباهته أنه بلغ الغاية في صنعة تصليح الساعات، وذكر أن له شعر ظريف، وقال إنه شاعر لحذقه ولرقته وكثرة مجالسته الأدباء الأفاضل. (الحضراوي، 1996، صفحة 37 ج2)

وهـل مثلـي يجـاري مثـل قـرْمٍ ... لـه في كلّ فـنٍّ أسـبقيّة
سـوى أنّـي أقـدّم صـدق ودّي ... وحسـبي أن تصيـر القابليـة
ولكنّـي أراك تلـوم صبًّـا ... لـه في الحـبّ مرتبـةً عليّـة
يئـنّ مـن التشـوق كلّ وقـتٍ ... إذا هبّـت ريـاح البحشـميّة
أمـا واللّه لـو شـاهدت منهـا ... جفونًـا كالسـيوف المشـرفيّة
لَمـا لـمْتَ المتيّـم في هواهـا ... ولا شـنّعت بـي بـين البريّـة
علـى أنّـي عذرتـك في ملامـي ... لكونـك لسـت تـدري بالقضيّـة

(الحضراوي، 1996، صفحة 37 ج2)

ط- الشكوى:

عندمـا يعانـي المـرء مـن مصاعـب الحيـاة يبـث شـجونه ويحكـي شـؤونه لشـاعر آخـر، فالشـكوى مـن بواعـث شـعر الإخوانيـات إذ يكـون الشـعر بمثابـة الوعـاء الـذي ينقـل الشـكوى والمعانـاة، فمعانـاة الشـاعر العالـم خاصـة لا يدركهـا ويعـرف كنههـا عامّـة المجتمـع.

يشـتكي محمـد بـن عبـد اللّه البحرانـي[1] إلـى والـد علـيّ بـن معصـوم في قصيـدة أورد منهـا ابـن معصـوم ثمانيـة وعشـرين بيتًـا ووصفهـا بأنهـا مـن الفرائـد، منهـا:

(1) هـو أبـو عبـد اللّه محمـد بـن عبـد اللّه بـن إبراهيـم بـن شـبانة الحسـيني البحرانـي، ترجـم لـه ابـن معصـوم في السـلافة، فذكـر أنـه عالـم أديـب، دخـل الديـار الهنديّـة واجتمـع بوالـد ابـن معصـوم ومدحـه، وذكـره والـد ابـن معصـوم عنـد السـلطان وأكرمـه، ثـم ارتحـل إلـى الديـار الأعجميـة وتنقّـل في المراتـب حتـى ولـي مشـيخة الإسـلام، وذكـر أنـه عنـد ترجمتـه نـازل بأصبهـان، وقـد كتـب لابـن معصـوم سـنة 1070هـ. (ابـن معصـوم ع.، سـلافة العصـر في محاسـن أهـل العصـر، 2009، صفحـة 505)

أرى عَلَمًا مازال يخفق بالنصر ... به فوق أوج السعد تعلو يد الفخر
مضى العمر لا دنيًا بلغت بها المنى ... ولا عملٌ أرجو به الفوز في الحشر
ولا كسب علمٍ في القيامة نافعٌ ... ولا ظفرت كفّي بمغنٍ من الوفر
فأصبحت بعد الدرس في الهند تاجرًا ... وإن لم أفز منها بفائدة البحر
طويت دواوين الفضائل والتقى ... وصرت إلى طيّ الأماني والنشر

ومنها متبرّمًا من مكوثه بالهند مشتاقًا إلى بلاده هجر:

مضت في حروب الدهر غايةُ قوّتي ... فأصبحت ذا ضعفٍ عن الكرّ والفرّ
إلامَ بأرض الهند أذهب لذّتي ... ونضرة عيشي في محاولة النضر
وقد قنعت نفسي بأوبة غائبٍ ... إلى أهله يومًا ولو بيدٍ صفْر
إذا لم تكن في الهند أصناف نعمةٍ ... ففي هَجَرٍ أحظى بصنفٍ من التّمْر
على أن لي فيها حماةً عهدتهم ... بناة المعالي بالمثقّفة السّمْر

ثم يذكر فضل ابن معصوم عليه لينهي القصيدة بالتصريح بطلبه، فيقول:

وإنّي لأرجو من جميلك عزْمةً ... تبلّغني الأوطان في مدّة العمْر
تقرّ عيونًا بالفراق سخينةً ... وتبرد أكبادًا أحرّ من الجمْر
وتؤنس أطفالًا صغارًا تركتهم ... لفرقتهم ما زال دمعيَ كالقطر
وعيشي بهم قد كان حلْوًا وبعدهم ... وجدت لذيذ العيش كالعلقم المرّ

(ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 518)

فبالرغم من علوّ رتبة من وُجّهت القصيدة إليه إلا أن طبيعة الشعر الإخواني تبرز في ثنايا القصيدة، حيث البوح الأخوي.

ويراسل الشاعر علوي بن علي البيتي[1] السراج عمر حيدر[2] شاكيًا له لوعة الغرام وصباباته، فيقول:

ألا من لعينٍ كحّلها السهد والكرى ... وقلبٍ مشوقٍ لا يقرّ خفوقه
ومهجة مكلومٍ بأدعج ناظرٍ ... غدا حارسًا فوق الخُديد بريقه
وروحٍ صَبَتْ نحو الصبا فتتابعت ... لها جملي والروح صعبٌ عقوقه
وغزلان ذاك الحيّ عنّيَ أجفلت ... فمن لي بذاك الريم كيف لحوقه
على أنّه لم تبق منّي بقيّةٌ ... بطول التجافي والجفا من يطيقه
ألا إنني في الحبّ آية عبرةٍ ... عذابي وتأنيبي كشهدٍ أذوقه
فيا ليت بعد القطع وصلًا أناله ... ولو أرعد الشاني فعندي بروقه
فمن لي بأن يولى بذاك وأين لي ... لقد عزّ حتّى في الخيال طروقه
ولمّا رأى الأصحاب ما بيَ أعرضوا ... وقالوا لها ذاك السراج وذوقه
فتى يُلبس الأفكار من درّ نظمه ... قلائد عقيانٍ وذاك عذيقه
فقلت لقد أذكرتموني وحبّذا ... فأحسن ما يبري السقيم صديقه
وذا عرض حالي نبض عشقي ولوعتي ... فصف لي دوا قلبي فأنت شقيقه
وخذها وسامح لا تشاحح فإنها ... لَمِنْ هائم من مقلتيه غبوقه
وقد عزّ طبّي يا فلان فإن يكن ... شفائي في شيء فذلك ريقه

(الداغستاني، 2009، صفحة 132)

تبرز القصيدة تلك العلاقة بين الشعراء الأصدقاء وهي علاقة تترجمها أشعارهم، فالشاعر الصديق أخ يعرض الشاعر عليه حاله ويطلب منه وصف الدواء الذي يخلّصه من معاناته.

(1) هو علوي بن علي بن محمد البيتي باعلوي، أديب شاعر له علم بالطب. (الأنصاري، 1970، صفحة 124) (الداغستاني، 2009، صفحة 130)

(2) هو عمر بن محمود بن حيدر البغدادي المدني، ولد في المدينة سنة 1144هـ، أديب شاعر. (الأنصاري، 1970، صفحة 195) (الداغستاني، 2009، صفحة 186)

ي - المساجلة والإجازة الشعريّة:

تبرز أهميّة المساجلة والإجازة الشعرية بطبيعتها التفاعليّة، حيث ينظم شاعر بيتا أو شطرا لينبري الشاعر الآخر بالنظم لإكمال ما بدأ به صاحبه.

ورد في ديوان جعفر الخطّي أنه جلس في بعض الليالي المقمرة في دهليز[1] مسجد في البحرين مع فتيان من أهل بلده لهم أنس بالأدب، فاجتاز بهم غلام راكب اسمه إبراهيم، فقالوا: قل في هذا المعنى شيئًا، فقال:

جاء سميّ الخليل راكب ... كأنه البدر في الكواكب
ويلاه من آس عارضيه ... والويل من خضرة الشوارب

فقال أحد الفتيان:

لا يحذر الله في اختلاس (م) النفوس ظلما ولا يراقب

فقال الخطّي:

كأنّما خدّه قضيبٌ ... وسود ألحاظه قواضب
تفعل أصداغه بقلبي ... أضعاف ما تفعل العقارب

فقال الفتى:

فإن دنا فالسرور دانٍ ... وإن نأى فالعذاب واصب

(الخطّي، 2005، صفحة 365)

(1) الدهليز: فارسي معرب، ما بين الباب والدار. (ابن منظور م.، 1990م، صفحة دهلز)

واقترح الشريف ماجد بن هاشم[1] على الخطّي عمل بيتين ليجيزهما فقال:

سواد فرع التي هام الفؤاد بها وحظّ عاشقها في اللون سيّان
ليلان ضاع صباح الوصل بينهما فايأسْ إذا اكتنف الإصباح ليلان

فأجازه الشريف بقوله:

حسناء ساءت صنيعًا في متيّمها يا ليتها شفعت حسنًا بإحسان
دنت إلينا وما أدنت مودّتها فما انتفاع امرئٍ بالباخل الداني

(الخطّي، 2005، صفحة 367)

ويذكر الخطي أنه سمر عند الشريف وبينما هم في السمر طلع البدر، فقال الخطي بديهة:

خذه إليك كصفحة المرآة بدرًا يكشّف حالك الظلمات

فأجازه الشريف قائلًا:

وكأنّه وجهُ المليحة حسّرت عنه ذوائب فرعها الفحمات
وكأنه والشهب محدقةٌ به ملكٌ أطاف به الجنود ثبات

فقال الخطي:

وكأنه الدينار بثّت حوله بيض الدراهم غير مجتمعات

(1) هو ماجد بن هاشم بن علي الحسيني، البحراني، قاضي البحرين، ولد ونشأ فيها، تقلّد الإمامة والخطابة بها، شاعر، توفي سنة 1028هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 252 ج5) (الحموي المكّي، 2012)

وكأنه والنقص يأخذ بعضه قرص اللجين مثلّم الجنبات
وكأنّه والمحو في أرجائه وجه الفتاة مجدّر الصفحات
(الخطّي، 2005، صفحة 374)

ويذكر الخطي كذلك أنه في سمر عند الشريف ماجد بن هاشم وكانت السماء ملبدة بالغيوم، فقال الخطي:

توشّحت السماء ببرد غيمٍ فأجمل بالموشّح والوشاح

فأجازه الشريف بقوله:

فقم وانهض إلى فرص التصابي فليس عليك فيها من جناح

فقال الخطّي:

أمط فُدُمَ البراني واجل منها بآفاق الكؤوس شموس راح

فقال الشريف:

كميتًا إن تُشَبْ بنمير ماءٍ يسكّنْ ما اعتراها من جماح

فقال الخطي:

يولّد فوقها حبباً إذا ما تغشّاها فتى الماء القراح

فقال الشريف:

وينزل من فم المبزال نبضًا كما نبْض الدماء من الجراح

فقال الخطي:

بكفّ مخضّب الكفّين رخْصٍ فسادي في محبته صلاحي

(الخطّي، 2005، صفحة 276)

ومن مساجلات الخطي ما ذكره في مسامرة له مع ماجد بن هاشم العريضي وأبي عبد الله الحسين الموسوي[1]، حيث تطارحوا ذكر الإخلاص والصفاء وتجاذبوا دعوى المروّة والإخاء، فقال الخطي على البديهة:

يا ليت أرواحنا الثلاث تجمّعن (م) جميعًا وضمّها جسد

كمثل أهوائنا الثلاثة قد ألّفها لاتّحادها كبد

أو مثل أجسامنا الثلاثة إذ ضُمِّنَها لإتلافها بلد

فأجابه الشريف محمد بن هاشم إجازة:

أو ليت أنّا أناملٌ جُمعتْ في راحةٍ مدّ كفّها عضد

أيعبث الدهر بالثلاثة والّـ أناملِ الخمس ضمّهنّ يد

فلا عدا مثلها إذا حسدي فربّما أدرك الفتى الحسد

(الخطّي، 2005، صفحة 384 ج1)

وبما يشبه المساجلة يشترك الشاعر سالم بن محمد المحروقي البهلوي العماني[2] مع الشاعر محمد بن عبد الله المعولي المنحي

(1) عرّفه محقق ديوان الخطّي بأنه أبو عبد الله الحسين الموسوي بن قاضي القضاة عبد الرؤوف بن حسين الجدحفصي. (الخطّي، 2005، صفحة 384 ج1)

(2) هو سالم بن محمد المحروقي البهلوي، من شعراء عمان في القرن الحادي عشر الهجري. (الخصيبي، 1994، صفحة 81 ج1)

المعروي العماني[1] من شعراء القرن الحادي عشر الهجري في كتابة قصيدة مركبة على الحروف الهجائية في مستهلّ البيت وسائر كلماته، مع طريقة المساجلة، مما يثبت ما نذهب إليه وهو أن أهم البواعث على شعر الإخوانيات رغبة الشاعر في رسوخ قدمه في قائمة الشعراء، ومن ثمّ المبارزة بين الشعراء في هذا المجال:

أأرجو إيابًا من أناس تحمّلوا ... أَأَمْ ثمّ أرجو أن يتوبوا فأمّلوا
بُليتُ ببيضٍ بهنكاتٍ بَرَيْنَني ... بحسن بهاءٍ باهرٍ يتهلل
تهادت تجرّ الذيل تيهًا وتارةً ... تمرّ فتحيي الصبّ طورًا وتقتل
ثناها ثناءٌ عن ثبوت ثوائها ... بثهلان ثارت تطلب الثأر تثهل
جرى يوم جدّالين جامد دمعها ... من الجفن جُونًا جوده يتهلل
حمى حيٍّ حيٍّ بالحمى حلّ حبّهم ... حشائي فحان الحَيْن حين تحمّلوا
خرائدُ خودٌ خرّدٌ خلت أنها ... من الخلد خيراتٌ خراعيبُ ترفل
دموعي دماءٌ من دمًى داءُ دلّها ... دوائي دنا دهري دهاني التدلل
ذريني فقلبي ذاب مذ ذهب العزا ... إذا وذوى غصني ذبولًا أولول
رشفت رضابًا راض ريّض روعتي ... رعيت رياضًا روضها يتهلل
زها مذ أتاني زائرًا زهو زهرةٍ ... زمان زكا زَيْنًا وما زال يجمل
سما سيرتي سرّت سرائرنا سرى ... سميري سُرىً يسري سرورًا ويسأل
شربت شمولًا من شتيت مشوبةٍ ... بشهرٍ شذاه مندلٌ وقرنفل
صحبت صدودًا واسطحيت بوصلكم ... صرفت هواكم فاصرموا الحبل أو صلوا
ضنا بفؤادي والضمائر ضائرٌ ... ضحى ضربت صفحًا فضلّ التجمّل

(1) هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن راشد بن محمد المعولي المنحي المعروي العماني من شعراء عمان في القرن الحادي عشر الهجري. (الخصيبي، 1994، صفحة 69 ج1) (المعولي، 2017)

طمست الهوى لـمّا بدا طالع الهدى ... بطلعة سلطان بن سيف المعوّل
ظفرت بظلٍّ بالظما غير ظائلٍ ... ظليلٍ وظنّي أنّه لا يحوّل
على عن عدوٍّ عال عول عذاته ... على عالم العليا فزال التعلّل
غنيت غنًى لـمّا غنيت بمنزلٍ ... لهم غير ذي عولٍ لمن فيه ينزل
فهم في فخار فاضلين فما فَنَتْ ... فضائلهم فاضت ففاض التفضّل
قدمت وقولي مذ قربت قراهمُ ... أيا قوم قوموا قوّضوا ثمّ أقبلوا
كفوا كلّ كفّارٍ كَنودٍ فكبكبوا ... كتائب كانت كالأسود تقلقلوا
لقد لامني لـمّا لجيت إليهمُ ... لئام بحولي لا لقوا ما يؤمّلوا
مكارمهم ما مان مذ مدّ مدحهم ... متى ما تمنّى من مناهم مؤمّل
نظرت نجومًا في النداء ونورها ... نما لا نأى عن ناظرٍ يتأمّل
ومن مثل سلطانَ وسيفٍ وإبنهم ... وفاءً وحكمًا في الموازين تثقل
هربت إليهم مذ هدوني إلى الهدى ... وأهدوا هدايا من هبات تعجّل
يقولون لي يا من يرجّي اليسار من ... ندا عصبةٍ من يعرب ذاك يحصل

(الخصيبي، 1994، صفحة 83 ج1)

اجتمع محمد علي الشوكاني مع لطف اللّٰه بن أحمد جحّاف[1] في إحدى النّزه، فقال جحّاف صدر بيت وطلب من الشوكاني يجيزه، ثم البيت الذي يليه، فالصدر لجحّاف والعجز للشوكاني في القصيدة كلّها، وفي ذلك دليلًا على أن الشعر كان رفيقهم وهاجسهم:

قد مدّ مطْرَفَهُ السحابْ ... والغيث آن له انسكابْ
والروض أصبح باسمًا ... كالخمر يعلوه الحَبابْ
والطير قد غنّى على ... دوْحٍ يصافحه الربابْ

(1) هو الفقيه لطف اللّٰه بن أحمد بن لطف اللّٰه جحّاف الصنعاني، ولد بصنعاء سنة 1189هـ، شاعر، توفي بصنعاء سنة 1243هـ. (زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 189)

والـنـهـر كـالأفـعـى جـرى ... بـين الـريـاض لـه انـسـيـابْ
والـــزهـــر في ساحـاتـه ... كـالـزّهْـر بينهما انتسابْ
لمجـامـر الأُتْـــــــرُجِّ في ... أرجـــاه عَـــرْفٌ مستطابْ
وغـــــدا لـثـغـر أقـاحـه ... مـــن بـــلٍّ وابـلـــه رضـــابْ
عـين الـرقـيـب بـأعـين الْـ ... ـمنـثور كـان لـهـا ذهـابْ
وعـيـــون نـرجـســه لـهـا ... في قـلـب نـاظـرهـا عـذابْ
في مـعـشـرٍ لـهـمُ الـعـلا ... والمجـــد إرْثٌ واكـتـسـابْ
ولـهـمْ بـكـاس حـديـثـهـم ... لـلـعـقـل سـحـرٌ واخـتـلاب
كـحُـلُـومـهـمْ وعـلـومـهـمْ ... الـبَـرُّ والـبـحـر الـعـبـابْ

(الشوكاني م.، 1986، صفحة 190)

ك- الاعتذار:

بما أنّ الشعر وسيلة مهمّة للتواصل بين الشعراء العلماء، فلا غرو أن يستخدموه في شتّى علاقاتهم الاجتماعية، ويعدّ الاعتذار من أبرز ما يدبّجه الصديق شعريًّا لصديقه.

فابن معصوم يدعو محمدًا بن عبد الله النجفي المالكي[1] إلى مجلس اجتمع فيه جمع من الأصدقاء، فاعتذر النجفي بسبب إصابته بالزكام بأبيات منها:

يا بارعًا في حيازة الحسب ... وبارزًا في شرافة النسب

(1) هو الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله النجفي المالكي نسبة إلى التابعي مالك الأشتر، شاعر، ممن دخل الهند واتصل بأعيانها، له إخوانيات مع علي ابن معصوم. (ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 554)

وحاويًا نور كلّ مكرمةٍ فضيّةٍ بين نرجس الشهب
عزّ على عبدك المتيّم أن دعوته مكرمًا فلم يجب
عارضه من زكامه خَصَرٌ أصبح منه الفؤاد في لهب
فخاف إن زاركم بعارضه يمنعه من رعاية الأدب

(ابن معصوم، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 561)

فرد ابن معصوم على هذه الأبيات الاعتذارية بقول:

يا بالغًا في بلاغة العرب أقصى الأماني ومنتهى الأرب
ويا بليغًا حوت بلاغته درّ المعاني وجوهر الأدب
ويا إمام سمت فصاحته قيْسًا وقسًّا في الشعر والخطب
ما الراح في صفوها ورقّتها مفترّةً عن مباسم الحبب
ولا العروس الكعاب ضاحكةً تبسمُ عن لؤلؤٍ من الشنب
أشهى وأبهى من نظم قافيةٍ أهديتها للمحبّ من كثب
أفادت النفس من مسرّتها ما لم تفدْه سلافة العنب
ألبستها نظمك البديع وقد وافتْ بليلٍ عقدًا من الشهب
فبتّ منها في نشوةٍ عجَبٍ مغتبقًا للسرور والطرب
وفزت منها بوصل غانيةٍ ترفلُ في حُلّةٍ من الذّهب
فأيّ قلبٍ لم تولهِ طربًا وأيّ عقلٍ دعته لم يجب
ضمّنتها العذر فاستلبت بها فنون همٍّ من قلب مكتئب
إن لم تجب دعوتي فأنت فتى يملأ دلو الرضا إلى الكَرب
سبحان موليك فطرة اللعب بالنظم والنثر أيّما لعب
دمت من العيش في بُلَهْنِيَةٍ تجرّ أذيالها مدى الحقب

(ابن معصوم ع.، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 59)

ويجيب ابن معصوم على حسين بن شرف الدين النجفي بقصيدة تقع في خمسة وثلاثين بيتًا يستهلها بمقدّمة خمريّة غزلية روضية منها:

قم هاتها كالنار ذات الوقود ... تسطع نورًا في ليالي السعود
واستجلها عذراء قد رقّصت ... ندمانها إذ همّ عليها قعود
واستلبت بالسكْر ألبابهم ... وهو على ما فعلته شهود
جنودها الأفراح عند اللقا ... فهل أتى القوم حديث الجنود
قد جعلوا قبلتهم دنّها ... فهم حواليها قيامٌ سجود
كأنها في الكأس ياقوتةٌ ... ذابت لفرط الوقد بعد الجمود
يديرها أغيد عذب اللمى ... تشابهت منها ومنه الخدود
ما فيه من عيبٍ سوى أنّه ... لا يحفظ العهد وينسى الوعود
أو غادةٌ هيفاء مجدولةٌ ... قد أثمرت قامتها بالنهود
في روضةٍ غنّاء مطلولةٍ ... تبسط للصّحب خدود الورود

ويتخلص عند البيت الرابع والعشرين لمديح النجفي، فيقول:

والصبح قد أسفر عن غرّةٍ ... منيرةٍ أشرق منها الوجود
كأنّه حين بدا مسفرًا ... وجه حسينٍ حين يلقى الوفود
السيّد الماجد من أذعنت ... له الورى من سيّدٍ أو مسود
والطاهر الأصل الكريم الذي ... قد طهرت بالنصّ منه الجدود
والحافظ العهد إذا ما نسي ... عند كرام القوم حفظ العهود

لينهي القصيدة بإطرائها والدعاء للنجفي:

واستمْلها غرّاءَ منظومةً ... كالعقد في لَبّة جيداء رُود
وافت تهنّيك بنصرٍ على ... شانٍ لدودٍ من محبٍّ ودود

فدم مدى الأيام مستبشرًا بعزّةٍ إقبالها في صعود
ما غرّدت في الروض أيكيّةٌ وزمزمَ الحادي بوادي زرود

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 141)

كتب علي بن معصوم إلى حسين بن شدقم قصيدة يعتذر فيها عن عدم إجابته لكتاب ورد إليه من ابن شدقم ولم يجبه سنة 1092هـ، تقع القصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتًا، استهلّها بمقدّمة غزلية منها:

يا كوكبًا لم تحْوه الأفلاك وبعارضيه مرزمٌ وسِماكُ
يحيي بطلعته النفوس ولحظه لدماء أرباب الهوى سفّاك
اغمد شَباك عن القلوب وصدّ بأهْـ ـداب الجفون فإنهنّ شِباك
أسَرَ الغرام لك القلوب بأسرها قسرًا فما يرجى لهنّ فكاك
أنّى يرجّى من هواك فكاكها من بعد ما علقت بها الأشراك
ما كنت أحسب للدموع بوارقًا حتى تلألأ ثغرك الضحّاك
بشفاته ماء الحياة لأنفسٍ أودى بهنّ من الصدود هلاك
ما ذقت موردها ولكن هكذا نقل الأراك وحدّث المسواك
قل للأراك أراك تلثم مبسمًا ما راح لاثمه سِواكَ سِواكُ

ثم يمتدح ابن شدقم لينهي القصيدة بالاعتذار، فيقول:

يا ليت شعري كيف رأيك بعدما حال الزمان ودارت الأفلاك
هل قائمٌ عذري لديك بما مضى منّي وقلبي بالخطوب يشاك
أم آخذٌ في العتْب أنت وتاركي حَرَضًا وأنت الآخذ التّرّاك
ما كان إهمالي الجوابَ لجفوةٍ لا والذي دانت له الأملاك

لكن مخافة أن يقول ويفتري عنّي المِحالَ الكاذبُ الأفّاك
وإليكها منّي عروسًا لم يكن لسوى ودادك عندها إملاك
لا زلت مقصود الجناب ممجّدًا ما لاح برقٌ واستهلّ سِماك

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 319)

كتب السيد حسن بن علي بن حفظ الله النعمي[1] إلى علي بن الهادي المنسكي، معتذرًا إليه في إبطاء كتبه عنه:

ما بُعْدُ كتبي عن الأحباب نسيان وقطع وصلي لهم والله سلوان
أو سلوةٌ بسواهم لا وحقّهم إنّي على عهدهم باقٍ وإن بانوا
وكيف أسلو وفي الأحشاء منزلهم والقلب ربعٌ لهم والجسم أوطان
ومن إذا شمت برقًا نحو ربعهم بُلّت من الدمع أردانٌ وأجفان
ومن إذا الطيف منهم زارني عجلًا يشبّ في مهجتي جمرٌ ونيران

(المحبي، 1969، صفحة 425 ج 3)

كتب السيّد محمد بن عبد الله بن شرف الدين[2] إلى السيد لقمان[3] الذي ذهب إلى ذمار ولم يودّعه، إذ كان نائمًا، فقال معتذرًا:

(1) هو محمد بن علي بن حفظ الله النعمي الحسني، ولد سنة 1026هـ، أديب شاعر، جمع شعره ابن أخيه أحمد بن الحسن، توفي سنة 1079هـ. (المحبي، 1969، صفحة 421 ج 3) (المحبّي، 1968، صفحة 57 ج4)

(2) هو عز الإسلام محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين بن الإمام شمس الدين المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى الحسني، من أعيان ملوك كوكبان المشهورين بالعلم والفضل، أديب شاعر، توفي سنة 1010هـ، وذكر الشوكاني في البدر الطالع أنه توفي سنة 1016هـ. (المحبي، 1969، صفحة 274 ج 3)

(3) هو لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى. (المحبي، 1969، صفحة 213 ج 3)

مـن عذيـري مـولاي منـك فقـد ... غـادرت قلبـي لمـا بـه مـن غـرام
رحـت عنّـي في نومتـي فتوهّمَـ ... ـت بـأنّ اللقـاء طيـفُ منـام
وشـجى نفسـي الفـراق فناجتْـ ... ـني إنّ الفـراق في الأحـلام
زعمتنـي وسـنان وجـدًا ومالـت ... بـي لمـا زخرفـت مـن الأوهـام
وأنـا الآن لسـت أدري أيقظـا ... ن أنـا أم مهـوّمٌ لهيـام
سَـكْرَةٌ مـن جـوى فراقـك مـولا ... ي ولا سـكرةُ الرحيـق المـدام

فأجابه السيد لقمان بقوله:

سـيّدي لا تـرى علـيّ فإنّـي ... بطلوعـي بـادرت صـوب الغمـام
وثيابـي كمـا علمـت مـن الرقّـ ... ـة قـد أَذَّنَـتْ بصـدق انصـرام
لـو تـرى السـحب قـد أطلّت لسـالت ... فـوق متنـي أبِـتْ لليـل التمـام
فابسـط العذر يا أخي إنّ فعلي ... قـد تجـاوزت فيـه حدّ احتشـام
ونظامـي هـذا فقيـرٌ إلـى سـتْـ ... ـرك فاسـتر فأنـت ربّ النظـام

(المحبّ، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 367 ج 3)

الفصل الرابع

سمات شعر الإخوانيات

أولا- السمات الأسلوبية:

تتداخل مستويات التحليل الأسلوبي، وترتبط بالأسلوب اللغوي، ولكن ليس على أساس فهم اللغة، وإنما على أساس فهم كيفية استعمال اللغة في النص الإبداعي، حيث النظر من منطلق التحليل الأسلوبي إلى الأساليب البلاغية التي تتضمن الصوت والدلالة لمعاينة النصوص الأدبية والأثر الذي تتركه في المتلقي. انظر: (ثابت وحجل، 2020)

أ. المقدمة الغزلية:

يتحتّم على دارس شعر عصر الدول المتتابعة معرفة طرائق الصوفية التي يسلكونها ومشاربهم التي يمتحون منها لكتابة الشعر، فالمسلك الصوفي يبرّر حضور المعاني الغزلية في شعر الإخوانيات تلك الأداة التي أثبتت نجاعتها لدى الشاعر الصوفي في جلِّ أغراض شعره.

وحضور المرأة في القصيدة العربية ماثل منذ الجاهلية، وهو حضور يتجاوز الغزل المباشر إلى جعل المرأة رمزًا يستغله الشاعر ليجعله معادلًا موضوعيًّا؛ يسقط عليه ما يستبطنه من مرارات الهوى من فراق وبَينٍ وإعراض وإخلاف مواعيد ومن شوق وتشوّق

وإحساس بالكبر والشيخوخة. ولا يخفى ما للنص الغزلي من قبول عند المتلقّي الذي ينشد الشاعر إقباله ورضاه.

الاحتفاء بشعر الغزل من لدن الرجل والمرأة جعله فنًّا معتبرًا تستبطنه القلوب قبل العقول، إذ في سبيل إرضاء الحبيبة يسعى العربي متفننًا في الوسائل الموصلة إلى ذلك، معملًا براعته وخياله وعبقريته ...، والمرأة في ذلك كله تنتقل على أجنحة العواطف والقلوب والخيال، فتتزيأ بأزياء، وتتشكل بأشكال شتى، فهي ملك كريم، أو حورية عبرت الجنان، أو بلبل يصدح في خميلة، أو وردة يضوع عبقها، أو ظبي شارد». (شيخ أمين، 1989، صفحة 115)

وقد استمر شعر الغزل العذري العفيف في هذا العصر مجال هذا البحث متدفّقًا «بغزارة تماهي اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وكثرة شعرائها، ولا نكاد نجد شاعرًا لم يخض في بحر الغزل، ولعلني لا أتجاوز الحقيقة إن قلت إن حجم ما خلفه هذا العصر من شعر الغزل يفوق أي فن من فنون الشعر الأخرى». (أبو علي، 2009)

والمقدّمة الغزليّة لقصيدة الإخوانيات غالبًا ما تنزاح بمعناها عن المقدّمة الغزلية المعهودة في الشعر العربي، وإن أوهمت لوهلة أنها غزلية صرفة، إذ يتوسّل الشاعر بالغزل - على طريقة شعراء الصوفية- ليجعله حبًا واشتياقًا للأخ الصديق، فالشاعر يثبت بصنيعه هذا إدراكه تميّز القصيدة الإخوانية وخصوصيتها، حيث أتت المقدمة الغزلية منزاحة عن المقدمة الغزلية التقليدية، متميزة بنَفَس أسلوبي مغاير.

لا غرو أن تبرز الغزلية في دواوين شعراء العصر، فالشاعر محمد خليل السمرجي الجداوي للغزل في ديوانه نصيب كبير، ويظهر أن غزل الشاعر نتاج تجربه حقيقية، وهو لا يرى في الغزل عيبًا ومنقصة، إذ نجده يقول ردًّا على من يلومه:

ما على اللائم لو كفّ حجاجي ... وكفاني واكتفى شرّ علاجي
إنما الصبوة طبعي والهوى ... خُلقي والعشق صهباء زجاجي
فلْيَنَلْ ما شاء منّي لائمي ... وليداجينيَ ما شاء المداجي
ذاك في حلٍّ وذا في سعةٍ ... إنّ عذبي لهما دون أجاجي
أيّ قلبٍ بين جنبيّ غدا ... في الهوى بين مهادٍ وفجاج
فإذا الورّق شَدَت ودّعني ... قائلا استودع اللّه معاجي
وبكثبان النقا من عالجٍ ... ملتقى دائي بليلى وعلاجي
موقفُ حظّ فؤادي منه أن ... تتمشّى فوقه العِين السواجي
لا يريني اللّه إيثاري به ... برء أسقامي على داء اعتلاجي
إنما صحّ مزاجي بالهوى ... فإذا صحّ الهوى صحّ مزاجي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 23 أ)

ويقول كذلك:

أيها اللائم لو ذقت الهوى ... لم تُفِدْ باللّوم في الشمس سراجا
أَيَعِي اللوم من اسْتَرْوَح مِنْ ... ظلّ بانات النقا بردًا فعاجا
أم فؤادٌ كلّما راجعه الصبر (م) في سلوانه زاد لجاجا
آه لو يرمقك الحبّ على ... غفلةٍ أعياك داءً وعلاجا

(السمرجي، مخطوط، صفحة 23 أ)

وهنـاك مقدمـة غزليـة تراعـي التقليـد العربـي المعـروف، لكنهـا كمـا أسـلفنا تتغنـى بمحاسـن الممدوح/الصديق. فتـزاوج وتمـزج الغـزل بالمديـح الإخوانـي فتكـون المحصّلـة شـعرًا ذا طبيعـة خاصـة، يقـول محمـد بـن يحيـى قابـل الجـداوي[1]:

سـلوت وإنِّـي مغـرمٌ يـا أخـا الـودِّ ... أليـف التصابـي لا أزال على عهدي
عهدتـك مثلـي فانتبـذت مُجانبًـا ... وخلّفتني يا صاح في سكرتي وحدي
فبالحـبّ هـل في سـلوة الحـبّ لـذّةٌ ... رغبـت إليهـا أو ظفـرت بـها بعـدي
أراك تركـت الحـبّ عـن غيـر باعـثٍ ... وفرّطـت فيـه بل وأفرطت في بُعدي
فمـا لَـكَ يـا خِـدْن اللطافـة والصّبـا ... جنحْـت إلى الغيّ الصُّراح عن الرشد
أَلَسْنـا اتّخذنـا الحبّ نَهْجًـا ومَذْهَبًـا ... وهِمْنـا بِمَنْ نـهوى على القرب والبعد
ومِلْنـا مـع الشـجوى إلـى كلّ فرصـةٍ ... بلغْنـا بـها في ميْلنـا منتهـى القصـد
فما ميل أعطاف الغصون على الرّبا ... وقد صافحتها من نسيم الصّبا أيد
بأميـل منّـا حيـث يجذبنـا الهـوى ... لنيـل لبانـات الصّبـا بيـد الوجـد
فما كان ظنّي فيك سلواي عن هوى ... وَرَدْنـا بـه في وِرْدِنـا أَعْـذَبَ الـوِرْد
فأمسـيت مَحْلـول العقـال وإنّنـي ... أسير الهوى لم أثن عن عبْئِه جهدي
علـى أننـي مـن ذاك لسـت بجـازعٍ ... لشيءٍ سوى أنْ ليس عندك ما عندي
فهـلاّ تـرى العَـوْد الحميـد لـمبدأٍ ... كلفنـا بـه والعَـوْد مسْـتلزم الحمـد

(الشريف، 2010، صفحة 315 ج2)

(1) هـو جمـال الديـن محمـد بـن يحيـى قابـل، شـاعر لـه ديـوان شـعر مخطـوط حققـه محمـد بـن راضـي الشـريف، وهـو محفـوظ كرسـالة علميـة في مكتبـة جامعـة أم القـرى بمكـة المكرمـة. تـوفي بعـد سـنة 1224 هـ. (كحالـة، ج12، ص109). (الحضـراوي، 1996، صفحـة 263)

ونجد قصيدة لابن معصوم تشتمل لوازم غزلية شتى، إذ يهيمن السُّرى على القصيدة فيجعله مطيةً للنفحة والغرام والوجد والسكر والصبا والعبهر والخزام وما إلى ذلك من المعاني، والشاعر حين يحشد هذه المعاني يؤكد ما نذهب إليه من زيادة الاحتفاء بالقصيدة الإخوانية والاستعانة بكل أدوات الغزل كما هو الحال في أغراض الشعر العربي الأخرى؛ لتكون القصيدة مؤثرة في المتلقي ومبرهنة على مدى القدرة الشعرية لمنشئها:

سَرت نفحةٌ من حيِّهم بسلام ... فأَحيَت بما حيَّت صَريعَ غَرامِ
لئن نَقعَت من لاعج الوجد غُلَّةً ... فمن بعد ما أَورَت لهيبَ أوامِ
أَحيَّت براحٍ أَم بريّا تحيَّةً ... سكرتُ بها سُكري بكاس مُدامِ
سرت قبل مَسراها الصَّبا بشميمها ... فأَزرت بعَرفٍ عَبهرٍ وَخُزامِ
ووافى شَذاها بالشِّفاءِ لمدنفٍ ... من الشوق مَغلولِ الجَوانح ظامي
وَلَمّا دَنت منّي حللتُ لها الحُبى ... وَبادرتُ إِعظامًا لها بقيامِ
وَمطَّت قناعَ الطِّرس عَن ضوء حسنها ... فنارَ بها رَبعي وضاءَ مقامي
فشنَّفتُ سَمعي من فَرائد لفظها ... بجوهر أَسلاكٍ ودُرِّ نظامِ
وَقلَّدتُ جيدي من تقاصير نظمها ... عقودَ لآلٍ فذَّةٍ وتؤامِ
وَلَم أَدرِ ما أَهداه لي حسنُ سجْعها ... أَرنَّةَ شادٍ أَم هديلَ حَمامِ
كأَنَّ معانيها بحالِكِ نِقْسها ... بدورُ تَمامٍ في بهيم ظَلامِ
كأَنَّ مبانيها مباسمُ غادةٍ ... نضَت عن لآليها فضولَ لثامِ
كأَنَّ قوافيها أَزاهرُ رَوضةٍ ... تبسَّمن صُبحًا عَن ثغورِ كِمامِ
وَما بالُها لا تجمع الحسنَ كلَّه ... وقد بلغت في الحُسن كلَّ مَرامِ
ولا غروَ أَن أَربت على القول أَنَّها ... كَلامُ ملوكٍ أَو مُلوكُ كلامِ

(ابن معصوم، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 409)

فالغزل حاضر في هذه المقدّمات التي يزاوج منشؤها بين المعاني الغزلية التقليدية والملمح الإخواني مستبطنًا رابط المحبة والأخوة والصداقة وزمالة تعاطي حرفة الأدب، ويشي ذلك بنوع من التحدي والمباراة الخفية بين شاعرين يحشدان كل ما أوتيا من قوة هذه المعاني المختلطة التي أصبحت مدار الإشادة والإطراء من لدن المؤرخين والمترجمين لشعر العصر وشعرائه.

وترتكز المقدمة الغزلية على ثنائية الطيف والخيال، وهو تقليد عريق في الغزل العربي، أُلفت فيه كتب:

طيفٌ أَلَمَّ به فنبّه شَوْقَه ... لمّا أَلَمَّ وكان في إغفائه
ولعلّه لـمّا تنبّهَ قام عن ... طيف الخيال نيابةً عن رائه
فصحا لينظر ما ألمّ فلم يجد ... إلا خيال الشوق في أحشائه
لا تشجِ قلب الصبّ إنّ جفونه ... شرقت بوابل دمعها من مائه
أظننت أن سلوّه عن أرضه ... من أرضه أو من ظليل سمائه
أنَّى وقد دارت عليه ولم تقف ... في كفّ لاعجه رحى برحائه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27 أ)

وهناك مقدمة غزلية لمحمد خليل السمرجي تراعي التقليد العربي المعروف، لكنها كما أسلفنا مغايرة تتغنى بمحاسن الممدوح/الصديق، وذلك عند مدحه صاحبه أحمد بن رضوان:

ليالي الهنا لا زلت صادقةَ الوعْد ... لدينا وحيّا اللّه عهدك من عهد
يمينًا لقد حرّكت سلسلة الهوى ... عليّ وأبديت الذي لم أكن أبدي
هوًى كان في ذيل الشبيبة والصبا ... طرازًا وعصرًا كان أحلى من الشهد
وكنت خليًّا فاستفزّني الهوى ... بما زادني ذكراه وَقْدًا على وَقْد

فللصحب وادٍ عزّ عنّي سلوكه ... لعذرٍ وأشجاني ولي شجنٌ وحدي
فما حُزْنُ محزونٍ على فوت فائتٍ ... بأعظم من حزنٍ على فوت ما عندي
فما لي عباد اللّٰه والفضل واسعٌ ... أيست على أن الرجا شيمة العبد
وماذا عسى ذنبي وقد وسع الورى ... ميادين عفو اللّٰه مستوجب الحمد

(السمرجي، مخطوط، صفحة 36 ب)

وقد تخال المقدّمة الغزلية نسيبًا صرفًا حتى تصل إلى بيت التخلّص للإطراء، فتلفي أن الشاعر مزج بين معاني الغزل والشعر الإخواني، مثال ذلك ما نجده عند محمد خليل السمرجي إذ يزاوج بين الغرام والمجد، فيؤكّد أنه يرتاح للغرام وينحاز للمجد الذي يتمثّل في هذا الصديق، وما الغرام عن هذا الصديق ببعيد لاسيما والقصيدة إخوانيّة، يقول:

بباهر حسنٍ يزدهيني طرازه ... وصفحة خدٍّ نقطة الخال لازُه
وبالثغر يزهو باللآلئ حقيقة ... إذا افترّ في الأصداف منه حجازه
أجرنيَ من فتك الصّدود بمهجتي ... فصدّك ما لا يستطاع برازه
وما أنا من يقوى بمعترك الهوى ... ولحظك يسطو في القلوب حرازه
حمى السحر هاتيك الجفون وصانها ... وضاعف لين القدّ منك انغمازه
ودار نطاق اللين منك بمعطفٍ ... إذا دبّ فيه الزهو راق اهتزازه
وحقك ما سرّ الغرام بذائعٍ ... وذلك أمرٌ يستحيل جوازه
ولكنّ طرفي بارتجال مدامعي ... ليشعر عمّا في الضمير ارتجازه
له اللّٰه صبٌّ بالغرام ارتياحه ... وللمجد أنّى يستطيل انحيازه
وإن يُعْنَ مجدًا غير مجد ابن صالحٍ ... فتبًّا لرأي قد عداه احترازه
عماد المعالي بل عمود صباحها ... ومن بالمعاني والعلوم امتيازه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 39 ب)

وكذلك يستهل محمد خليل السمرجي إخوانيته في صاحبه أبي بكر معبد على شاكلة هذه المقدّمة الغزلية، يقول:

رويدك لا تكن أُذنًا لواشي فتقنع والقناعة للمواشي
فتقنع بالسلوّ عن التصابي وتسلو عن حبيبك بالمعاش

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 / أ)

وفي مقدمة قصيدة إخوانية موجهة للشاعر جعفر البيتي يستعين الشاعر باسم سعاد ليوظفه رمزًا للسعادة التي تخامر الشاعر عندما يخطر بباله ذلك الصديق، يقول:

خطرت سعاد فماج بالسحر النّقا أفعوذةٌ تغني المتيّم أم رُقى
وتبسّمت فاهتزّ عطف الغوْر من طربٍ وكاد بأن يطير إلى النّقا
أفرايدُ تلك الفرائدُ تبتغي طِيبَ الورودِ وأين منك المستقى
اغنم مسالمة الهوى وتوقّ من طرفٍ يصيب خطاه شاكلة التقى
واحذر قوامًا لا ترى من بعده شطرًا زها في الروض إلا ملحقا
واقْرِ السلام على السلامة في الحمى مهما بدا لك أن ترقَّ وتعشقا
فهناك من زبر الحديد عصابةٌ فلقوا الحديد مضاعفًا والفيلقا

(السمرجي، مخطوط، صفحة 42 أ)

ب- تأنيث القصيدة والتغزّل بها:

تعدّ المرأة الحاضر الأكبر والأكثر تشعّبًا في بناء الأغراض الشعرية التقليدية، وقد استقلت بغرض من أهم أغراض الشعر وهو الغزل، وتصدّرت به غيره في معظم مقدّمات القصائد، وقد أسلفنا أن التغزل بالمرأة اعتمده الشعر الصوفي واستخدمه رمزًا

متجاوزًا به اللغة التقريرية المباشرة، قال المواعيني: «ولما لم تجد الصوفية كلامًا أهزَّ للنفوس البشرية وأبعثَ لإطرابها وأبثَّ لأشواقها من أشعارٍ في النسيب ووصفِ المحبوب، تناشدتها وتفانت على أعراضها وهامت بظواهر ألفاظها، لكنهم يعنون المحبوب الذي لا يوجد منه الاضطراب، ولا الصدود إذا صدّ الأحباب». (عباس، 1983، ص515)

والاستعانة بالمعجم الغزلي في بناء القصيدة الإخوانية ليس خاصًّا بهذا العصر، فهذا صفي الدين الحلّي[1] يصف قصيدته بقوله:

صُغتُ القَريضَ وَلَم أَقُلْهُ تَكَلُّفًا ... لَكِنَّهُ طَبعٌ لَدَيَّ عَزيزُ
أَجلو عَليكَ مِنَ القَريضِ عَرائِسًا ... مِن خِدرِ أَبكاري لَهُنَّ بُروزُ
أَبكار أَفكارٍ تُزَفُّ كَواعِبًا ... لا كَالعُقارِ تُزَفُّ وَهيَ عَجوزُ

(الحلّي،2016، ج1، ص331)

ومثال ذلك ما نجده في مقدمة قصيدة لصالح بن إبراهيم الحكمي[2] كتبها للمحبي صاحب كتاب نفحة الريحانة:

قَوامٌ أَنبتَ الرُّمَّانَ نَهْدًا ... وغُصْنٌ ماسَ أم قَدٌّ تبدَّى
وبَرْقٌ ما أرى أم دُرُّ ثَغْرٍ ... يُنظِّمه بديعُ الحسن عِقْدًا

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 306 ج 4)

(1) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي الطائي، شاعر عصره، ولد في الحلّة سنة 677هـ، رحل إلى القاهرة ومدح الملك الناصر، توفي ببغداد سنة 750هـ. (الزركلي، 1992، صفحة 18 ج4)

(2) هو صالح بن إبراهيم بن محمد بن أحمد حكيم الملك، جدّه فارسي الأصل ولد بمكّة ونشأ بها، ترجم له المحبّي في النفحة، وذكر أنه قابل في الحرم المكّي الشريف. (المحبّي، 1968، صفحة 302 ج 4)

وهناك من شعراء العصر من قارن بين الأبيات المطراة والعروس الجميلة، لينتهي بتفضيل الأبيات على العروس، فهذا ابن معصوم من شعراء القرن الحادي عشر الهجري يجيب محمد بن عبد الله المالكي[1] واصفًا قصيدته:

ما الراحُ في صَفوها ورقَّتِها ... مفترَّةً عن مَباسِم الحَبَبِ
وَلا العَروسُ الكعابُ ضاحكةً ... تبسمُ عن لؤلؤٍ من الشَنبِ
أَشهى وأَبهى من نظم قافيَةٍ ... أَهدَيتَها للمحبِّ من كثَبِ
وَفزتُ منها بوصلِ غانيَةٍ ... ترفلُ في حُلَّة من الذَهبِ

(ابن معصوم ع.، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 59)

وهناك من يتحدّث عن القصيدة متغزلًا بها لا مشبهها بالفتاة الجميلة بل هي الحسناء التي حظيت بأجمل نعوت الجمال لدى المرأة، يقول مصطفى بن فتح الله [2] يرد على أحمد بن محمد مكي[3]:

بَعَثْتَ بِخَوْدٍ يخجلُ البدرَ حسنُها ... عقيلةِ أترابٍ بها صرتُ ذا شُغْلِ
سلافيةُ الألفاظِ شمسيةُ السَّنا ... مُدَامِيَّةُ الألمَى لحالِ الشَّجِي تُملي

(1) هو جمال الدين محمد بن عبد الله النجفي المالكي نسبة إلى مالك الأشتر، ترجم له ابن معصوم في السلافة ترجمة وافية وأورد له عدّة نصوص شعريّة، ذكر أنه دخل الهند وخدم سلطانها، وذكر ابن معصوم أنه كتب إليه مرجعا سنة 1073هـ. (ابن معصوم ع.، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، 2009، صفحة 554)

(2) ذكر المحبي في النفحة أنه حكى له مكاتبة إخوانية شعرية بينه وبين أحمد محمد مكي في المدينة. (المحبّي، 1968، صفحة 384 ج 4)

(3) هو أحمد بن محمد بن مكّي، ممن ترجم لهم المحبي في نفحة الريحانة بدون توسّع، أورد له أربعة نصوص شعريّة. (المحبّي، 1968، صفحة 383 ج 4)

فأفرشتُها خدّي وأوسدتها يدي ... وصيّرتها منّي بمنزلةِ الخِلِّ
وبتُّ أعاطيها ثنايَ معظَّمًا ... عليك وجادت عند ذلك بالوصل
وقبّلْتُها ألفًا وألفًا وضِعْفَها ... فحياك ربُّ العرش يا زاكيَ الأصل
ذكرتُ بها عهدَ الصبابةِ والهوى ... وكنتُ تناسيتُ المحبّةَ بالفعل

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 385 ج 4)

وللمنلا علي بن القاسم[1] على الطريقة ذاتها:

أتَتْ تسلبُ الألبابَ طرًّا كأنَّها ... ربيبةُ خِدْرٍ ذاتُ سمطٍ وخلخال
أتت من خليلٍ قربُه غايةُ المنى ... ومنظرُه الأسنى غدا جلَّ آمالي

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 230 ج 4)

ويصف الشاعر أحمد بن محمد مكّي أبياتًا لزين العابدين الصديقي، فيقول:

لُؤْلُؤُ الثَّغْرِ المُنَضَّدْ ... فيه جِريْالٌ مُبَرَّدْ
بَسمَتْ عنه ثَنايَا ... رَشأٍ أحْوَى وأغْيَدْ
أم رياضٌ عِقْدُ دُرِّ الـ ... ـمُزْنِ فيها قد تَبدَّدْ
أم نجومٌ مُزْهِراتٌ ... مِن سَناها النُّورُ يُوقَدْ
أم نَسِيمُ الصبح أبْدَى ... لإمامٍ قد تَفَرَّدْ
سيِّدٍ حَبْرٍ هُمام ... أوْحَدٍ من نَسْلِ أَوْحَدْ
مَن له حَالٌ وقَالٌ ... بِهِما السادَاتُ تشْهدْ

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 383 ج 4)

(1) لم أعثر له على ترجمة.

وعلى هذه الشاكلة يمضي ابن معصوم ليزاوج في وصف قصيدة الصديق وقصيدته بين الخمرية والغزلية:

وافت قصيدتُكَ الَّتي فعلت بنا ... فعْلَ المُدامة بالنُهى والأرؤسِ
أَلبستَها وشْيَ الكلام فأَقبلت ... مختالةً تَزهو بأَبهى مَلبَسِ
ما ضَرَّ سامعَها وقد جُليَت له ... أَن لا يُجيلَ كؤوسَها أَو يَحتَسي
جدَّدتَ لي عَهدَ الصِّبا بنسيبها ... وربوع عهدي بالصِّبا لم تدرسِ
وَإِليكها غَرّاء تَستلبُ الحجا ... وَتَروضُ كلَّ جموح طَبعٍ أَشرَسِ
نضَّدتُ عِقدَ نِظامها وبعثتُها ... دُرَرًا تَفوقُ على الدّراري الخُنَّسِ
وَكسوتُها من وصف ودِّك حُلَّةً ... هَزَّت لها عِطف المحلّى المكتسي
تُجلى عليك وَنجمُ سعدِك مُشرِقٌ ... في قِمَّة الفَلَكِ الرَفيع الأطلسِ

(ابن معصوم ع.، ديوان ابن معصوم، 1988، صفحة 241)

يكتب الشاعر الإخواني قصيدته بأدوات تستمد شرعيتها من العرف السائد لهذا الفن، فالقصيدة تتدثّر بالجلباب الأنثوي الذي طالما استمد منه الإدراك الشعري أداة فاعلة لجلب انتباه المتلقّي والتأثير عليه، ومن جانب آخر فالمشاعر الرقيقة التي يُودعها الشاعر قصيدته يناسبها القالب الأنثوي البضّ، ومن المفارقة التي تثير الغرابة أن شعر الإخوانيات شعر صداقة خاص بالرجال، ويغلب عليه الطابع الذكوري، إلا أنه لم يستغن عن المرأة، بل جعل لوازم التغزّل بها أداة لهذا الفن من الشعر.

ج- وصف الطبيعة:

من المواضيع التي تتمثّلها القصيدة الإخوانيّة وصف الطبيعة، وذلك لقربه من النفوس وحبّها له، ووصف الطبيعة غرض ينضوي تحت مظلّة الوصف، الذي تُدرج تحته كلّ أغراض الشعر، ويدلّ وصف الطبيعة على أصالة الشاعر الذي يتمثّل في شعره الجمالَ المحيط به الذي تأتي الطبيعة في أعلى هرمه.

يقول فتح الله بن النحاس وهو في بستان بمكّة المكرّمة بصحبة شيخ الحرم شمس الدين عتاقي أفندي[1]، عام 1043هـ:

لله يومٌ قد غنمنا به ... بفتيةٍ أيّامهمْ تُغتنم
نجوم عرفانٍ بها يهتدى ... إذا بدت غابت نجوم الظُّلَمْ
والروض قد ألبسنا عطره ... وثغره قابلنا وابتسم
فحيثما دُرْتَ فنجمٌ بدا ... وحيثما ملْتَ فعطرٌ نَسَمْ
لم أدرِ أيّ الزهر أبهى سنًى ... أشمَلُه أم شملُنا المنتظم
كأنّما بهجة نوّاره ... آثار (شمس الدين) شيخ الحرم

(ابن النحاس، 1991، صفحة 165)

فمن الملاحظ أنه جعل شيخ الروض مشبّهًا وشيخ الحرم مشبّهًا به، وفي الأبيات التالية يجعل في صحبة الشيخ الحرم تمام الأنس وكماله، فمجلسه روضة ذات شذى، يقول:

جود (شمس الدين) شيخ الحَـ ... ـرم المولى (عتاقي)
كلّ يومٍ نحن منه ... في اصطباحٍ واغتباق

(1) هو شيخ الحرم المكي شمس الدين عتاقي زادة، ذكره السنجاري في أحداث 1040هـ. (السنجاري، 1998، صفحة 99 ج 4)

وريـــــــاضٌ أجـلـسـتـنـا ... مـــن شـــذاهـــا في رواق
واجـتـمـاعٌ ربِّ لا رُوِّ ... عـــت مـــنـــه بـالـفـراق
ورفـــــاقٌ كـأنـابـيـب الْـــ ... ـقـنـا ذات اتّـســاق
وأيـــاديـــه الـتـي منْـ ... ـهـا عـلـى الـدهـر بـواق
أنـا مـهـمـا أطـلـقـتْ شكْـ ... ـــريَ مـنـهـا في وثـاق

(ابن النحاس، 1991، صفحة 166)

ويصف العباس بن علي المكي بستان أحمد بن يحيى الأزهري المدني مؤرّخًا زيارته لإيوانه في هذا البستان الكائن في العوالي في المدينة المنورة سنة 1140هـ، فيقول:

للّه بستانٌ حللنا روضه ... كجنّة الفردوس بل وأزيدْ
وكيف وهو في حمى خير الأنا ... م الهاشمي القرشي أحمدْ
هزاره يغنيك في تغريده ... وشجْوه عن نغمات معبدْ
وبلبل الأسحار غنّى طربًا ... على الغصون والحمام ردّدْ
والجلّنار خلته كأنّه ... خدود ميّاس القوام أغيدْ
والورد فاح عرفه كأنّه ... ثناء مولانا الخطيب أحمدْ
والفلّ والريحان كلّ منهما ... ذكّرنا عهد الصّبا وجدّدْ
كذلك الكاديُّ قد شبّهته ... صوارمًا يوم اللقا تجرّدْ
والبدر ما بين النجوم خلته ... وجه الرئيس الأزهريّ المفردْ

وبعد الإطناب في إطراء الأزهري والإشادة بإيوانه يختم القصيدة مؤرخًا:

يا صاح قل في مدحه ما تشتهي ... ومدح إيوانٍ به تأيّدْ

وقـل لمـن يـريـد تـاريـخًـا له ... بـلـفـظ درٍّ فـاخـرٍ مـنـضّـدْ
أرّخـتـه في بيت شعرٍ قد زها ... بـــودّي الـــوافي يـتـمّ إن عـدْ
ديـــوان أنـــسٍ بـالـعـلا مـشـيّـدُ ... لنجل يحيى الأزهـريّ أحمدْ

(الموسوي المكي، بدون، صفحة 330 ج2)

د- التكرار:

التكرار في الشعر سمة أسلوبية بارزة، إذ يعمّق الإيقاع داخل البيت الشعري، ويضفي على النسيج الشعري قدرًا كبيرًا من التنغيم والجرس، ويمدّ التعبير الشعري بزيادة في الدلالة.

يظهر أسلوب التكرار بارزًا في ديوان الشاعر محمد خليل السمرجي وفي إخوانياته بخاصة وهو شائع في دواوين شعراء العصر، إدراكًا منهم بأهميته؛ فالشاعر عندما يكرر يضع علامة مبينة عن اهتمام معيّن، فمن أحب شيئًا لهج بذكره، ففي الأبيات التالية نجده يكرر ألفاظ (المحبّ، سادتي، أنت)؛ مما يؤكد صدق المشاعر، ويضفي على الأبيات جمالية أسلوبية:

والمحُّب المحُّب إن رام أمـرًا ... لم ينل من نجاحه غير مهْلةْ
سادتي سادتي حنانًا وعطفًا ... بمحبٍّ مضنى الفؤاد مدلّه
أنت في الملك أم على الفلك الأطلـ ... ـس أم في الشموس أم في الأهلّه
أنت في الكون أم على العالم العلـ ... ـوي إمام وللملائك قبله

(السمرجي، مخطوط، صفحة 45 ب)

ويبرز أسلوب التكرار في أبيات يجيب بها عبد الملك القلعي[1] على قصيدة السمرجي التي أنشأها على لسان أحمد زين العابدين زادة[2]؛ وذلك يثبت ما ذُكر سابقًا بتوظيف هذا الأسلوب في شعر الإخوانيات ويؤكده، حيث يكرر القلعي حرف الجر (إلى) في مستهل ثمانية أبيات:

أهدي سلامًا كسحيق المسكِ ... أو كالدراري نظمت في سلكِ
مع عرائس التحيات التي ... يفوق لطفها الصبا إن هبّت
إلى قباب المجد والتعظيم ... إلى جناب العزّ والتكريم
إلى مقام دونه الأفلاك ... تضيء من أنواره الأملاك
إلى الإمام العالم العلامةْ ... إلى الهمام الفيصل الفهامةْ
إلى قريع الفخر والسيادة ... إلى رفيع القدر ذي الإفادة
إلى اللبيب والأريب الألمعي ... إلى الأديب والنجيب اللوذعي
إلى المثيل الماجد الرشيد ... إلى النبيل الحاذق المجيد
إلى الصديق الصادق الوداد ... إلى الرفيق السامي العماد
إلى ربيب المجد والعلياء ... لا زال في معزة قعساء

(السمرجي، مخطوط، صفحة 118 أ)

ويكرر (أم) في ثلاثة أبيات:

فما دريت يا شقيق الروح ... أشرقت الشمس بهذا السوح

(1) هو الشيخ عبد الملك بن القاضي عبد المنعم بن تاج الدين محمد القلعي، فقيه السادة الحنفية، محدّث الديار الحجازية، ولد في مكة المكرمة سنة ألف ومائة ونحو الخمسين، ولي الإفتاء بمكة، توفي بمكة سنة 1229هـ.
(البيطار، 1963، صفحة 1044 ج2)

(2) لم أعثر له على ترجمة.

أم سطعت بطرسك البدور أم كان فيه اللؤلؤ المنثور
أم روضةٌ أريفةٌ غناءُ قد دبّجت أزهارها الأنواء
أم النجوم نضّدت في سمط أم غادةٌ من البها في مرط

(السمرجي، مخطوط، صفحة 119 أ)

ويكتب حسن مصطفى البوسنوي المدني إلى الشاعر محمد أمين الزللي المدني سنة 1223هـ قصيدة يقول فيها:

أجلّ الذي يهديه حِبٌّ إلى حبّ سلامٌ جميلُ الوصف يبديه من حبّ
سلامٌ يروق العين زين وروده ويُروى إوام الصبّ ما فيه من سكْب
سلامٌ تبدّى في بياض سواده سواد بياض الطرف مع حبّة القلب
سلامٌ يحاكي في حصول وصوله قميصًا إلى يعقوب من صاحب الجبّ
سلامٌ سليمٌ من سليمِ فؤاده سوى طبّ طيب القرب لم يلق من طبّ
سلامُ مشوقٍ أوهب الشوق سمعه لطارق باب الدار والعين للدّرب
سلامٌ سرى من طيّ طيبة نشره من الروضة الغرّاء طيّبة الترب
على الفاضل الفرد الذي جمّع فضله تناءى عن الإحصاء بالكتْب في الكُتب
على سندي ذخري وشيخي سيّدي وحبّي الذي أهواه في البعد والقرْب
أميني على سرّي الكمين ومأمني ومعتصمي إن آذن الدهر بالحرب
فيا ربّ فاحفظه بعين عنايةٍ وخوّلْه ما يرجوه يا ربّ يا ربّ
وبلّغْه في برٍّ وبحرٍ سلامةً وذلّل إليه كلّ ما عزّ من صعب
ومنّ بجمع الشمل بيني وبينه ببلدة طه سيّد العجم والعرب
عليه صلاة الله ثمّ سلامه مع الآل أرباب الكمالات والصحب

(البوسنوي، نسخة طولة، صفحة لوحة 17 أ)

ويبدو أنّ البوسنوي مغرم بالتكرار، ففي قصيدة ذُكر أنه كتبها إلى بعض الأحباب بلغت واحدًا وثمانين بيتًا يكرر فيها كلمة (سلام) اثنين وعشرين مرّة، منها:

سلامٌ يفوق البدر بالطلعة الحسّنا ... سراج ابتهاج الدهر أبْدَا به الحسنى
سلامٌ بديعٌ جامع الحسن مفردًا ... فرادى المعاني الغرّ مثني به مثنى
سلامٌ شجى العشّاق شادي سماعه ... وجاريه بالأشواق قد أطرب البدنا
سلامٌ حلا ما مرّ تكرير لفظه ... يكاد فم الأسّماع يرشفه معنى
سلامٌ كأنوار الربيع بديعه ... بدا مطلعًا من كلّ فنٍّ له فنّا
سلامٌ حكى الجنّات دانية الجنى ... ثمار مجاني الروض من سوله تُجْنَى
سلامٌ كيسّرٍ غبّ عسّرٍ سروره ... يجلّ انعقادًا منه حزن النوى حزنا
سلام مشُوقٍ أبعد الدهر قربه ... وأدنى إليه الشوق ما لم يكن أدنى
سلامُ مقيمٍ راحل الصبر ناحلٍ ... ثوى فنوى ظعنًا فلم يطق الظعنا
سلام شجٍ ما ذاق بالبعد سلوةً ... وما زال يرجو في أحيبابه المنّا
سلام الذي أمسى من النوم معسرًا ... فأودع في أيدي السها طرْفه رهْنا
سلامٌ به يعفو غريم غرامه ... متى رام في سجن العباد له سجْنا
سلامٌ يحاكي في حصول وصوله ... قميصًا أتى يعقوب ممّن ثوى السجنا
سلامٌ سرى من طِيب طيّبة نشره ... من الحجرة الغرّاء بالروضة الغنّا
سلامٌ على نهديه من حرمٍ علا ... إلى حرمٍ ما زال محترما أمنا
سلامٌ على أمّ القرى وزمانها ... سلام به الآباء خُصّت من الأبنا
سلامٌ على ورد الشفاء بحجرها ... فكم بورود الصبّ فيه الهنا هنّا
سلامٌ على شعبٍ بما شئت عامر ... ومن نال بالمعلاة من سفحه المغنى
سلامٌ يؤمّ البيت من نحو بابه ... يقابل بالتقبيل ثغر له الركنا
سلامٌ عليه كلّ يومٍ وليلة ... يطوف به التعظيم خمسين أو أدنى

سـلامٌ على تنعيـم زاهـر روضـه ... وفـخٍّ لأطيـار الأمانـي غـدا ركنـا
سلامٌ على سعيٍ بسوق الصفا الذي ... حلاوته بالعقـد قد حلّت الصّحْنا
سـلامٌ علـى تلـك المعاهـد كلّهـا ... سـلام لسـان الشوق جمعًا له ثنّى
سـلامٌ علـى جنـات روضٍ نعيمهـا ... فمـن لـي منهـا أن أنال بها عدْنا
سـلامٌ على الدار التي قد تشـرّفت ... بمن حاز في ساحات راحاتها السكنى
سـلامٌ على تسنيم سـامي سـمائها ... سـلامٌ كمـا التسـنيم مـورده يهْنَـا
سـلامٌ علـى نـادٍ بـه سـرّ مـن رأى ... وشامخ قصرٍ بالسنا شاده البنّا
سـلامٌ على مرأى من النور سـاطعٍ ... ينيـر بأنـوار الكمـال لـه المبنـى
سـلامٌ على ذاك السـراج الـذي بـه ... يوضّـح ليـل الوهـم بالفهـم مـا جنّـا

(البوسنوي، نسخة طولة، صفحة 25 أ)

هـ- الاعتذار عن قصور ما كتبه الشاعر:

مـن أدبيـات شـعر الإخوانيـات إظهـار الشـاعر تواضعـه، وتأكيـده تفـوّق صديقـه الشـاعر، واسـتماحته العـذر علـى التقصيـر في الـرد، وطلـب قبـول الـرد علـى علّاتـه، بينمـا الأمـر ليـس كذلـك فشـاعر الإخوانيـات قـد بـذل كل مـا لديـه مـن أدوات لتجويـد شـعره، حيـث المحسـنات البديعيـة، والمزاوجـة بـين الإطـراء والمديـح والغـزل، لكـن هـذا الأسـلوب خصيصـة لـدى الشـاعر الإخوانـي، فالعلاقـة إخوانيـة حميميـة يناسـبها التواضـع ليتحقـق المـراد، وليـس ثمـة ندّيـة أو تفـوّق.

مـن ذلـك ردّ الأميـر الصنعانـي علـى قصيـدة لمحمـد بـن سـالم بـن وصـال الأحسـائي يسـتحقر فيهـا شـعره تواضعًـا ضمّنها قول الشـاعر:

صـاح إن كنـت بالمـدارك غـرًّا ... ثـمّ أبصـرت حاذقًـا لا تمـاري

يقع جواب الصنعاني للأحسائي وردّه على استحقار شعره في تسعة وعشرين بيتًا، استهلها بمدح الأحسائي وأدبه:

بنْتُ فكرٍ وافت كشمس النهار ... فعلتْ في الفؤاد فعلَ العقار
عطّرت سوحنا بطيب شذاها ... حين وافت كالغادة المعطار
وأضاءت أرجاءنا فحسبنا (م) الشمس قد أشرقت من الطومار
يا لها من خريدةٍ صاغها الفكْـ ... ـر فأزرت بسائر الأشعار

إلى أن يردّ على تواضع الأحسائي وتحقير شعره ويذكر البيت المُضمّن فيقول:

أنت ربّان كلّ بحر نظامٍ ... جئت بالفلك حاملًا للدراري
إنّ أرضًا نشأت في سوحها الرحْـ ... ـب لأرضِ الكرام والأحرار
قل لأرض الحسا تتيه افتخارًا ... وتزاحم مصرًا وكلّ الديار
قد وثقنا أنّ العلوم ستحيا ... بك في جملةٍ من الأقطار
وعلمنا أن سوف تطلع بدرًا ... ساطعًا في محافل الأحبار
لست - والله - بالمدارك غِرًّا ... بل خبيرًا عرفتها باختبار

ثم يختم الصنعاني قصيدته بالاعتذار عن قصور نظمه، فيقول:

وعلى سوحك الرحيب سلامٌ ... دائمٌ في الآصال والأبكار
ثمّ عذرًا إذا رأيت نظامي ... في اختلالٍ وركّةٍ وانكسار
فيَراعي أنشاه في حال شغْلٍ ... لم يعرّبْهُ قطّ بالأفكار

(الأمير الصنعاني، 2009، صفحة 213)

يبرز في تحقير الأحسائي لنظمه واعتذار الصنعاني عن اختلال نظمه ظاهرة اعتذار الشاعر تواضعًا عن قصور شعره، مهما بلغت علميته وموهبته الشعريّة.

ومن ذلك ردّ محمد خليل السمرجي على السيد حسين عشيش:

لا تعرضنّ بنات فكرك إنّه لم يلق عندي كفؤ بعض إمائه
فلتحمد الأفكار فكرك إنّما إنشاؤها كَلٌّ على إنشائه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27 أ)

وكذلك إخوانيته الموجهة لأحمد رضوان:

إليك مديحًا من محبٍّ تقاصرت به خطوات المدح من رتبة الحمد
فإن صادفت منك القبول فحسبها وإلا فحسبي أنّها منتهى جهدي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 36 ب)

ويخاطب السمرجي أبا بكر معبد[1]:

وعفوًا عن زمانك أن تجارى وجارى الباز جهلًا باخشاش
ولو أوتيت فهمًا من ذكاءٍ لما نمّقت ما أنا فيه خاشي
فشعرك لا يقاس به نظامي وما الأهرام من هرم العشاش

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 أ)

وفي نهاية إخوانيته لجعفر البيتي نجده يعتذر كذلك:

هذا مقام العائذ الراجي على تقصيره أن لا تراه الأحمقا

(1) لم أعثر له على ترجمة.

وإليكها ابنة فكرةٍ حامت على ... تقبيل كفّك بالقريض تسلّقا
لكناء أقسمت الفصاحة أنّها ... رجحت بباقل في الفهاهة منطقا
فانسج لها ستر الرضا المنسوج من ... إحسان طبعك ما أرقّ وأشفقا
وإذا عثرت بظلمةٍ في لفظها ... فاختر لها بدلًا كبيتك مشرقا

(السمرجي، مخطوط، صفحة 42 أ)

ويجيب محمد أمين الزللي المدني على قصيدة من أحمد الأزبكاوي، يظهر التواضع والاعتذار عن مستوى القصيدة بقوله واصفًا الأبيات «مع علمه بأنها كلّها قصور، غير أنها متهدّمات»، فيقول:

هيهات ما عاطلٌ من حلّيةٍ كحَلي ... ولا النبال كسهمٍ سيم بالكحل
وليس فارغُ قلبٍ من هوى كَمَلِي ... ولا الشجيّ بمن يهواه مثل خلي
تريدني أبتغي في حبّه بدلًا ... وليس لي عنه من ندٍّ ولا بدل
أنَّى لي الميل عن غصنٍ ترنّح في ... زُهْر الحُليّ وأوراقٍ من الحلل
بالنبل أهدابه ترمي، وقامته ... واللحظ تسطو ببيض الهند والأسل
أغرّ قاضي هواه قد رأى تلفي ... يا ليت أنّ الهوى يقضي عليّ ولي
يودّ ظبي الفلا لو كان يشبهه ... في الالتفات وحسن الجيد والمقل
يجلّ عن مَثَلٍ فيما حواه كما ... جلّ (الشهاب) بهذا القطر عن مثل
الأزبكاويّ من آيات فطنته ... وفضله ظهرت كالشمس في الحمل
أديب مصر الذي ظلّت تفاخر ما ... عدا حماها بما قد حاز من جمل
فيا فريد بني الآداب أجمعهم ... ومن مآثره أعيت عن الأول
من خدر فكرك قد أهديت غانيةً ... لحسنها لم يوشّح عطفها بحلي
وافت بلطفٍ فوفّت نحو مغرمها ... عطفًا وأروته بعد النهل والعلل
وهذه يا عديم الندّ جاريةٌ ... جاءتك تعثر في ثوبٍ من الخجل

فابسط لها فضل ثوب الانبساط ولا تطو البساط فلطّف الطبع عنك جلي

(الزللي، 1985، صفحة 121)

و- التشخيص:

من السمات البارزة في الشعر الإخواني تضمين القصيدة صفات بشريّة مائزة تتفوّق بها عن المعاني المعروفة، من ذلك تشخيص الشاعر محمد خليل السمرجي الفخر ليجعله يجاري ممدوحه السيد حسين عشيش، لتنتهي المجاراة بفوز هذا الممدوح علوًّا:

ندبٌ لَوَ انّ الفخر جاراه إلى أمدٍ لقصّر عن مدى غلوائه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27 ب)

ويشخّص السمرجي الليل بقوله:

والليل يشكو النوى مثلي فَيُحْزِنُني فراقه لجواري الزهر في الأفق

(السمرجي، مخطوط، صفحة 42 ب)

ويشخص النسيم والروض، فيجعلها تشكر وتثني:

يشكره النسيم في الأسحار والروض يثني عن فم الأزهار

(السمرجي، مخطوط، صفحة 117 أ)

وقوله وقد جعل للفظ ثغرًا وأسنانًا مفلّجة:

من كلِّ لفظٍ ثغره مفلّجٌ يزهو بمعنى خدّه مفرّج

(السمرجي، مخطوط، صفحة 117 أ)

ومن الملاحظ أن طبيعة شعر الإخوانيات الفنية تصطبغ بطبيعة العصر وإن كان لهذا الشعر خصوصيته التي حاول هذا البحث مقاربتها وإبرازها، فالاحتفال بالمحسنات البديعية وحشدها يعدّ سمة بارزة في شعر العصر بعامة، بل يعدّ مؤشرًا على الإبداع والإلمام بالأدوات الشعرية.

ز- الوزن والقافية:

يعدّ الإيقاع الشعري سمة مهمة من سمات الشعر العمودي؛ لذلك جاءت أوزان القصائد الإخوانية على بحور متنوعة، وبعضها يحتاج إلى البسط والإطناب بينما هناك ما لا يحتمل ذلك، ويظهر تنوّع البحور العروضية وأحرف الرويّ عناية الشاعر بالوزن والقافية، وإدراكه لأهميّة ذلك في البناء الشعري إلى جانب الأدوات الفنيّة الأخرى.

من الرويّ الصعب النادر نسبيًّا حرف الضاد، ومنه ما دار بين الشاعر ابن بهران وبعض أصحابه، حيث أرسلوا إليه:

سلامٌ وما التسليم يقضي لنا فرضا ... إذا لم تقبّل بين أيديكم الأرضا
ولا تحسبوا طول المدى عن مزاركم ... لأجل ملالٍ في القلوب ولا بغضا
ولكنّها الأقدار تجري على الفتى ... ضرارًا بما لا تشتهيه ولا يرضى

فأجاب ابن بهران بقوله:

حرامٌ على عينيّ أن تطعم الغمضا ... إذا لم أرَ وجْهَ التواصل مبيضًّا
وكيف يلذّ النوم لي أو يزورني ... ومقراض فرط الشوق يقرضني قرضا
أحبّة قلبي شرّفوني بزوْرةٍ ... يعضّ لها الحسّاد أيديهمُ عضّا

ألم تعلموا أنّي أرى حبّ غيركم حرامًا كما أنّي أرى حبّكم فرضا
وأنّي وإن أحببت قومًا سواكمُ جعلت لكم صفو المودّة والمحضا
وأقسم لو ولّعت قلبي بغيركم ولا عرفت نفسي بعهدكمُ نقضا
ولو زارني بالقرب منكم مبشّرٌ جعلت له خديَّ يا سادتي أرضا
وإن كان يرضيكم هلاكي ببعدكم فإني لما ترضون من تلفي أرضى
عليكم سلام الله ما لاح بارقٌ سلامٌ يحاكي منكم الوجه والعِرضا
ولا برحت منّي إليكم رسائلٌ يموت بها أهل العداوة والبغضا

(ابن بهران، 2006، صفحة 269)

ثانيا- السمات البلاغيّة:

لا تكاد تخلو قصيدة بل بيت شعريّ من محسّن بلاغي، وسنورد بعض هذه المحسّنات وأشهرها دورانًا في قصائد الإخوانيّات، أما الإحاطة بها كلها فيحتاج إلى مُؤلَّف خاص، وهذا الكتاب يختصّ بشعر الإخوانيّات من حيث البواعث والسمات البارزة.

أ- الجناس:

للجناس البديعي النصيب الأوفر بين المحسنات البديعية التي أكثر من حشدها شعراء ذلك العصر، يكتب أحمد بن الحسين شرف الدين إلى محمد بن إبراهيم الشريف أبياتًا يعتمد فيها الجناس التامّ:

أخبار أيامنا العوالي صحاحها نجل العوالي

أيّـــام سَـلْـعٍ وأيـــن سَـلْـعُ ... مـــرّت عـلـى أنـهـا حـوالـي
دهـــرٌ حـبـانـي بـكـلّ سـؤل ... وكـان طـوعـي ومـا حـوى لي
وسـاحـر الـطـرف ضـنّ عنّي ... بـالـطـيـف في عـالـم الخـيـال
بنى على الشكّ في المعاني ... واستقبل الجامع الخيالي

فأجابه الشريف بقوله:

طـالـع سـعْـدٍ قـضـى وفـالـي ... أنّ حـبـيـبًـا حـقًّـا وَفَـى لِـي
وبُـلْـبُـلُ الأيـكِ راح يشدو ... بـراحـتـي وانـشـراح حـالـي
رافـع صـوتٍ بـخـفْـضِ عيشٍ ... جـديـدُهُ صِـيـنَ عـن وَبَـال
ذكّـرنـي إذ شَـدَا وغَـنَّـى ... مـا مـرّ لـي مـن حميد حالي
لـيـالـيًـا كـنَّ كـالَّـلآلِـي ... سـالـف عيشي بـهـنّ حـالـي
كـم خـوَّلـتْـنـي ونـوَّلـتْـنـي ... تـلـك الـلـيـالـي مـن الـنّـوال
فـليـت أنّـي اتـخـذتُ عـهـدًا ... لا فـوَّتَ الـبـين والـنَّـوى لي
ولا قـضـت بـافـتـراق شملي ... وشـمـلِ مـيـمـونـةِ الـشِّـمَـال
كـم طـوّقـت جـيـدهـا الليالي ... زنـد يمـيـنـي مـن الـشِّـمَـال
وكـم سـقـتـنـي بمـا سقتني ... مـن مُـسْـكِـرٍ طـاهـرٍ حَـلالِ
لـو بـعـده ذُقْـتُ أيَّ حُـلْـوٍ ... أسـتـغـفـرُ اللّه مـا حـلَا لي
للّه عـيـشٌ خـلا وكـلٌّ ... كما قضى ذو البقاء خالي
لـيـت الـذي عـمّـه جـمـالٌ ... وخـصّـه حُـسْـنُـه بـخـال
رقّ لـرقّ عـزيـز قـوم ... أرخـصـه الحـبُّ وهـو غـالـي
مـا رقّ لـي مـرّةً صـديـقٌ ... ممـا أقـاسـي ولا أوى لي
ولـم أجـدْ مـثـلَ واحـدٍ في ... أواخـر الـنـاس والأوَالـي
طـوَّقَ جـيـدي بـعِـقْـدِ نـظْـمٍ ... شُـهْـدًا على الحالتين حالي

يا واحدًا في العلا فريدًا وسابقًا ما تلاه تالي
وخيرُ من صام من نهارٍ وقائمٍ في الدجى وتالي
إنّ مسمّاك في اكتسابٍ لأحمد الحمد غير آل
عليك أزكى السلام تترى بعد نبيٍّ وبعد آل

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 337 ج3)

ونجد الجناس التام في أبيات للسمرجي بين (قُلّة) بمعنى الجرّة و(قِلّة) بمعنى القليل، يقول:

وأذاقوا الحلاوة الوصل صبًّا سكب الدمع قُلّةً بعد قِلّه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 45 أ)

ونجد جناسًا ناقصًا بين (واشي، مواشي) في قوله:

رويدك لا تكن أذنا لواشي فتقنع والقناعة للمواشي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 أ)

وبين (أعدائه، أعضائه) في قوله:

مهلا فإن الموت من أعدائه وترفّقا فالسمع من أعضائه

(السمرجي، مخطوط، صفحة 27 أ)

وبين (غشاء، غواشي) في قوله:

منى الأقمار أن تلقي عليه غشاء والشموس ترى غواشي

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 أ)

وبين (الملكي، الملك) و(مولائي، ولائي) و (مفلّج، مفرّج) و(إنسان، إنسان) وذلك في قصيدة يجيب بها على القاضي عبد

الملك القلعي نيابة عن أحمد زين العابدين زادة:

عـلّامـة الأعـلام في الأنـام ... وشـيـخ الِاسـلام بـلا كـلام
ذي الحلمِ والطبع الشريف الملكي ... مولاي فخر الدين عبد الملك
نعم ولا يخفى على مولائي ... ومـالـكـي ومـن لـه ولائـي
وصـولُ مـرسـومِـكُمُ الـكـريمِ ... غلطتُ بل عقدُ النهى العظيمِ
مـن كـلّ لـفـظٍ ثـغـره مفلّج ... يـزهـو بمعنى خـدّه مـفـرّج
فلو وفا دهـري وفـاء حظّي ... ما ضاع في تسليم أيدي الحفظ
إذ الجـواب خـبـرٌ لمبتدا ... وكلّ صوتٍ ليس يخلو من صدا
ووالـدي أكـرم بـه إنسـانـا ... صـار لـعـين دهـرنـا إنسـانـا

(السمرجي، مخطوط، صفحة 117 أ)

والجناس بأنواعه له شأن كبير في شعر العصر، فهو من أبرز أدوات الشاعر لإثبات تفوّقه في نظم الشعر وأهمها، شأنه شأن المحسنات البديعية الأخرى.

ب- التوجيه:

يُعدّ التوجيه فنّ قائم بذاته يختلف عن التورية والإيهام لكنه قد يلتبس بهذه الفنون لدقّة مسلكه، والفيصل في تمييزه أن تكون المفردة متلائمة مع أسماء الأعلام أو قواعد العلوم بتطابقها مع معنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقي بخلاف التورية.

يعدّ التوجيه مؤشّرًا على براعة الشاعر وسعة اطّلاعه، ولا غرو في ذلك، فالشعراء جلّهم من العلماء الذين يجيدون اللغة العربية الفصحى؛ لذلك تجدهم يمررون من خلال التوجيه

البلاغي أسماء الأعلام والكتب والمصطلحات العلميّة.

يوجّه الشاعر علي البيتي[1] باسم الشيخ عارف حكمت في عتابه له، بمصطلح شائع وهو (شرط الواقف)، فيقول:

لِمَ التّجاهل يا عارفُ ... ويا ليت شعري ما الصارف
منعت السلام بلا موجبٍ ... وأهملت ما شَرَطَ الواقف

ويوجّه الحسن بن أحمد عاكش الضمدي[2] في إجازة لتلميذه أحمد بن محمد الضحوي التهامي[3] بالبحور العروضية، فيقول:

ولست بأهلٍ أن أجيز وإنّما ... سمعت لطوع الأمر وهو رشيد
وهاك إجازاتي بكلّ مؤلَّفٍ ... بسيطٍ وإسنادي إليه مديد

(زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 199 ج1)

كما نجد التوجيه حاضرًا في ديوان السمرجي في قوله:

حروف هنا جاءت ومجرورها المنى ... إليك بماضي الوصل فهو مضارع

(السمرجي، مخطوط، صفحة 40 ب)

حيث وجّه بمصطلحات نحويّة، والتوجيه بمصطلحات النحو

(1) هو علي بن محمد البيتي باعلوي، ولد في المدينة المنورة سنة 1115هـ، أديب شاعر تولّى وزارة لشريف مكّة، توفي سنة 1175هـ. (الداغستاني، 2009، صفحة 124) (الأنصاري، 1970، صفحة 127)

(2) هو الحسن بن أحمد بن عبد الله، المعروف بعاكش، مؤرّخ، من أهل ضمد في تهامة، ولد بها سنة 1221هـ، وانتقل إلى زبيد فصنعاء، توفي بمدينة أبي عريش سنة 1289هـ، له عدّة مؤلفات. (الزركلي، 1992، صفحة 183 ج2)

(3) هو العلامة أحمد بن محمد بن إسماعيل المعافى الضحوي الحسني، نسبة إلى قرية الضحى ولد سنة 1233هـ، عالم أديب، له مؤلفات ومصنفات. (زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 198 ج1)

شائع عند شعراء العصر، إذ يُعدّ علم النحو والإلمام به دالًا على فصاحة الشخص وابتعاده عن اللحن.

ويوجّه عبد الغني النابلسي في قصيدة يقرظ بها كتب عبد الكريم الخليفتي العبّاسي بأسماء البحور العروضية فيقول:

وبحور الشعر التي هي فيها ... دافقاتٌ لسائر الأفهام
وطويل الهنا مديدٌ بسيطٌ ... وافرٌ عند من بها متسامي
وبها الكامل المضارع فضلًا ... لعلاها المجتثّ بين الأنام
فاعلاتٌ مستفعلن فاعلاتٌ ... خفّة اللفظ في كمال احتشام

(النابلسي، 1998، صفحة 294 ج 3)

يلاحظ أنّ التوجيه يحتاج إلى أن يكون لدى الشاعر قدرة على توظيف ذلك في شعره باجتلاب الأسماء والمصطلحات التي توافق مرامه، إذ ينبئ هذا الصنيع عن مقدرة خاصة من لدن الشاعر بإدراك المعاني الدقيقة للأسماء بتوجيه دلالاتها بحس لغويّ مائز.

ج- التأريخ الشعري:

يعدّ التأريخ الشعري المعتمد على حساب (الجُمّل) مظهر تميّز واقتدار إبداعي عند شعراء هذا العصر، لذا حرص الشعراء على التفنن في صياغته، يذيّلون به قصائدهم الإخوانية، ذلك التفنن الذي يستنزف جهد الشاعر على حساب الصياغة الشعرية الأصيلة.

ففي ختام قصيدة يؤرخ محمد خليل السمرجي لمولود كانت القصيدة تهنئة به، فيقول:

هـاك بيتًـا ضـمّ تاريخًـا حـوى غايـة العـزّ بمولـود السـعاده
بأبـي بكـر تهنّـا يـا وجيـ ـهًا حبـاك اللّه فينـا بالسـياده

(السمرجي، مخطوط، صفحة 122 أ)

فالبيت الثاني هو بيت التأريخ، يوافق بحساب (الجمّل) سنة 1178هـ.

ومما يدلّ على أهمية التأريخ الشعري عند شعراء العصر ما ذكره النابلسي في رحلته من أنّ عبد الرحمن جلبي المدني المشهور بعابدي أرسل له أبياتًا حول صواب من اعترض عليه في وزن عروضي وتاريخ شعري، إذ قال أبياتًا ليعرض مسألة الخلاف على النابلسي ويطلب رأيه فيها، يقول مبتدئًا بمدح النابلسي وعرض مسألته:

إلى ماجدٍ ذلّت صعابُ القصائدِ مُمنّعة الإدراك عن كلّ قاصد
إلى حَكَمِ الآداب إنسان عينها إلى روح جسم الفضل شمس الأماجد
إلى من حوى من كلّ فنٍّ أصوله إلى من غدا بيتًا لحجّ المقاصد
يميّز منها زيفها من نضارها ويفصل منها بين جارٍ وراكد
تحرّك داعي الوجْد يومًا بدوحةٍ بها جمّع أحبابٍ وبسط فوائد
فجادت بأبياتٍ خلت من قصورها عن الغاية القصوى قريحة ماجد
ولكنها كادت تسيل لطافةً فناظَرَها دهري بمقلة جامد
ولا غير فعلان المطرّز وشْيها فهل فيه عيبٌ عند ذوق المناشد
وهذا بهاء الدين عالم فارس ارْ تضاه وهل يكفي به من مساعد
فلا زالت الأقلام تسعى لنحوكم فيرجعن من دارين ملأى المزاود
ولا انفكّ بحر الشعر يجري بفيضكم فيقذف منه عنبرًا في الموارد
ودمْ حَكَمًا عدْلا لكلّ عويصةٍ تزيل صدا إشكالها عن معاند

ثم يعقب ذلك بكلام نثري مفاده التأكيد على صحة وزن أبياته محلّ الخلاف ويستشهد بقصيدة الملّا بهاء الدين مفتي شاه عبّاس -وهي قصيدة مشهورة عارضها كثير من الشعراء- التي مطلعها:

يا نديمي بمهجتي أفديكْ قم وهات الكؤوس من هاتيكْ

ثم يذكر الأبيات محل الخلاف وهي:

صاحَ بادرْ لمشرق الأنوارْ وتمتّعْ بمطلع الأسرارْ
وتملّى بروضةٍ عظمتْ عن سواها بجيرة المختارْ
روضةٌ أينعت عضائدها حين جاست خلالها الأنهارْ
وعروس النخيل قد جُليتْ وتحلّت قلائد الأثمارْ
وتهادت والطلّ نقّطها بجمانٍ وفاحت الأزهارْ
رقص الغصن حولها طربًا وتغنّتْ سواجع الأطيارْ
ضاع فيها عبير نرجسها ونسيم الصّبا عليه دارْ
وحوت بركةً مربّعةً جلّ تثمينها عن المقدارْ
وبإيوانها ترى نزهًا يا لعمري تستوقف الأبصارْ
فهي تجلو هموم ذي شجنٍ بشذاها وتصقل الأفكارْ
قد حَكَتْ حُسْنَ خلْق ساكنها من تحلّى بحلية الأخيار
الجمال الذي به انتظمت درر الصّحْب في طلا الأسمارْ
نجل عبد العزيز من شهدت بمزايا صفاته الأخبارْ
جدّدت مذ جلا محاسنها ببياضٍ فزادها أنوارْ
جاء تاريخها على عجلٍ حين لا بدّ نعْم هذي الدارْ

ويقول النابلسي معلّقًا على الأبيات قبل الردّ الشعري: «غايته أنه جاري على عادة أهل المدينة في نظم التواريخ أنهم يزيدون

بعد لفظة (أرّخ أو أرّخوا أو تأريخه) ما ليس محسوبًا من التاريخ، والتاريخ هنا قوله: (نعم هذي الدار، وأما قوله: (على عجل حين لا بدّ) فحشو لا مدخل فيه لحساب التاريخ، وهو معيب عندنا، فكتبنا له نحن الجواب عن ذلك في الحال فقلنا:

سرت بين يقظان الغرام فَـرَاقِدِ ... نسيمة لطفٍ من سماء فَراقِدِ
فأهدتْ شذى روض الكمال لناشقٍ ... وأبدتْ معاني فضل أهل المحامد
وجاءت تُرينا حُسْن مطْلع وجهِ مَنْ ... حَوَتْ بردتاه مجدَ فخرِ الأماجد
رضيع لَبَان الفضل والأدب الذي ... زكا مشربُ الآداب منه لوارد
إليك فخذْ عنّي جوابًا مفصّلا ... كعقد لآلٍ في نحور الخرائد
ودعْ عنك صرْف الذائدين عن العلا ... بتسويل مصروف ووسواس حاسد
فقد يجمع الإنسان من غير جنسه ... كما جمعوا خَلْدًا بلفظ مناجد[1]
هو الشعر إلا أنّه السحْر للحجى ... ولكنّه عصر الشباب المعاود
ولطف معانٍ في سلاسة منطقٍ ... يميل بأفكار الحجا المتزايد
وقد جاء في بحر المديد وفاؤه ... بفعلان في فعْلنْ كثير القصائد
ومن ذاك للطّرْماح أبلغ شاعرٍ ... قصيدته الغرّاء ذات الفرائد
أتتْ شتَّ شعْث الحيّ فاسمع مقالتي ... ففيها ترى بعد التئام لقاصد
ونحن لنا فيه القصيد بوزن يا ... نديمي وقل أفديك جمّ الفوائد
وكم من قصيدٍ هكذا جاء وزنها ... لأكمل منطيقٍ وأفصح ناشد
ومقصود أهل الذوق حسْن تناسقٍ ... ورقّة لفظٍ في انسباك شواهد
وشأن مراعاة العروض تكلّفٌ ... فيأتي بلفظٍ ناظمُ البيت بارد
كما أنّ حسن الصوت يطرب والذي ... يحرّره بالقصد أسمحُ كاسد

(1) والخُلْد والخَلْد: ضرب من الفئرة، وقيل: **الخَلد** الفأرة العمياء، وجمعها مَناجد على غير لفظ الواحد. (ابن منظور م.، 1990م، صفحة (خلد))

وإن كان راعى صنْعةَ اللحن كلّها ... بعلم الموسيقا وجسّ المراود
وغايته الإعجاب بالصنعة التي ... بها قد أتى قصدًا لدى كلّ ناقد
ومقصود أهل الشعر واللحن لم يكن ... لسامعه المصفى لتلك الأناشد
فكن في فنون الشعر طلّقَ أعنّةٍ ... على حسب الطبع الكريم التوالد
وهذّب معانيه وحرّر نظامه ... بأعذب لفظٍ سائلٍ غير جامد
ولا تلتفت للعائبين فإنّهم ... عن المنهل الصافي الهني بالمراصد
ودم في سرورٍ ما تألّقَ بارقٌ ... فأمطر سحْبَ الدمع من عين ساهد
وما غرّدَتْ فوق الأراك حمامةٌ ... فهاجتْ بشوقِ المغرم المتواجد

(النابلسي، 1998، صفحة 289 ج 3)

وأتبع النابلسي القصيدة بقوله: «... فإن هذا البحر المديد وقوافيه ذات المدّ والجزر تشتمل على الوفاء العديد، ومن شواهده قصيدة الطرماح التي مطلعها قوله:

شتّ شعْثُ الحيّ بعد التئامْ ... وشجاك اليوم ربعُ المقامْ

فإن هذا الشاعر المجيد من العرب العرباء يستشهد بشعره الذي هو كالدر النضيد، ولنا أيضًا على عروض القصيدة المشهورة، التي مطلع أبياتها المعمورة:

يا نديمي بمهجتي أفديكْ ... قم وهات الكؤوس من هاتيكْ

وذلك قولنا في مطلع قصيدة فريدة:

حسْن كلّ الملاح أصبح فيكْ ... آه من لي بنهلةٍ من فيكْ»

غير أن النابلسي الذي حكم بصحة الوزن في قصيدة عابدي تحفّظ على التاريخ الشعري في القصيدة في التأريخ الوارد في القصيدة فقال: «غير أن في التأريخ المذكور خلاف الأمر المعهود

المشهور، مما يكاد أن يكون الاحتراز عنه أمرًا لازمًا، ولا زال كلّ شاعر مهتمًّا به وعليه عازمًا، وذلك إيراد كلام خارج عن التاريخ بعد لفظ أرّخ مثلًا بطريق الفصل، فإنّ ذلك يوهم أنه من التاريخ، فلو كان البيت هكذا:

حين لا بدّ مذْ على عجلٍ جاء أرّختُ نعْم هذي الدارْ

لسلم من النقد والإيراد، وكان وافيًا بغاية المراد». (النابلسي، 1998، صفحة 292 ج 3)

حرصتُ على إيراد ما كُتب حول السؤال في رحلة النابلسي كاملًا ليتبيّن أن شعر الإخوانيّات لا يقتصر على تبادل المجاملات بل يرقى إلى درجة الحوار العلمي الرصين.

ويجيب محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني القاضي يحيى بن صالح السحولي سنة 1182هـ على تهنئته بمولوده إسماعيل ويؤرخ الولادة شعريًّا، بقوله:

حبّذا حبّذا بديع نظامك فهو راحٌ يدار من أقلامك
سرّني ما به بعثتَ وقبّلْـ ـتُ كتابًا من قبل فضّ ختامك
ثمّ سرّحت طرفَي في روض نظمٍ هو واللّه آيةٌ من كلامك
مثل ما أنعم الإله علينا بصبيٍّ ومنّةٍ من نظامك
داعيًا لي مهنّئًا بصبيٍّ إنّ هذا الدعاء من إنعامك
فله الحمد والثناء على ما منّ والمنّ من بديع نظامك
فجزاك الإله عنّيَ خيرًا يا عمادًا وزاد في أيّامك
ثمّ بيت التأريخ أصدق فالٍ صادقٌ يا عماد من أحكامك

(الأمير الصنعاني، 2009، صفحة 399)

د- الاكتفاء:

هـو أن يأتـي الشـاعر ببيـت مـن الشـعر، ويكـون آخـره متعلّقـا بمحـذوف لـم يُحتـج لذكـره لدلالـة البيـت عليـه[1]، يعـدّ باعـث إثبـات قـدرة الشـاعر علـى تفوّقـه في كتابـة الشـعر بمقاييـس العصـر التـي تعـدّ البديـع ركيـزة أساسـية ومؤشّـرًا مهمًّـا لذلـك التفـوّق، لذلـك يبـادر الشـاعر إلـى مجـاراة شـاعر آخـر في فـن مـن فنـون البديـع، كمـا جـارى عمـر الداغسـتاني قصيـدة للشـاعر صالـح الفلانـي ذكـر أن الشـاعر أرسـلها لـه ممتحنًـا اعتمـد فيهـا بديـع الاكتفـاء، يقـول الفلانـي:

يا ويح مبتاع الضلالة بالهدى	فلسوف يندم يوم يؤخذ بالنوا	صي
مـا همّـه إلا لقـاء كواعـبٍ	عرْبٍ تميس كأنها القضب النوا	ضر
للنقص في الدنيا يسوء وإنّما	حسناته عند الحساب هي النوا	قص
لم يدْرِ أن لا بدّ يومًا أن يُرى	في آلـةٍ حدبـاء تندبـه النـوا	دب
فيكون وهـو بحالـةٍ لـم ينتفـع	ببكا البواكي بل ولا نوح النوا	ئح
فدع التكاسل واستعدّ محاذرًا	بغْت المنون وما ينوب من النوا	ئب
واذكـر إلهـك بكـرةً وعشـيّةً	واشكر له وصل الفرائض بالنوا	فل
واعبـده واتّقـه ولا تكفـر بـه	وافعـل أوامـره ولا تأتـي النـوا	هي
واسْـألْه لا تسـأل سـواه فإنّـه	من فيض أبحر جوده تُرجى النوا	ئل
وأرغـب إليـه وعـذ بـه متوقّعًا	فرجًـا إذا نزلـت بسـاحتك النـوا	زل

ويذكر الداغستاني أنه أجابه على أسلوبه فقال:

يا فاضلاً حاز العلوم وسيّدًا	أبـدى نظامًـا حسـنه فـاق النـوا	ظر
نظمًا بليغ اللفظ فيه الاكتفا	حقًّـا لمـن يبغـي الغرائـب والنـوا	در

(1) (ابن معصوم ع.، 1969، صفحة 71 ج 3)

كالروض في نسماته وبهائه منها تفوح لمن يقابلها النوا فح
فيه الأزاهر من نصائحه لمن رام انتفاعا من لطائفه النوا فع
يحتاج قارئها البكاء لذنبه حتى بنوح منه تمتلئ النوا ئح
للّه درّك يا فصيحًا بالغًا أبدى بقوّةٍ فهمه الكلم النوا صح
نسخت بدائعك اللطيفة نظمنا للّه ما أحلى بدائعك النوا سخ
وحويت ما لم تحوه الأدباء من لفظٍ تفوق بها على نسج النوا سج
فلك الفصاحة والبلاغة كلّها عضّيت من عزم عليها بالنوا جذ
لا زلت في روض السعادة راتعًا تجني بسعدك منها الاثمار النوا ضج

(الداغستاني، 2009، صفحة 331)

ومن مظاهر الاحتفال بالمحسّن البديعي وعدّه مؤشرًا على التمكّن في كتابة الشعر الرسالة التي كتبها يوسف بن عبد الهادي الكوكباني إلى القاضي محمد بدر الدين الحيمي ملتزمًا فيها بالسين، حيث بدأها بقطعة نثرية منها: «سيدنا باسق غرس السماحة والحماسة، وسابق فرسان السيادة والسياسة، شمس سماء الداسة والرئاسة....»، ثم أتبعها شعرًا بقوله:

لست أنساك ومن ينسى سجاياك السنيّه
وسويداي لأنسا نك سفحٌ وسريّه
يا سليل الحسن السّـ ـمح ومعسول السجيّه
والحسام الماسح الحسّـ ـاد مسحًا بالسويّه
فاستمع سيرة استيـ ـحاش نفسٍ يوسفيّه
سردت سينًا وليـ ـست بلسان فارسيّه
واسق سمعي من رسالا تك كأسًا سلسليّه

والبس السؤدد لا مسّـ ـح السدوس السندسيّه
حرست نفسَك شمس الدّرْ دبيس الحندسيّه

(المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1968، صفحة 461 ج 3؛ المحبي، 1969)

وكتب محمد بن الهادي الديلمي القطابري قصيدة إلى الحسين بن المهلا تؤكد ارتهان شعراء العصر بالتراث، فالشاعر يمني لكنه يحشد مواضع تكرر ذكرها في الشعر القديم وهي في نجد والحجاز، يقول في مطلعها:

عج بالغضا ولعلع ورامةٍ والأجرع
وقف هناك معلنًا بصوتك المرجّع
واسأل أهيل المنحنى عن قلبي المستودع
قلبٌ به نار الهوى والوجد بين أضلعي
من لامريٍ دموعه في الخدّ أيّ همّع
يبكي اللّويلات التي سلامها تودّعي
ليلات وصلٍ عبرت عبور برْقٍ مسرع

هـ- رد العجز على الصدر:

وهو أن يكون أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بها في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صدر الثاني. (الصعيدي، بدون، صفحة 87 ج 4)

للعلامة يوسف بن إبراهيم بن محمد الأمير أبيات يجمع فيها

بين ردّ العجز على الصدر والجناس المرفوّ، قول فيها:

زوّجاني فإنّ شمس الأماني ... حين لاحت في ظلّها زوّجاني
راجعاني فقد تشوّقت للوصل ... وراج اللقا وما راج عاني
والقفاني إذا سقطت فإنّي ... كدت أفنى شوقًا ولم ألق فاني
شورباني بالموس من غير قصٍّ ... ذاك شورى لمن على الشورباني
لحّساني فإنّ خدّي ممّا ... قد جرى فيه مثلما لحّ ساني
زلّجاني إلى الحمى واجنيا من ... روض خدّي وردًا فما زلّ جاني
فالحقاني فإن عندي لمن يرّ ... فل في روض زبجه فلح قاني
صبّعاني فإنني مثل عود ... صيرتني نار الجوى صبّ عاني
كان ماني قد قال للنور فضلٌ ... فاتبعوه في قوله كان ماني
كبّساني إذا تعبت وكبّا ... عصبي في الهوى كما كبّ ساني
طلّعاني إلى الجباء فخلّي ... مذ رآني ببابه طلّ عاني
فرّغاني من السلوّ فما لي ... جَلَدٌ للسلوّ إن فرّ غاني

تظهر هذه الأبيات حرص العلماء ليكونوا في ربقة الشعراء، فالعلامة يوسف الأمير قامة علميّة كبيرة في ذلك الوقت، لكنه مع ذلك يحرص على كتابة شعر يتكلّف فيه حشد المحسنات البديعية ليكون محط أنظار أهل الشعر والأدب.

عندما اطَّلع القاضي أحمد بن لطف الباري الزبيدي على الأبيات السابقة جاراها بقوله:

شرّفاني بزورة تذهب الهمّ ... سريعا فالخير والشرّ فاني
حرّساني عن الرقيب فإنّي ... صرت خوف الرقيب في حرّساني
آنساني فقد توحّشت لمّا ... حنّ خدن الغرام أو أنّ ساني

حرّضاني وواصلاني ولو في ديمةٍ في الفلاة أو حرّ ضاني
برّجاني فليس ديني سوى البرّ لخلّي وليس من برّ جاني
قرّباني فلم أزل طول عمري بانيًا للوداد أن قرباني
صدّقاني في ما أقول وإلّا فاسألا الدمع فهو للصدّ قاني
رقّداني بالوصل لا تسهراني رقّ لي من نأى وما رقّ داني
ساختاني فإنني حافظ السرّ كليمٌ مذ ذقت موسى ختاني
عزّباني قد ذلّ من هدم الودّ بشحط الهوى كما عزّ باني
درّساني كتْب العلوم وإلّا قلت لله بعد ذا درّ ساني
حدّثاني هل صارم اللحظ كالسيـ ـف حديدًا أم ذاك في الحدّ ثاني
صبّحاني وقهوياني قِشْرًا أخرفيًّا فقهوة الصبّ حاني

(زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 178)

يُظهر مدى التكلّف الشديد في الأبيات حرص هؤلاء العلماء على المحسّن البديعي؛ لأنهم يرون فيه مناط تفوّق شعري.

و- التشجير أو التطريز:

قصد به المتأخرون أن يجعل الشاعر حروف أوائل الأبيات تشكّل اسمًا معينًا، وقد أطلق بعضهم عليه اسم التشجير، وهو غير ذلك فالتشجير «نوع من النظم يجعل تفرّعه على أمثال الشجرة، وسمي مشّجرًا لاشتجار بعض كلماته ببعض، أي تداخلها، وذلك أن ينظم البيت الذي هو جذع القصيدة، ثم يفرّع على كل كلمة منه تتمّة له من نفس القافية التي نظم بها، وهكذا من جهتيه

اليمنى واليسرى، حتى يخرج مثل الشجرة». (شيخ أمين، 1989، صفحة 244)

1- التطريز بأسماء الأشخاص:

كتب السيد محمد بن المساوى الأهدل إلى القاضي إسماعيل بن أحمد الضمدي مشجّرًا باسمه بهذه الأبيات:

ألا إنّ السواري والغوادي ... قرى للحاضرات وللبوادي
سقى ضمدَ الخصيب ملثُّ وبلٍ ... بها وسقت هنالك كلّ وادي
مساحب كلِّ منتهمٍ دلوفٍ ... وملعب كلّ منسجمٍ العهاد
أما لبست من الديباج ثوبًا ... من المخضرّ من عشب البلاد
عليه من معينة كلّ نوءٍ ... معممة الهضاب مع الوهاد
يعاهدها ضياء الدين صبحًا ... ويغي الآصال وهو على جواد
لقد حاز الفخار بغير شكٍّ ... وأضحى قدوةً يغي كلّ ناد

فأجاب الضمدي مشجرًا:

محبتكم منازلها فؤادي ... ورائق لفظكم أقصى مرادي
حماك اللّه أنت إمام علمٍ ... نعمت وطبت من زاد المعاد
مرامي أن أزورك كلّ يومٍ ... وأشفي القلب من قبل الأيادي
دعاكم غاية السؤل ادّكره ... لنا إذْ أنت بالإحسان باد

(زبارة الصنعاني، بدون، صفحة 258)

ويطرّز البوسنوي المدني اسم قاسم، فيقول:

قوامك غصنٌ في رياض البها انتشى ... وريقٌ بخمر الرّيق من ثغرك انتشا
أيا من بأفق الحسن قد حاز طلعةً ... أرتنا نزول البدر في جبهة الرّشا
سناؤك من عليائه أنت قاسمٌ ... سنا كلّ نور لاح كالشمس مدهشا
مباديك في حسنٍ إليه خواتم ... وأنت رئيس الوقت فاحكم بما تشا

(البوسنوي المدني، نسخة آل هاشم، صفحة 214)

2- التطريز بحروف الهجاء:

جعل العبسي أوائل أبيات قصيدته في مدح جاعد الخروصي مركّبةً على حروف الهجاء، منها قوله:

أسنا الأحبّة أنت يا أسماء ... وأشمّ أنفٍ أنفُكِ الشمّاء
بُرّي بصبٍّ في البلابل مبتلى ... بهوى الكواعب والكعاب بلاء
تعبي بتذكار التي آتيتها ... من مهجتي ما تشتهي وتشاء
ثبتت تعيث تثبّتًا بأثيثها ... ويحثّ عن مثواي ثمّ ثراء
جالت جياد جمالها في مهجتي ... ومجالهنّ الجزع والجرعاء
حلّت محبّتها حشاي فحاولت ... حتفي بحربٍ زحفه استحلاء
خرجت بخارجة الخدود فخدّرت ... صخر الخليل بخالها الخنساء
دقّت ديار العهد جرد صدورها ... عدوًا ودفّقت الدماء دماء
ذرني عذولي أستلذّ عذابها ... واعذل فعذلك لذّةٌ وذكاء
رقّت رضابًا فاسترقنيَ الرشا ... وشرتني الريحانة الخضراء

(الخصيبي، 1994، صفحة 151 ج1)

ويشترك الشاعر سالم بن محمد المحروقي البهلوي العماني مع الشاعر محمد بن عبد الله المعولي العماني من شعراء القرن الحادي عشر الهجري في كتابة قصيدة مركبة على الحروف الهجائية في مستهلّ البيت وسائر كلماته، مع طريقة المساجلة، مما يثبت ما نذهب إليه وهو أن أهم البواعث على شعر الإخوانيات رغبة الشاعر في رسوخ قدمه في قائمة الشعراء، ومن ثمّ المبارزة بين الشعراء في هذا المجال:

أأرجو إيابا من أناس تحمّلوا ... أأم ثمّ أرجو أن يتوبوا فأمّلوا
بُليتُ ببيضٍ بهنكات برينني ... بحسن بهاءٍ باهرٍ يتهلل
تهادت تجرّ الذيل تيها وتارة ... تمرّ فتحيي الصبّ طورا وتقتل
ثناها ثناءٌ عن ثبوت ثوائها ... بثهلان ثارت تطلب الثأر تثهل
جرى يوم جدّالين جامدُ دمعها ... من الجفن جونًا جوده يتهلل
حمى حيٍّ حيٍّ بالحمى حلّ حبّهم ... حشائي فحان الحين حين تحمّلوا
خرائد خودٍ خرّدٍ خلت أنها ... من الخلد خيراتٌ خراعيب ترفل
دموعي دماءٌ من دمًى داءُ دلّها ... دوائي دنا دهري دهاني التدلل
ذريني فقلبي ذاب مذ ذهب العزا ... إذا وذوى غصني ذبولا أولول
رشفت رضابا راض ريّض روعتي ... رعيت رياضا روضها يتهلل
زها مذ أتاني زائرًا زهو زهرةٍ ... زمانٌ زكا زَيْنًا وما زال يجمل
سما سيرتي سر سرّت سرائرنا سرى ... سميري سُرىً يسري سرورًا ويسأل
شربت شمولًا من شتيت مشوبةٍ ... بشهرٍ شذاه مندلٌ وقرنفل
صحبت صدودًا واسطحيت بوصلكم ... صرفت هواكم فاصرموا الحبل أو صلوا
ضنا بفؤادي والضمائر ضائرٌ ... ضحى ضربت صفحًا فضلّ التجمّل
طمست الهوى لمّا بدا طالع الهدى ... بطلعة سلطان بن سيف المعوّل
ظفرت بظلٍّ بالظما غير ظائلٍ ... ظليلٍ وظنّي أنّه لا يحوّل

على عن عدوٍّ عال عول عذاته ... على عالم العليا فزال التعلّل
غنيت غنى لمّا غنيت بمنزلٍ ... لهم غير ذي عولٍ لمن فيه ينزل
فهم في فخار فاضلين فما فنت ... فضائلهم فاضت ففاض التفضّل
قدمت وقولي مذ قربت قراهمُ ... أيا قوم قوموا قوّضوا ثمّ أقبلوا
كفوا كلّ كفّارٍ كَنودٍ فكبكبوا ... كتائب كانت كالأسود تقلقلوا
لقد لامني لمّا لجيت إليهمُ ... لئامٌ بحولي لا لقوا ما يؤمّلوا
مكارمهم ما مان مذ مدّ مدحهم ... متى ما تمنّى من مناهم مؤمّل
نظرت نجومًا في النداء ونورها ... نما لا نأى عن ناظرٍ يتأمّل
ومن مثل سلطانٍ وسيفٍ وإبنهم ... وفاءً وحكمًا في الموازين تثقل
هربت إليهم مذ هدوني إلى الهدى ... وأهدوا هدايا من هبات تعجّل
يقولون لي يا من يرجّي اليسار من ... ندا عصبةٍ من يعربٍ ذاك يحصل

(الخصيبي، 1994، صفحة 83)

وهذا الاحتفاء بالمحسّن البديعي ليس حكرًا على شعر الإخوانيّات، بل هو شأن كلّ الأغراض الشعرية، حيثّ عدّ مناط تفوّق شعري واقتدار، وظهر الاحتفاء به جليًّا في شعر الإخوانيّات، لأن جلّ من يتعاطى هذا الشعر هم من طبقة العلماء الذين يستظهرون معرفتهم بهذه الفنون البلاغيّة المدرسيّة.

الخـاتـمـة

الخاتمة

كانت الرحلة في لجّة شعر الإخوانيّات ممتعة تهادت بين الأدب والنقد وتاريخ الأدب، فالمادّة الشعريّة وافرة ومتنوّعة كمًّا وكيفًا، زمانًا ومكانًا، إذ توفّرت عليه جلّ دواوين الشعراء، وظهر بشكل بارز في شعر العصر بما يجعل التوقّف عنده ودراسته حتميّة، ولتبرز دراسته علاقة الشعر بالجانب الاجتماعي ودوره في مد أواصر الصداقة والألفة بين الناس.

فشعر الإخوانيات يكشف عن طبيعة حياة شريحة خاصة من المجتمع وجدت في التواصل الشعري وسيلة مهمّة استخدموها للتواصل الأدبي فيما بينهم، حيث يبرز الباعث الشعري لدى شعراء الإخوانيات مائزًا عن بواعث الشعر العلمي، حيث الرغبة في التواصل مع العالم/ الشاعر ورغبة في إبراز العلمية.

ويبرز مجال شعر الإخوانيات في هذا العصر خصبًا يحتاج إلى عددٍ من الدراسات التداولية التي تؤين مشاربه ومنازع شعرائه؛ فوشائجه متعددة يغلب عليها طابع التواري، حيث العلاقة بين الذات والآخر والآخر والذات والصبغة الصوفية واعتماد الرمز الصوفي - وهو هنا المرأة- في ثوب جديد.

ومع التعمق في دراسة شعر الإخوانيات تبرز ملامح ومميزات فارقة تفصله عن شعر المديح، وتؤكد أن الباعث على كتابته وسماته الخاصة التي تستعين بأغراض أخرى قد تكون سببًا في عدم وضوح هذا التميّز. كما تفتح مدوّنة شعر الإخوانيات حاجة دراسته إلى أدوات حديثه، كدراسته في ضوء نظرية التلقّي، أو من زاوية حجاجية أو تداولية.

ومن خلال تصفّح مصادر ومظان شعر الإخوانيات الكثيرة تبدّى ثراء فترة ما يسمى بأدب الدول المتتابعة، والذي تشكّل نهايته الفترة المختارة لهذا الكتاب، مما يحتّم مراجعة شعر هذه الفترة التي وُصمت بأنها فترة جمود وانحطاط فني. يؤكد شعر الإخوانيات - في هذا العصر - كغيره من الأغراض الشعرية أن هناك شعراء/ علماء في شتى مناطق الجزيرة العربية يكتبون الشعر باقتدار وبلغة فصحى جزلة سليمة. وأنهم كتبوا في أغراض أخرى مما يفتح البابَ للتأليف في أغراض موازية كالشعر الساخر والشعر السياسي وشعر الشكوى والغربة.

تبرز مصادر شعر الإخوانيات في هذه القرون - والتي لا تمثل إلا القليل من دواوين شعراء هذه الفترة التي لم يعد جلها متوفّرًا ومتاحًا للاطلاع، وما زال بعضه مخطوطًا لم ير النور بالتحقيق والطباعة والإخراج.

ومن المتوقع أن يفتح هذا الكتاب آفاقًا رحبة تخدم المدونة الأدبية وتاريخ الأدب، الذي وُلدت نظرية التلقّي الحديثة لدى أهم أقطابها جرّاء تحفّظه على القيمة المعتمدة لرصد نتاج آلة الإبداع المتوالية بما يحقق اعتماد الجمالية الحقيقية لدى

المتلقي. ويسرني أن أوجه القراء والمهتمين إلى ضرورة الاعتماد على الاطلاع المباشر لشعر هذا العصر الذي تزخر به دواوين الشعراء وكتب التراجم العديدة، وهناك دواوين كثيرة لشعراء العصر ما زالت مخطوطة، وإلى دراسة شعر العصر بتجرد تام ومحاولة عدم التأثر بما قرر نظريًا عن مستوى شعر العصر إذ يغلب عليه الإنشائية والحكم القاصر الذي لم يتأتّ من اطلاع مباشر على جل نتاج العصر. وينبغي كذلك دراسة تبادل السمات والمعاني بين الأغراض الشعرية المختلفة، وبيان شعرية الغرض الأصلي والغرض المستعار واندماجهما لإنتاج غرض جديد متولّد قد يلتبس بالأغراض التقليدية الأخرى. وفي نظري يحتاج هذا الإرث الشعري إلى الدراسة بشكل دقيق واع يجلّي مرتكزات هذا الشعر ويتتبّع بواعثه لربطه بثقافة العصر والأنماط المستحدثة منه بشكلٍ خاصٍ مثل الغزل الصوفي والبديعيات والشعر الإخواني والشعر الساخر. وأخيرًا قد تفتح هذه الدراسة لدراسات أخرى عميقة للتطبيق على أنماط أخرى من الشعر مثل شعر السخرية وفصله وتمييزه عن شعر الهجاء.

المصـــادر
والمراجع

المصادر والمراجع

- إبراهيم بن حسن الأسكوبي. (1989). ديوان إبراهيم بن حسن الأسكوبي. المدينة المنوّرة: مكتبة دار التراث.
- ابن المجاور. (1996). صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن خلدون. (1994). مقدّمة ابن خلدون. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.
- ابن مشرّف. (ط4). ديوان ابن مشرّف. الأحساء – الهفوف: مكتبة الفلاح.
- أبو إسحاق إبراهيم بن هليل الكاتب. (2017). ديوان رسائل الصابئ. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.
- أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي. (1985). دمية القصر وعصرة أهل العصر. الكويت: دار العروبة.
- أبو فراس الحمداني. (1983). ديوان أبي فراس الحمداني. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي. (1997). لباب الآداب. بيروت: دار الكتب العلميّة.

- أحمد بن عبد العزيز البسّام. (2005). الحياة العلميّة في وسط الجزيرة العربيّة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين. الرياض: دارة الملك عبد العزيز.
- أحمد بن عيسى النعمي. (2017). السادة الأشراف آل النعمي. بيروت: شركة الريان ناشرون.
- أحمد بن محمد الحضراوي. (1996). نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر. دمشق: وزارة الثقافة.
- أحمد بن محمد المقحفي. (2008). إتحاف الأحباب بدمية القصر الناعتة لمحاسن بعض أهل العصر. صنعاء: مكتبة الرشاد.
- البحتري. (بدون). ديوان البحتري بتحقيق حسن كامل الصيرفي. القاهرة: دار المعارف.
- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. (1970). المفردات في غريب القرآن. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الصابئ والرضي. (1961). رسائل الصابئ والشريف الرضي. الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء.
- العباس بن علي الموسوي المكي. (بدون). نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس. الطائف: مكتبة المعارف.
- الوليد بن عبيد البحتري. (2012). ديوان البحتري. بيروت: دار الكتاب العربي.
- بشرى محمد علي إسماعيل. (1 ع43، 1997). أدب الاقتضاء

واستنجاز الحوائج: مدلولاته الخلقية في الشعر الأموي. مجلة الآداب جامعة بغداد، صفحة 88.

- بكري شيخ أمين. (1989). مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. بيروت: دار العلم للملايين.
- جعفر بن محمد الخطّي. (2005). ديوان أبي البحر الخطّي. بيروت: الانتشار العربي.
- جلال الدين الرومي. (2009). مختارات من ديوان شمس الدين التبريزي. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- حجاب بن يحيى الحازمي. (2018). الشعر والشعراء في جازان خلال ثمانية قرون. طنطا: دار النابغة.
- حسن ابن مصطفى البوسنوي. (نسخة طولة). ديوان البوسنوي. المدينة المنوّرة: مخطوط.
- حسن مصطفى البوسنوي المدني. (نسخة آل هاشم). ديوان حسن أفندي البوسنوي. المدينة المنورة: مخطوط.
- حسين ابن غنّام. (1949). تاريخ نجد. القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- حسين خلف الشيخ خزعل. (1962). تاريخ الكويت السياسي. القاهرة: دار ومكتبة الهلال.
- حميد بن محمد العبيداني النخلي. (1998). الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة .

- خالد إبراهيم يوسف. (2003). الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان. بيروت: دار النهضة العربية.
- خالد القشطيني. (1989). الشعراء في إخواناتهم. جدة: اثينية عبد المقصود خوجة.
- خالد نبيل أبو علي. (1 يناير، 2009). معاني الغزل بين التقليد والتجديد في العصرين المملوكي والعثماني. مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية :غزة – فلسطين، الصفحات 1-37.
- خليل مردم بك. (ط2 1977). أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- خير الدين الزركلي. (1992). الأعلام . بيروت: دار العلم للملايين.
- درويش محمد بن أحمد الطالوي. (1983). سانحات دمى العصر في مطارحات بني العصر. بيروت: عالم الكتب.
- ريتشارد مورتيل. (2015). دراسات في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة في العصر الإسلامي الوسيط. الرياض: كرسي الأمير سلمان بن عبد العزيز للدراسات التاريخية والحضارية.
- سالم بن وصيل السميري. (2017). جعفر البيتي: شاعر المدينة في القرن الثاني عشر الهجري. المدينة المنورة : نادي المدينة المنورة الأدبي.

- سعد العبد الله الصويّان. (2010). الصحراء العربية -ثقافتها وشعرها عبر العصور (قراءة أنثروبولوجية). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- سعيد بن محمد الغشري. (بدون). ديوان الغشري. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
- سلطان بن محمد القاسمي . (2023). تاريخ أئمة البوسعيد في عمان. الشارقة: منشورات القاسمي.
- سلطان بن محمد القاسمي. (2022). تاريخ اليعاربة في عمان. الشارقة: منشورات القاسمي.
- سلطان بن محمد القاسمي. (2023). تاريخ الملوك النبهانيين في عمان. الشارقة: منشورات القاسمي.
- شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي. (1967). ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- شوقي ضيف. (1980). عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية- العراق- إيران). القاهرة: دار المعارف.
- طراد الكبيسي. (1 ،2 ،1971). مقدمة في الشعر الصوفي. المورد، الصفحات 13-26.
- طه وادي. (1995). الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر. القاهرة: دار المعارف.
- عائض الردادي. (1984). الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري. جدة: مكتبة المدني.

- عبد الحميد محمد أحمد. (2002). الإخوانيات في الشعر السوداني. الخرطوم: الدار السودانية للكتب.
- عبد الحميد محمد أحمد. (2002). الإخوانيّات في الشعر السوداني. الخرطوم: الدار السودانية للكتب.
- عبد الرحمن بن سليمان الأهدل. (2010). النفس اليماني. صنعاء: مكتبة الإرشاد.
- عبد الرحمن الأنصاري. (1970). تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب. تونس: المكتبة العتيقة.
- عبد الرزاق البيطار. (1963). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. دمشق: مجمع اللغة العربية.
- عبد العزيز بن علي البيضاوي الزمزمي. (2013). ديوان الزمزمي. القاهرة: الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية.
- عبد الغني بن إسماعيل النابلسي. (1998). الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز. دمشق: دار المعرفة.
- عبد الكريم محمد الأسعد. (1992). الوسيط في تاريخ النحو العربي. الرياض: دار الشواف للنشر والتوزيع.
- عبد الله محمد الحبشي. (1986). الأدب اليمني - عصر خروج الأتراك الأول من اليمن (1635 - 1879م). صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع.
- عبد الله الحامد. (1993). الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين 1150 - 1350هـ . الرياض: دار الكتاب السعودي.

- عبد الله بن أحمد الشباط. (2007). الإخوانيات في الشعر الأحسائي المعاصر. الدمام: نادي النطقة الشرقية الأدبي.
- عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني. (1987). المقتطف في تاريخ اليمن. بيروت: منشورات العصر الحديث.
- عبد الله بن محمد الغازي المكي الحنفي. (2009). إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام . مكة المكرمة: مكتبة الأسدي.
- عبد الله بن ناصر الحارثي. (ط2 2011). عمان في عصر بني نبهان. مسقط: جامعة السلطان قابوس – مجلس النشر العلمي.
- عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي. (1983). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. بيروت: دار الكتب العلميّة. .
- عثمان بن عبد الله ابن بشر. (1982). عنوان المجد في تاريخ نجد. الرياض: دارة الملك عبد العزيز.
- عزة محمود الشاعر. (2016). الإخوانيات في سقط الزند. القاهرة: مجلة كلية دار العلوم.
- علي بن أحمد ابن معصوم. (1988). ديوان ابن معصوم. القاهرة: عالم الكتب.
- علي بن أحمد ابن معصوم. (2009). سلافة العصر في محاسن أهل العصر. دمشق: دار كنان.
- علي بن تاج الدين السنجاري. (1998). منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم. مكة المكرمة : جامعة أم القرى.

- علي جعفر العلاق. (2000). شعرية الصداقة. القاهرة: مجلة كلية دار العلوم.
- عمر بن عبد السلام الداغستاني. (2009). اللالئ الثمينة في أعيان شعراء المدينة. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- عمر رضا كحالة. (1957). معجم المؤلفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- فتح الله ابن النحاس. (1991). ديوان فتح الله بن النحّاس. المدينة المنورة: مكتبة دار التراث.
- فدوى إبراهيم عبد الله فدوى ومريم علي سالم ثابت وحجل. (2 أبريل، 2020). الدراسات الأسلوبية وتفعيلها في دراسة النص الأدبي: نص شعري قديم أنموذجا. مجلة ابن منظور لعلوم اللغة العربية، الجمعية الليبية لعلوم اللغة العربية، الصفحات 338-358.
- فهد بن علي بن هاشل السعدي. (2007). معجم شعراء الإباضية. مسقط: مكتبة الجيل الواعد.
- فوزي سعد عيسى، وفوزي أمين. (2008). في أدب الدول والإمارات- مصر. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- مجهول. (1984). تراجم أعيان المدينة المنورة. جدة: دار الشروق.
- محمد بن مكرم ابن منظور. (1994). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

- محمد ابن إسحاق. (2006). ديوان سلوة المشتاق. صنعاء: مكتبة الإرشاد.
- محمد الشلّي اليمني. (2004). السناء الباهر بتميل النور السافر في أخبار القرن العاشر. صنعاء: مكتبة الإرشاد.
- محمد أمين الزللي. (1985). ديوان محمد أمين الزللي. المدينة المنورة: مكتبة دار التراث.
- محمد أمين المحبّي. (1969). نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة. القاهرة: إحياء الكتب العربية.
- محمد أمين بن فضل الله المحبي. (1969). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. القاهرة: المطبعة الوهبية.
- محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. (2009). ديوان الأمير الصنعاني. صنعاء: مكتبة الإرشاد.
- محمد بن خليفة النبهاني الطائي. (1986). التحفة النبهانيّة في تاريخ الجزيرة العربية. بيروت: دار إحياء العلوم.
- محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي. (1994). شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
- محمد بن راضي الشريف. (2010). ديوان محمد بن يحي قابل. مكة المكرمة: مكتبة جامعة أم القرى قسم الرسائل العلمية.
- محمد بن عبد الله الأنصاري الأحسائي. (1960). تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد. الرياض: المؤلف.

- محمد بن علي الشوكاني. (1986). ديوان الشوكاني. دمشق: دار الفكر.
- محمد بن علي الشوكاني. (بدون). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. بيروت: دار المعرفة.
- محمد بن محمد زبارة الصنعاني. (بدون). نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر. بيروت: دار العودة.
- محمد بن مكرم ابن منظور. (1990م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- محمد خليل السمرجي. (مخطوط). ديوان محمد خليل السمرجي. عارف حكمت 387: مخطوط.
- محمد خليل المرادي. (1988). سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. بيروت: دار البشائر الإسلامية.
- محمد زايد. (2011). أدبية النص الصوفي: بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفنّي. إربد: عالم الكتب الحديث.
- محمد زغلول سلام. (1970). الأدب في العصر المملوكي. القاهرة: دار المعارف.
- محمد سعيد المسلم. (1962). ساحل الذهب الأسود. القاهرة: دار مكتبة الحياة.
- محمد فريد بك. (بدون). تاريخ الدولة العثمانية العليّة. بيروت: دار الجيل.
- محمد مرتضى الزبيدي. (1965). تاج العروس من جواهر

القامـوس. بيـروت: دار إحيـاء التـراث العربـي.

- محمـود سـالم محمـد. (2019). مدخـل إلـى الأدب العربـي في العصـر المملوكـي. دمشـق: جامعـة دمشـق.
- موسـى بـن يحيـى ابـن بهـران. (2006). ديـوان ابـن بهـران. صنعـاء: مكتبـة الإرشـاد.
- يعقـوب بـن يوسـف الغنيـم. (2016). دولـة الكويـت مـن صبـاح الأول إلـى صبـاح الخامـس. الكويـت: مكتبـة الأمـل.

فهـــرس
المحتـــويات

فهــرس المحتــويات

مقدمة الباحث 5

الفصل الأول: مفهوم شِعْرِ الإخوانيات 9

أولًا- المعنى اللغوي للإخاء:..... 11

ثانيًا- المعنى الدلالي لقصائد الإخوانيات: 12

ثالثًا: الإخوانيات في الأدب العربي: 17

الفصل الثاني: الإطار التاريخي والثقافي للعصر 33

أولًا- السياق التاريخي:..... 35

ثانيًا- السياق الثقافي: 40

ثالثًا) الإخوانيات والشعر الصوفي: 43

رابعًا) - صور المديح في شعر الإخوانيات: 47

الفصل الثالث: بواعث شعر الإخوانيات 55

أ- الإطراء والثناء:..... 57

ب - الاشتياق: 93

ج- المراسلة: 103

د- التهاني:..... 116

1- التهنئة بعقد نكاح: 117

2- التهنئة بكتاب: 119
3- التهنئة برمضان والعيدين:..... 121
4- التهنئة بمولود:..... 123
5- التهنئة بالشفاء:..... 126
6- التهنئة بزيارة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم:..... 127
هـ- الاستنجاز: 128
و - العتاب: 135
ز - الباعث العلمي: 142
1- الأسئلة العلميّة:..... 142
2- الإلغاز:..... 152
3- الإجازة العلميّة:..... 159
4- استعارة وطلب الكتب والشعر: 162
5- تقريظ الكتب والشعر:..... 165
ح - المداعبة:..... 178
ط- الشكوى: 181
ي - المساجلة والإجازة الشعريّة:..... 184
ك- الاعتذار: 190
الفصل الرابع: سمات شعر الإخوانيات 197
أولا- السمات الأسلوبية: 199
أ. المقدمة الغزلية:..... 199
ب- تأنيث القصيدة والتغزّل بها:..... 206

ج- وصف الطبيعة: 211
د- التكرار: 213
هـ- الاعتذار عن قصور ما كتبه الشاعر: 217
و- التشخيص: 221
ز- الوزن والقافية: 222
ثانيا- السمات البلاغيّة: 223
أ- الجناس: 223
ب- التوجيه: 226
هـ- التأريخ الشعري: 228
د- الاكتفاء: 234
هـ- رد العجز على الصدر: 236
و- التشجير أو التطريز: 238
1- التطريز بأسماء الأشخاص: 239
2- التطريز بحروف الهجاء: 240
خاتمة البحث 243
المصادر والمراجع 249
فهرس المحتويات 263

تم بحمد الله

بسم الله الرحمن الرحيم
مجلس التعاون لدول الخليج العربية

مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية
GCC Centre for Translation, Arabisation and Promotion of Arabic

CTAPA@GCCSG.ORG | (+٩٦٨) ٢٤٩٦٨٨٥٩
@CTAPA_GCC | (+٩٦٨) ٢٤٦٧٥٥٠
ص.ب: ٥٣٩، الرمز البريدي: ١١٨، مسقط، سلطنة عُمان